التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الزخرف و سورة الدخان

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/ قنا

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزخرف وسورة الدخان)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني والثلاثون - سورة الزخرف
وسورة الدخان/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ
٤٦٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- سورة الزخرف- تفسير ٢- القرآن- سورة الدخان - تفسير
أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١٣٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٤٦
ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة الزخرف وسورة الدخان)

إعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

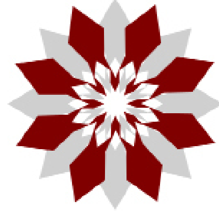
الشَّيخ عَلَوي بن عبد القَادِر السَّقَّاف

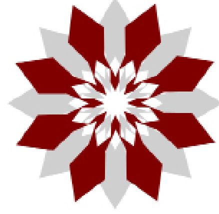
المجلد الثاني والثلاثون

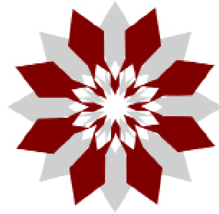
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الزُّخْرُفِ







سورةُ الزُّخرُفِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّخرُفِ)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الزُّخرُفِ مَكِّيَّةٌ(٢)، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الزُّخرُفِ:

١- إقامةُ البَراهينِ على وَحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ(٤).

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن أذى المُشرِكينَ(٥).

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الزُّخرُفِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤، ٣٥]، فكَلِمةُ (زُخرُف) وقَعَت فيها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ، فعَرَّفوها بهذه الكَلِمةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٧).

(٢) وقيل: إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٥).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تَناوَلَتْها سُورةُ الزُّخرُفِ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن قومِه.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَعضِ نِعَمِه على خَلْقِه.

٤- عَرضُ بَعضِ افتراءاتِ المُشرِكينَ وأقوالِهم الفاسِدةِ، مع الرَّدِّ عليها وتَفنيدِها، وبيانِ سُوءِ عاقِبتِهم في الدُّنيا والآخرةِ.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن دَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وجانِبٍ مِن قِصَّةِ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ، ومَوقِفِ المُشرِكينَ مِن عيسى عليه السَّلامُ.

٦- بِشارةُ المؤمِنينَ بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيمِ، وبَيانُ عِقابِ المُجرِمينَ في جهنَّمَ وتَمنِّيهم الموتَ.

٧- تَوجيهاتٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، مع ذِكرِ بَعضِ أدِلَّةِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.



(١/ ٤٢١).

الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣
وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن
كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ
إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: أصلِ الكِتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ، وأُمُّ كلِّ شَيءٍ أصلُه(١).

﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: أي: نُمسِكُ ونَترُكُ، يُقالُ: ضَرَبتُ عنه وأضرَبتُ عنه، أي: تَركتُه وأمسكتُ عنه، وأصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ(٢).

﴿صَفۡحًا﴾: أي: إعراضًا، يُقالُ: صَفَحتُ عن فُلانٍ: إذا أعرَضتَ عنه،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

قال الهَرَوي: (والأصلُ في ذلك -ضَرَبتُ عنه الذِّكرَ-: أنَّ الرَّاكِبَ إذا رَكِبَ دابَّةً فأراد أن يَصرِفَه عن جِهتِه ضَرَبَه بعصاه؛ لِيَعدِلَه عن جهتِه إلى الجِهةِ الَّتي يريدُها؛ فوُضِعَ الضَّربُ مَوضِعَ الصَّرفِ والعَدلِ). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (٤/ ١١١٩). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ١٥).

وقال البِقاعي: (الحاصِلُ أنَّ الضَّربَ إيقاعُ شَيءٍ على آخَرَ بقُوَّةٍ، فمُجَرَّدُه مُتعَدٍّ إلى واحدٍ، فإنْ عُدِّيَ إلى آخَرَ بـ«عن» ضُمِّنَ معنى الصَّرفِ، وإذا زِيدَت همزةُ النَّقلِ فقيل: أضرَبْتُ عنه، أفادَت الهَمزةُ قَصْرَ الفِعلِ، وأفهَمَت إزالةَ الضَّربِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٣).

والأصلُ في ذلك أنَّك مُوَلِّيه صَفْحَةَ عُنُقِك، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على عَرضِ الشَّيءِ وجانِبه[(١)].

﴿بَطۡشٗا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[(٢)].

﴿مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: ذِكرُ حالِهم، ووصْفُ عِقابِهم، وكيفيَّةُ إهلاكِهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾

قَولُه: ﴿صَفۡحًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المَصدرِ، فهو مُلاقيه في المَعنى؛ فالضَّربُ هنا بمعنى الصَّفحِ، فكأنَّه قال: أنترُكُ تَذكيرَكم إعراضًا عنكم. كما يُقالُ: هو يَدَعُه تَركًا؛ لأنَّ معنى يَدَعُه: يَترُكه. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ من الفاعِلِ، أي: صافِحِينَ، كما تقولُ: جاء زيدٌ مَشْيًا، أي: ماشِيًا. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَفعولًا من أجْلِه، أي: أفَنَضرِبُ عنكم الذِّكرَ ونَرفَعُه صفحًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٤).
قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: صِفتُهم الَّتي هي إهلاكُهم المُستأصلُ بسببِ تكذيبِهم الرُّسُلَ. وقولُ مَن قال: ﴿مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم وسُنَّتُهم- راجعٌ في المعنى إلى ذلك). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨٣).

وإعراضًا عنكم. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الظَّرفِ، بمعنى: أفنُنَحِّيه عنكم جانبًا. والصَّفحُ على ذلك بمعنى الجانِبِ، مِن قَولِهم: نَظَرَ إليه بصَفْحِ وَجهِه، أي: بجانِبِ وَجهِه.

والمصدَرُ المُؤوَّلُ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ (اللَّامِ)، أو في محَلِّ جرٍّ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتعَلِّقٍ بـ(نَضرِبُ)، أي: أفنَضرِبُ... لِأَنْ كُنتُم[١].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حم﴾، وهما مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالكِتابِ المُبينِ لِكُلِّ شَيءٍ على أنَّه جَعَل هذا الكِتابَ قُرآنًا عَربيًّا؛ لعَلَّ العِبادَ يَفهَمونَ مَعانيَه ويَتدَبَّرونَه، وأنَّ هذا القُرآنَ في اللَّوحِ المحفوظِ عِندَه تعالى، ذو عُلُوٍّ وذُو حِكمةٍ وإحكامٍ، فلا لَبسَ فيه ولا زَيغَ.

ثمَّ قال تعالى مُنكِرًا على المُشرِكينَ: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم؛ لِأَنْ كنتُم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومًا مُسرِفينَ على أنفُسِكم في الكُفرِ والعِصيانِ؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كَذَّبه: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ السَّابِقةِ، فما أتاهم نبيٌّ إلَّا استَهزَؤوا به! فأهلَكْناهم وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ قَومِك -يا محَمَّدُ-؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على كُفرِهم واستِهزائِهم، وقد مضى مَثَلُ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٥٧٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٦).

أولئك المكَذِّبينَ فهَلَكوا وصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحَرفانِ اللَّذانِ افتُتِحَت بهما هذه السُّورةُ وغيرُها مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها(١).

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بالكِتابِ المُوضِّحِ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ(٢).

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا القُرآنَ بِلسانٍ عَربيٍّ؛ لعلَّكم تَفهَمونَ مَعانيَه وتَتدَبَّرونَه(٣).

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٢).

قال القرطبي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تَفهَمونَ أحكامَه ومعانيَه، فعلى هذا القَولِ يَكونُ خاصًّا للعَرَبِ دونَ العَجَمِ [أي: في توجيهِ الخِطابِ، وليس المرادُ عُمومَ البَعثةِ كما لا يخفى]. قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زَيدٍ: المعنى: لعَلَّكم تتفَكَّرونَ، فعلى هذا يكونُ خِطابًا عامًّا للعَرَبِ والعَجَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: تكَلَّمْنا به عَرَبيًّا، وأنزَلْناه عربيًّا، وكذلك فسَّره السَّلَفُ، كإسحاقَ بنِ راهَوَيه، وذكره عن مُجاهِدٍ، قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قُلْناه عربيًّا، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ في اللَّوحِ المَحفوظِ عِندَنا ذو عُلُوٍّ في محَلِّه وقَدْرِه وشَرَفِه، وذو حِكمةٍ وإحكامٍ؛ فلا يَعتَريه اختِلافٌ ولا اضطِرابٌ، وليس فيه نَقْصٌ، ولا لَبْسَ فيه ولا زَيْغَ(١).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وقال عز وجل: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أوضَحَ اللهُ تعالى عَظيمَ حالِ الكِتابِ، وجَليلَ نِعمتِه به؛ أردَفَ ذلك

= ذكره ابنُ أبي حاتم في تفسيرِه عن إسحاقَ بنِ راهَوَيه، قال: ذُكِرَ لنا عن مُجاهِدٍ وغيرِه من التَّابعينَ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾: إنَّا قُلْناه ووصَفْناه. وذكرَه عن أحمدَ بنِ حنبلٍ عن الأشْجَعيِّ عن سُفيانَ الثَّوريِّ، في قولِه ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾: بَيَّنَّاه قُرآنًا عربيًّا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٣، ٤٤).

بذِكرِ سَعةِ عَفوِه، وجميلِ إحسانِه إلى عبادِه، ورَحمتِهم بكتابِه، مع إسرافِهم وقَبيحِ مُرتكَبِهم[١].

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿إِن﴾ بكسرِ الهمزةِ، وهي شرطيَّةٌ على معنى الاستِقبالِ، أي: إنْ تَكونوا مُسرِفينَ نَضرِبْ عنكم الذِّكرَ[٢].

٢- قراءةُ ﴿أَن﴾ بفتحِ الهمزةِ، والمعنى: بأنْ أسرَفْتُم. أو: لِأنْ أسرفْتُم[٣].

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾.

أي: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم، ونُهمِلُكم فلا نأمُرَكم ولا نَنهاكم؛ مِن أجْلِ أنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومٌ مُعرِضونَ عن أمرِ اللهِ تعالى، مُجاوِزونَ له[٤]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٢).

(٢) قرأ بها: نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير =

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إسرافَهم في الإعراضِ عن الإصغاءِ لِدَعوةِ القُرآنِ؛ أعقَبَه بكَلامٍ مُوَجَّهٍ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَسليةً عَمَّا يُلاقيه منهم في خِلالِ الإعراضِ مِن الأذى والاستِهزاءِ، بتذكيرِه بأنَّ حالَه في ذلك حالُ الرُّسُلِ مِن قَبلِه، وسُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ- ووَعدًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ على

= ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٨، ٤٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالذِّكْرِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ذِكْرُ العَذابِ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن عذابِكم ونَترُكُكم على كُفرِكم؟! وهذا معنى قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، والسُّدِّيِّ. والثَّاني: أنَّه القُرآنُ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن إنزالِ القُرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّكم لا تُؤمِنونَ به؟! وهو معنى قَولِ قَتادةَ، وابنِ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٣).

واختار ابنُ جريرٍ القَولَ الأوَّلَ، فقال: (وأَولى التَّأويلينِ في ذلك بالصَّوابِ تأويلُ من تأوَّلَه: أفنَضرِبُ عنكم العذابَ فنَترُكُكم ونُعرِضَ عنكم؛ لِأنْ كُنتُم قَومًا مُسرِفينَ لا تُؤمِنونَ برَبِّكم؟! وإنَّما قُلْنا ذلك أَولى التَّأويلَينِ بالآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أَتْبَعَ ذلك خبَرَه عن الأُمَمِ السَّالِفةِ قبْلَ الأُمَّةِ الَّتي توَعَّدَها بهذه الآيةِ في تكذيبِها رُسُلَها، وما أحَلَّ بها مِن نِقمتِه؛ ففي ذلك دليلٌ على أنَّ قَولَه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وَعيدٌ منه للمُخاطَبينَ به مِن أهلِ الشِّركِ؛ إذ سَلَكوا في التَّكذيبِ بما جاءهم عن اللهِ رَسولُهم مَسلَكَ الماضِينَ قَبْلَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٠). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٤).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿صَفْحًا﴾ ... يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى العَفوِ والغَفْرِ للذَّنْبِ، فكأنَّه يقولُ: أفنَترُكُ تَذكيرَكم وتخويفَكم عَفوًا عنكم، وغَفْرًا لإجرامِكم؛ إذ كُنتُم أو مِن أجْلِ أن كُنتُم قومًا مُسرِفينَ؟! أي: هذا لا يَصلُحُ...؛ ويحتمِلُ قَولُه: ﴿صَفْحًا﴾ أن يكونَ بمعنى: مَغفولًا عنه، أي: نَترُكُه يَمُرُّ، لا تُؤخَذونَ بقَبولِه ولا بتدَبُّرِه، ولا تُنَبَّهونَ عليه ...). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٨).

قَومِه، بتذكيرِه بسُنَّةِ اللهِ في الأُمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَهم[(١)].

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

أي: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ الماضيةِ لِدَعوةِ أقوامِهم إلى الحَقِّ[(٢)].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

أي: وفما يأتي نَبيٌّ إلى قومٍ إلَّا كانوا يَسخَرونَ منه[(٣)]!

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

أي: فأهلَكْنا أولئك المُستَهزِئينَ بالرُّسُلِ، ولم يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عَذابِ اللهِ، وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ مَكَّةَ المُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على باطِلِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٦).

قال ابن جرير: (يَستَهزِئونَ سُخريةً منهم به كاستِهزاءِ قَومِك بك -يا مُحمَّدُ. يقولُ: فلا يَعْظُمَنَّ عليك ما يَفعَلُ بك قَومُك، ولا يَشُقَّنَّ عليك؛ فإنَّهم إنَّما سَلَكوا في استِهزائِهم بك مَسلَكَ سُلَّافِهم، ومِنهاجَ أئمَّتِهم الماضينَ مِن أهلِ الكُفرِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي: مِن قُرَيشٍ الَّذين يَستَهزِئونَ بك ﴿بَطْشًا﴾ مِن جِهةِ العَدَّ =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: ووقَعَ إهلاكُ اللهِ للأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم رُسُلَهم، واستِهزائِهم بهم؛ فصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم، ومِثالًا يَرتَدِعُ به غَيرُهم؛ فلْيَحذَرْ كُفَّارُ هذه الأُمَّةِ أن يَسيروا سِيرتَهم، ويَسلُكوا في الباطِلِ طَريقتَهم؛ فيُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ التَّأمُّلَ في القُرآنِ -وهو تَحديقُ ناظِرِ القَلبِ إلى معانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تَدَبُّرِه وتَعَقُّلِه- هو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدَ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تَدَبُّرٍ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ الرُّسُلُ تُبَيِّنُ

= والعُدَدِ والقُوَّةِ والجَلَدِ، فما ظنُّهم بأنفُسِهم وهم أضعَفُ منهم، إن تمادَوا في الاستِهزاءِ برَسولِ اللهِ الأعلى؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).

للنَّاسِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وعليهم أن يُبَلِّغوا النَّاسَ البلاغَ المُبينَ، والمطلوبُ مِن النَّاسِ أن يَعقِلوا ما بَلَّغه الرُّسُلُ، والعَقلُ يتضَمَّنُ العِلمَ والعَمَلَ؛ فمَن عَرَف الخيرَ والشَّرَّ فلم يتَّبِعِ الخيرَ ويَحذَرِ الشَّرَّ لم يكُنْ عاقِلًا؛ ولهذا لا يُعَدُّ عاقِلًا إلَّا مَن فَعَل ما يَنفَعُه، واجتَنَب ما يَضُرُّه، فالمجنونُ الَّذي لا يُفَرِّقُ بيْنَ هذا وهذا قد يُلقي نَفْسَه في المهالِكِ، وقد يَفِرُّ مِمَّا يَنفَعُه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أنَّ القرآنَ عليٌّ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ فله العُلُوُّ، كقوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وشاهدُ هذا الواقعُ: فلَمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ متمسِّكةً بالإسلامِ كان لها العُلُوُّ والظُّهورُ، وملَكتْ به مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إطلاقُ اسمِ الكِتابِ على القُرآنِ، باعتِبارِ أنَّ اللهَ أنزَلَه لِيُكتَبَ، وأنَّ الأُمَّةَ مأمورون بكتابتِه، وإن كان نُزولُه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفظًا غيرَ مَكتوبٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه سيُكتَبُ في المصاحِفِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسَمَ بالكِتابِ المُبينِ، وأطلَقَ ولم يَذكُرِ المُتعلَّقَ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبينٌ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ مِن أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ والآخِرةِ[٤].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أنَّ كَوْنَ القُرآنِ باللُّغةِ العَربيَّةِ مَنقَبةٌ كُبرى للعَرَبِ؛ حيثُ نزَلَ بلُغَتِهم[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ العَقلُ هنا بمعنى الفَهمِ، ففيه أنَّ الحُجَّةَ لا تكونُ إلَّا بالفَهمِ، فمَن بَلَغَه القُرآنُ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ ولم يَفْهَمْ منه شَيئًا؛ فلا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ومَن بَلَغَه باللُّغةِ العربيَّةِ وهو لا يَفهَمُها؛ فإنَّها لا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فالحُجَّةُ لا تقومُ على العِبادِ إلَّا بفَهمِها ومَعرِفةِ معناها[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه سُؤالٌ: إن قيل: الجَعلُ هو الخَلقُ، فلِمَ لَمْ يَقُلْ: (قُلْناه) أو (أنزَلْناه)؟

الجوابُ: الجَعلُ يأتي بمعنى القَولِ أيضًا، كقَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقَولِه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[3] [إبراهيم: ٣٠].

وأيضًا فإنَّ (جعَلَ) إذا كان بمعنى (خلَقَ) يَتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وإذا تعدَّى إلى مَفعولَينِ لم يكُنْ بمعنى خلَقَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:

= والقاعدةُ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يفيدُ العُمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩، ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١١، ٥١٢).

٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائرُه كثيرةٌ. فكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ فَهمِ القرآنِ على ما يقتَضيه ظاهِرُه باللِّسانِ العَربيِّ؛ إلَّا أنْ يَمنَعَ منه دَليلٌ شَرعيٌّ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنعامُ اللهِ على عبادِه؛ لأنَّ اللِّسانَ العَرَبيَّ أكمَلُ الألسِنةِ، وأحسَنُها بيانًا للمَعاني؛ فنُزولُ الكتابِ به أعظَمُ نعمةً على الخَلقِ مِن نُزولِه بغيرِه، وهو إنَّما خُوطِبَ به أوَّلًا العَرَبُ؛ لِيَفهَموه، ثمَّ مَن يَعلَمُ لُغتَهم يَفهَمُه كما فَهِمُوه، ثمَّ مَن لم يَعلَمْ لُغتَهم تَرجَمَه له مَن عَرَفَ لُغتَهم، وكان إقامةُ الحُجَّةِ به على العَرَبِ أوَّلًا، والإنعامُ به عليهم أوَّلًا؛ لِمَعرفتِهم بمعانيه قبْلَ أن يَعرِفَه غيرُهم[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ عنايةُ اللهِ تبارك وتعالى بهذا القُرآنِ، وهذا يدُلُّ على شَرَفِه؛ حيثُ جَعَله عندَه في أُمِّ الكِتابِ[٤].

٩- سُئِلَ عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عن القَدَرِ، فتلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

(١) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ١٠١-١٠٤) و(٤/ ٢٦٦)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧ - ٥٢).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).

ﱡﭐ ﭐﱠ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، وقال: (هو الكِتابُ الَّذي كتبَه قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ، وفيه أنَّ فِرعونَ مِن أهلِ النَّارِ، وفيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ [المسد: ١])(١).

١٠- قولُه: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ فيه إشعارٌ باقتِضاءِ الحِكمةِ تَوَجُّهَ الذِّكرِ إليهم ومُلازَمَتَه لهم كأنَّه يَتَهافَتُ عليهم(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أقام الحُجَّةَ على جميعِ الخَلقِ، ويُؤيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾(٣) [فاطر: ٢٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بيانُ شدَّةِ صبرِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ إنَّهم يُستهزَأُ بهم؛ وهم صابِرون حتَّى يأتيَ أمْرُ اللهِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا؛ تنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل سُبحانَه المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((سنن الترمذي)) (٢١٥٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايةَ الشَّرفِ؛ فإذا أراد المُقسِمُ أن يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أَولَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْنَ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه(١).

- وأقسَمَ سبُحانه بالكِتابِ المُبينِ -وهو القُرآنُ- على أنَّ القُرآنَ جعَله اللهُ عربيًّا واضِحَ الدَّلالةِ؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يُصَدِّقوا به لو كانوا غَيرَ مُكابِرينَ، ولَكِنَّهم بمُكابَرَتِهم كانوا كمَن لا يَعقِلون. وفي القَسَمِ بالقُرآنِ تَنويهٌ بشَأنِه، وهو تَوكيدٌ لِمَا تَضَمَّنه جَوابُ القَسَمِ؛ إذ ليس القَسَمُ هنا برافِعٍ لتَكذيبِ المُنكِرينَ؛ إذ لا يُصَدِّقون بأنَّ المُقسِمَ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّ المُخاطَبَ بالقَسَمِ هم المُنكِرونَ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتَفريعِ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥] عليه(٢).

- وتَوكيدُ الجوابِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ زِيادةُ تَوكيدٍ للخبرِ أنَّ القُرآنَ مِن جَعْلِ اللهِ تعالَى(٣).

- والإخبارُ عن الكِتابِ بأنَّه قُرآنٌ مُبالَغةٌ في كَونِ هذا الكتابِ مَقروءًا، أي: مُيَسَّرًا لأَنْ يُقرَأَ؛ لقَولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]؛ فحَصَل بهذا الوَصفِ أنَّ الكتابَ المُنَزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جامِعٌ لوَصفَينِ: كَونُه كتابًا، وكَونُه مَقروءًا على ألْسِنةِ الأُمَّةِ، وهذا ممَّا اختُصَّ به

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

كِتابُ الإسلامِ[١].

- والمَقصودُ بوَصفِ الكِتابِ بأنَّه عربيٌّ غَرَضانِ؛ أَحَدُهُما: التَّنويهُ بالقُرآنِ، ومَدحُه بأنَّه مَنسوجٌ على مِنوالِ أَفصَحِ لُغَةٍ. وثانيهما: التَّورُّكُ على المعانِدينَ مِن العَرَبِ حينَ لم يَتأثَّروا بمَعانيه؛ بأنَّهم كمَنْ يَسمَعُ كلامًا بلُغَةٍ غيرِ لُغَتِه، وهذا تَأْكيدٌ لِمَا تَضمَّنَه الحَرفانِ المُقَطَّعانِ المُفتَتَحةُ بهما السُّورةُ مِن معنى التَّحَدِّي؛ بأنَّ هذا كِتابٌ بلُغَتِكُم، وقد عَجَزْتُم عن الإتيانِ بمِثلِه[٢].

- وفي ابتداءِ جُملةِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بحَرفِ (لَعلَّ) تَعريضٌ بأنَّهم أهمَلوا التَّدبُّرَ في هذا الكِتابِ، وأنَّ كَمالَه في البيانِ والإفصاحِ يَستَأْهِلُ العِنايةَ به لا الإعراضَ عنه؛ فقولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم لم يَعقِلوا، والمعنى: أنَّا يَسَّرْنا فَهْمَه عليكم لَعلَّكم تَعقِلون، فأعرَضْتُم ولم تَعقِلوا مَعانِيَه؛ لأنَّه قد نَزَل مِقدارٌ عَظيمٌ لو تَدَبَّروه لَعَقَلوا؛ فهذا الخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ على طَريقةِ الكِنايةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ هذه الجُملةُ إمَّا عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] داخِلةٌ في حُكمِها؛ ففي الإقسامِ بالقُرآنِ على عُلُوِّ قَدرِه عِندَهُ تعالَى بَراعةٌ بَديعةٌ، وإيذانٌ بأنَّه مِن عُلُوِّ الشَّأنِ بحيثُ لا يَحتاجُ في بَيانِه إلى الاستِشهادِ عليهِ بالإقسامِ بغَيرِهِ؛ بل هُو بذاتِه كافٍ في الشَّهادةِ على ذلك مِن حَيثُ الإقسامُ به، كَما أنَّه كافٍ فيها مِن حيثُ إعجازُه، ورَمْزٌ إلى أنَّه لا يَخطِرُ بالبالِ عندَ ذِكرِه شَيءٌ آخَرُ أَولى منه بالإقسامِ به. وإمَّا أنْ تكونَ مُستأنَفةً مُقرِّرةً لعُلُوِّ شأنِه الَّذي أَنبأَ عنه الإقسامُ به، على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١، ١٦٢).

الاعتِراضِ في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[١] [الواقعة: ٧٦].

- وتَأْكيدُ الكَلام بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ المُخاطَبينَ؛ إذ كَذَّبوا أنْ يكونَ القُرآنُ مُوحًى به مِن اللهِ سُبحانه[٢].

- وقولُه: ﴿لَدَيۡنَا﴾ ظَرْفٌ مُستقَرٌّ[٣] هو حالٌ مِن ضَميرِ (إنَّه)، أو مِن ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَحقيقِ الخَبَرِ، وتَشريفُ المُخبَرِ عنه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴾ لَمَّا استهزَؤوا بكِتابِ اللهِ، واستَخَفُّوا به لِيَدفَعُوه عن أنفُسِهم عِنادًا؛ فوَصَف الكتابَ أوَّلًا بقَولِه: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾، وثانيًا بقَولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، عقَّب ذلك كلَّه مُنكِرًا عليهم بقَولِه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ ﴾ الآيةَ؛ يعني: أنَّه في عالَمِ الشَّهادةِ عَرَبيٌّ فَصيحٌ بَليغٌ، عَجَزَ عن الإتيانِ بمِثلِه الجِنُّ والإنسُ، مُحتَوٍ على أسرارٍ ومَعانٍ إذا تفكَّر فيها أُولُو الألبابِ حَصَلوا على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عامِلُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢، ١٦٣).

البَحرِ الخِضَمِّ وكُنوزِ الحِكَمِ، وأنَّه في عالَمِ الغَيبِ لَدى المَلِكِ ذي الجَبَروتِ عَلِيُّ المَرتَبةِ رَفيعُ الشَّأنِ؛ فإذا كان كذلك وجَبَ أنْ يُشَرَّفَ قَدرُه، ويُعَظَّمَ شَأنُه، ويَتغَلغَلَ صِيتُه في كلِّ مَدَرٍ ووَبَرٍ، أفبِسَبَبِكم نَترُكُه مُهمَلًا ونَضرِبُ عنكم ذِكرَه صَفحًا؟! كلَّا[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَجوزُ أنْ نَضرِبَ عنكمُ الذِّكرَ صَفحًا مِن جرَّاءِ إسرافِكُم[٢].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ للعَطفِ على مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَنُهمِلُكم فنَضرِبَ عنكم الذِّكرَ؛ إنكارًا لأَنْ يَكونَ الأمرُ على خِلافِ ما قَدَّم مِن إنزالِه الكِتابَ وجَعْلِه قُرآنًا عربيًّا؛ لِيَعقِلوه ويَعمَلوا بمُوجَبِه[٣].

وقيل: الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ الإنكارِيِّ على جُملةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، أي: أتَحسَبون أنَّ إعراضَكم عمَّا نَزَل مِن هذا الكِتابِ يَبعَثُنا على أنْ نَقطَعَ عنكم تَجَدُّدَ التَّذكيرِ بإنزالِ شَيءٍ آخَرَ مِن القُرآنِ؟! فلمَّا أُريدَت إعادةُ تَذكيرِهم -وكانوا قد قُدِّمَ إليهم مِن التَّذكيرِ ما فيه هَدْيُهم لو تأمَّلوا وتَدبَّروا، وكانت إعادةُ التَّذكيرِ لهم مَوسومةً في نَظَرِهم بقِلَّةِ الجَدوَى- بَيَّنَ لهم أنَّ استِمرارَ إعراضِهم لا يكونُ سببًا في قَطعِ الإرشادِ عنهم؛ لأنَّ اللهَ رحيمٌ بهم، مُريدٌ لصَلاحِهم، لا يَصُدُّه إسرافُهم في الإنكارِ عن زِيادةِ التَّقدُّمِ إليهم بالمَواعِظِ والهَديِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣).

- وقولُه: ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مُظهَرٌ وُضِعَ مَقامَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ -فقولُه: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ في معنَى الذِّكرِ-؛ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ[(١)].

- قَولُه: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ هو في الحَقيقةِ عِلَّةٌ مُقتَضِيةٌ لِتَركِ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم كانوا مُنهَمِكينَ في الإسرافِ مُصِرِّينَ عليه، والمعنى: إنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تَخلِيَتَكُم وشَأنَكُم حتَّى تَموتُوا على الكُفرِ والضَّلالةِ، وتَبقَوا في العَذابِ الخالِدِ، لَكِنَّا -لِسَعةِ رَحمَتِنا- لا نَفعَلُ ذلك، ولا نَترُكُ تَذكيرَكُم بسَبَبِ كَونِكم مُسرِفينَ، بلْ لا نَزالُ نُعيدُ التَّذكيرَ رحمةً بكم، ونَهدِيكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرَّسولِ الأمينِ، وإنزالِ الكِتابِ المُبينِ[(٢)].

- وعلى قِراءةِ: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾، إنْ قيل: كيفَ استَقام معنى (إنِ) الشَّرطِيَّةِ المُفيدَةِ للشَّكِّ، وقد كانوا في الحَقيقةِ مُسرِفينَ على البَتِّ. قيل: هو مِن الشَّرطِ الَّذي يَصدُرُ عن المُدِلِّ بصِحَّةِ الأمرِ، المُتَحَقِّقِ لثُبوتِه، وفي هذا استِجهالٌ لهم في أنَّهم مع مَعرِفَتِهم أنَّ القُرآنَ عربيٌّ مُبينٌ، وقد أبان طُرُقَ الهُدَى مِن طُرُقِ الضَّلالةِ، وأبانَ ما تَحتاجُ إليه الأُمَّةُ في أبوابِ الدِّيانةِ؛ فرَّطوا فيه مِثلَ تَفريطِ مَن لم يَعرِفْ ذلك وشكَّ فيه[(٣)].

وقيل: الإتيانُ بـ (إن) في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ لقصدِ تنزيلِ المخاطبينَ المعلومِ إسرافُهم منزلةَ مَن يشكُّ في إسرافِه؛ لأنَّ توفُّرَ الأدلَّةِ على

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

صدقِ القرآنِ مِن شأنِه أنْ يُزيلَ إسرافَهم، وفي هذا ثقةٌ بحقيةِ القرآنِ، وضربٌ مِن التوبيخِ على إمعانِهم في الإعراضِ عنه[١].

- وأيضًا على قِراءةِ ﴿إِن كُنتُمْ﴾ فالجزاءُ -أي: جوابُ الشَّرْطِ- محذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه[٢].

- وإقحامُ ﴿قَوْمًا﴾ قبلَ ﴿مُّسْرِفِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الإسرافَ صارَ طَبعًا لهم، وبه قِوامُ قَومِيَّتِهم[٣].

- والمرادُ بالمُسرِفينَ: المُستهزِئون بآياتِ اللهِ وكِتابِه؛ لقَولِه بعدَه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فإنَّه تَهديدٌ مُرَتَّبٌ عليه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَسلِيةً عمَّا يُلاقيه من الأَذَى والاستِهزاءِ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ على قَومِه، وجَعَل للتَّسليةِ المَقامَ الأوَّلَ من هذا الكَلامِ بقَرينةِ العَدلِ عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾، ويَتضَمَّنُ ذلك تَعريضًا بزَجرِهم عن إسرافِهم في الإعراضِ عن النَّظَرِ في القُرآنِ[٥]. وأيضًا فقولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم ...﴾ إلى آخِرِ الآياتِ، تقريرٌ لِمَا قَبْلَه ببَيانِ أنَّ إسرافَ الأُمَمِ السَّالِفةِ لم يَمْنَعْهُ تعالى مِن إرسالِ الأنبياءِ إليهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

- قولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ (كم) اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كثيرٍ مُبهَمٍ، والدَّاعي إلى اجتِلابِ اسمِ العَدَدِ الكَثيرِ (كم): أنَّ كَثرةَ وُقوعِ هذا الحُكمِ أَدخَلُ في زَجرِهم عن مِثلِه، وأَدخَلُ في تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَحصيلِ صَبرِه؛ لأنَّ كَثرةَ وُقوعِه تُؤذِنُ بأنَّه سُنَّةٌ لا تَتخلَّفُ، وذلك أزجَرُ وأَسلَى[1].

- وجُملةُ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تَفريعٌ وتَسَبُّبٌ عن جُملةِ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾، وضَميرُ ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ عائِدٌ إلى ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ الَّذين تقدَّم خِطابُهم؛ فعَدَل عن استِرسالِ خِطابِهم إلى تَوجيهِه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن هذا الكلامِ هو تَسلِيةُ الرَّسولِ ووَعْدُه بالنَّصرِ، ويَستَتبِعُ ذلك التَّعريضَ بالَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهم يَبلُغُهم هذا الكَلامُ، وكان سُبحانه مُقبلًا عليهم بالخِطابِ في قَولِه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾، فأَعرَضَ عنهُم إلى إخبارِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، وتَغييرُ أُسلوبِ الإضمارِ تَبعًا لتَغييرِ المُواجَهةِ بالكَلامِ لا يُنافي اعتِبارَ الالْتِفاتِ في الضَّميرِ[2]، ولا تَفوتُ النُّكتةُ الَّتي تَحصُلُ مِن الالْتِفاتِ، وهي تَجديدُ نَشاطِ السَّامِعِ، بل تَزدادُ قوَّةً بازدِيادِ مُقتَضَياتِها[3].

- وفي قَولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وصَفَهم بأشَدِّيَّةِ البَطشِ؛ لإثباتِ حُكمِهم لِهَؤلاءِ بطَريقِ الأولَويَّةِ، وانتَصَب ﴿بَطْشًا﴾ على التَّمييزِ لِنسبةِ الأشَدِّيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).

(٢) وذلك لأنَّ مَناطَ الالْتِفاتِ هو اتِّحادُ مَرجِعِ الضَّميرَينِ مع تَأتِّي الاقتِصارِ على طَريقةِ الإضمارِ الأُولى، وهل تَغييرُ تَوجيهِ الكَلامِ إلَّا تَقويةٌ لمُقتَضى نَقلِ الإضمارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

- والَّذين (هُمْ أَشَدُّ بَطْشًا مِن كفَّارِ مكَّةَ): هم الَّذين عُبِّرَ عنهم بالأوَّلِينَ، ووُصِفوا بأنَّهم يَستَهزِئونَ بمَن يَأتيهِم مِن نبيٍّ، وهذا تَرتيبٌ بَديعٌ في الإيجازِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَقتَضي كَلامًا مَطوِيًّا، تَقديرُه: فلا نَعجِزُ عن إهلاكِ هؤلاءِ المُسرِفينَ، وهم أَقَلُّ بطشًا[١].

- قولُه: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَلَفَ في القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعٍ منه ذِكرُ قِصَّتِهم وحالِهم العَجيبةِ الَّتي حقُّها أنْ تَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ، وهذا وَعدٌ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعيدٌ لهم بمِثلِ ما جَرَى على الأوَّلينَ[٢].

- وقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: حالُهُم العَجيبةُ، ومعنى (مَضى): انقَرَض، أي: ذَهَبوا على بَكرةِ أبيهِم، فمُضِيُّ المَثَلِ كِنايةٌ عن استِئصالِهم؛ لأنَّ مُضِيَّ الأحوالِ يكونُ بمُضِيِّ أصحابِها؛ فهو في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[٣] [الأنعام: ٤٥].

- وذِكرُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِتَقَدُّمِ قَولِه: ﴿فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، ووَجْهُ إظهارِه: أن يَكونَ الإخبارُ عنهم صَريحًا وجارِيًا مَجرَى المَثَلِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩ - ١٤)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا
كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ مَهْدًا ﴾: أي: مَكانًا مُمَهَّدًا مُوطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه[1].

﴿ سُبُلًا ﴾: أي: طُرُقًا، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[2].

﴿ بِقَدَرٍ ﴾: أي: بمِقْدارٍ مَعْلومٍ، بِقَدْرِ حاجَتِكم إليه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[3].

﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾: أي: أحْيَيْنا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، =

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: أي: السُّفُنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولَعلَّ السُّفُنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[١].

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾: أي: لِتَسْتَعلوا وتَستَقِرُّوا مُتَمَكِّنينَ، والاستِواءُ: الارتفاعُ والعُلُوُّ على الشَّيءِ، والاستِقرارُ في العلوِّ[٢].

﴿سُبۡحَٰنَ﴾: اسْمٌ وُضِع مَوضِعَ المصدرِ، ومعناه: التَّنزيهُ والتَّقديسُ، والتَّبرئةُ للرَّبِّ -جلَّ ثناؤُه- مِن السُّوءِ والنَّقائصِ، وكلِّ ما لا يَليقُ بجلالِه، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[٣].

﴿مُقۡرِنِينَ﴾: أي: مُطيقينَ وضابِطينَ، يُقالُ: فُلانٌ مُقرِنٌ لفُلانٍ، أي: ضابِطٌ له. وأقرَنتُ كذا، أي: أطَقْتُه. وأقرَنَ له، أي: أطاقَه وقَوِيَ عليه، كأنَّه صار له قِرْنًا.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨، ٧٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٣١).

قال الرَّاغب: (السَّبْحُ: المَرُّ السَّريعُ في الماءِ، وفي الهواءِ... والتَّسبيحُ: تنزيهُ الله تعالى. وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللهِ تعالى، وجُعِل ذلك في فِعلِ الخَيرِ كما جُعِل الإبعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبعدَه الله، وجُعِل التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ؛ قولًا كان أو فِعلًا أو نِيَّةً). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٩٢).

وقال الشنقيطي: (أحسَنُ أوجُهِ الإعرابِ في «سُبْحانَ» أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ، منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، أي: أُسبِّحُ اللهَ سُبحانًا، أي: تسبيحًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٧).

وقيل: مُماثِلينَ في القُوَّةِ، مِن قَولِهم: هو قِرنُ فُلانٍ: إذا كان مِثلَه في القُوَّةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعونَ وصائِرونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا تناقُضَ المشركينَ، ومُعدِّدًا نِعَمَه سبحانَه: ولَئِنْ قُلتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقهنَّ اللهُ العَزيزُ العَليمُ. وهو سُبحانَه الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً، وجَعَل لكم فيها طُرُقًا؛ لَعَلَّكم تَهتَدونَ بها، والَّذي نزَّل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، فأحيَيْنا به بَلدةً مُجدِبةً، كذلك يُحييكم اللهُ بعدَ مَوتِكم، والَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها، وجَعَل لكم ما تَركَبونَه مِن سُفُنٍ وأنعامٍ؛ لِتَستَقِرُّوا على ظُهورِ الفُلكِ والأنعامِ، ثمَّ تَذْكُروا نِعمةَ رَبِّكم إذا استَويتُم عليها، وتقولوا: تَنزَّهَ اللهُ الَّذي ذَلَّل لنا هذا، وما كنَّا بمُطيقينَ تَذليلَها ورُكوبَها، وإنَّا إلى ربِّنا لَراجِعونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذَكَر أنَّ المُشرِكينَ مُنهَمِكونَ في كُفرِهم وإعراضِهم عمَّا جاء به القُرآنُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

مِن توحيدِ اللهِ، والبَعثِ؛ أبان هنا أنَّ أفعالَهم تُخالِفُ أقوالَهم؛ فلَئِنْ سَألْتَهم عن الخالقِ لهذا الكَونِ مِن سمائِه وأرضِه لَيَقولُنَّ: اللهُ، وهم مع اعتِرافِهم به يَعبُدونَ الأوثانَ والأصنامَ(١)!

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ للمُشرِكينَ -يا محمَّدُ: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ السَّبْعَ وخَلَق الأرَضينَ؟ لَيَقولُنَّ مِن فَورِهم: خلَقَهنَّ اللهُ وَحْدَه، العزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرُ الغالِبُ لِكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، العليمُ الَّذي لا يخفى عليه شَيءٌ(٢).

ثُمَّ دلَّ على نفْسِه بذِكرِ مَصنوعاتِه، فقال(٣):

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

أي: الَّذي جَعَل لكم الأرضَ ثابتةً مُمهَّدةً، تتمَكَّنونَ فيها ممَّا تُريدونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٠-٦٢).

قال الواحدي: (هذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، ثمَّ عَبَدوا معه غيرَه، وأنكَروا قُدرتَه على البَعثِ!). ((الوسيط)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: قولُه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما سُرِدَ مِن الأوصافِ =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلَ لكم في الأرضِ طُرُقًا يسَّرَ لكم المَشيَ فيها[1]؛ لعَلَّكم تهتَدونَ

= عَقيبَه إن كان مِن قَولِهم، فما تصنَعُ بقَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان مِن قَولِ الله، فما وَجهُه؟

قُلتُ: هو مِن قَولِ اللهِ لا مِن قَولِهم، ومعنى قَولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الَّذي مِن صِفتِه كَيْتَ وكَيْتَ، لَيَنسُبُنَّ خَلْقَها إلى الَّذي هذه أوصافُه، ولَيُسنِدُنَّه إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّة: (هذه الصِّفاتُ مِن كَلامِ الله تعالى، ليست مِن تَمامِ جَوابِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسُّبُلِ هنا: الطُّرُقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤).

وقيل: المرادُ: المعايشُ. وممَّن قال بهذا: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

وممّن جوَّز الجمْعَ بينَ المعنيين: ابنُ عاشور، فقال: (السُّبُلُ: جَمعُ سَبيلٍ، وهو الطَّريقُ، ويُطلَقُ السَّبيلُ على وسيلةِ الشَّيءِ... ويَصِحُّ إرادةُ المعنيَين هنا؛ لأنَّ في الأرضِ طُرُقًا يُمكِنُ سُلوكُها، وهي السُّهولُ وسُفوحُ الجِبالِ وشِعابُها، أي: لم يَجعَلِ الأرضَ كُلَّها جِبالًا فيَعسُرَ على الماشينَ سُلوكُها، بل جعَلَ فيها سُبُلًا سَهلةً، وجَعَل جِبالًا لِحِكمةٍ أُخرى، ولأنَّ الأرضَ صالحةٌ لاتِّخاذِ =

بها[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا * لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١١﴾.

= طُرُقٍ مَطروقةٍ سابِلةٍ. ومعنى جَعْلِ اللهِ تلك الطُّرُقَ بهذا المعنى: أنَّه جَعَل للنَّاسِ مَعرفةَ السَّيرِ في الأرضِ واتِّباعَ بَعضِهم آثارَ بَعضٍ؛ حتَّى تَتعَبَّدَ الطُّرُقُ لهم وتَتسَهَّلَ، ويَعلَمَ السَّائرُ أيُّ تِلك السُّبُلِ يُوصِلُه إلى مَقصدِه. وفي تيسيرِ وسائلِ السَّيرِ في الأرضِ لُطفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به تيسيرَ التَّجَمُّعِ والتَّعارُفِ، واجتِلابَ المنافِعِ، والاستِعانةَ على دَفعِ الغوائِلِ والأضرارِ. والسَّيرُ في الأرضِ قَريبًا أو بعيدًا مِن أكبرِ مَظاهِرِ المَدَنيَّةِ الإنسانيَّةِ، ولأنَّ اللهَ جَعَل في الأرضِ مَعايِشَ النَّاسِ مِن النَّباتِ والثَّمَرِ...، وهي وسائِلُ العَيشِ؛ فهي سُبُلٌ مَجازيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالهدايةِ هنا هدايةُ الطُّرقِ، والاهتِداءُ في السَّيرِ مِن مَوضِعٍ لآخَرَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

وقيل: معنى: ﴿تَهۡتَدُونَ﴾: تَستَدِلُّونَ بمَقدوراتِه على قُدرتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

قال ابن عطية: (﴿تَهۡتَدُونَ﴾ معناه: في المَقاصِدِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ومِن قُطرٍ إلى قُطرٍ. ويحتَمِلُ أن يريدَ: تهتَدونَ بالنَّظَرِ والاعتِبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ المعنيَينِ: السعدي، فقال: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ في السَّيرِ في الطُّرقِ ولا تَضيعون، ولَعلَّكم تَهتدونَ أيضًا في الاعتبارِ بذلك والادِّكارِ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى انتَقَل مِنَ الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ الأرضِ، إلى الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ العَيشِ فيها، وهو ماءُ المطَرِ الَّذي به تُنبِتُ الأرضُ ما يَصلُحُ لاقتِياتِ النَّاسِ(١).

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

أي: والَّذي نزَّل مِن السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارِ حاجةِ النَّاسِ والنَّباتِ والأنعامِ؛ لِيَحصُلَ الانتِفاعُ به دونَ زيادةٍ مُهلِكةٍ، أو نُقصانٍ مُضِرٍّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وممَّن ذَهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: بقَدَرٍ سابِقٍ وقَضاءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا المعنيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧).

أي: فأحيَيْنا بالماءِ بَلدةً مُجدِبةً مُقفِرةً(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾.

أي: كما أحيَيْنا بالماءِ الأرضَ المَيْتةَ، وأخرَجْنا منها نَباتَها، كذلك يُحييكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، فيُخرِجُكم يومَ القيامةِ مِن قُبورِكم(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفختَينِ أربعون. قالوا يا أبا هريرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيْتُ(٣)! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ(٤)، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))(٥).

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٣) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٤) هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بيْنَ الأَليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٥) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ الحياةِ، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ وَسائِلِ الاكتِسابِ لصَلاحِ المعاشِ، وذَكَر منها وسائِلَ الإنتاجِ، وأتْبَعَها بوسائِلِ الاكتِسابِ بالأسفارِ للتِّجارةِ(١).

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأزواجِ الأصنافُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

قال البقاعي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ المُتشاكِلةَ الَّتي لا يَكمُلُ شَيءٌ منها غايةَ الكمالِ إلَّا بالآخَرِ؛ على ما دَبَّره سُبحانَه في نَظمِ هذا الوُجودِ ﴿كُلَّهَا﴾ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ، وغيرِ ذلك من سائِرِ الأكوانِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ كُلَّها، ويُقالُ لكُلِّ شَيئَينِ قَرينَينِ: زَوجانِ، وكلُّ واحدٍ منهما زَوجُ صاحِبِه، وذلك: السَّماءُ والأرضُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ، وما أشبَهَ ذلك، وكذلك ما يَعودُ إلى أحوالِ الإنسانِ؛ مِن المَرَضِ والصِّحَّةِ، والفَقرِ والغِنى، والخَيرِ والشَّرِّ، والنَّومِ واليَقَظةِ، وما أشبَهَ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

وقال السعدي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ جميعَها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ومِن =

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾.

أي: وجَعَل لكم سُفُنًا تَركَبونَها في البَحرِ، وأنعامًا[1] تَركَبونَها في البَرِّ؛ تَنقُلُكم

= أنفُسِهم ومِمَّا لا يَعلَمونَ؛ مِن لَيلٍ ونَهارٍ، وحَرٍّ وبَردٍ، وذَكَرٍ وأُنثى، وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: الأصنافُ كُلُّها. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: أزواجُ الحيَوانِ مِن ذكَرٍ وأُنثى. قاله ابنُ عيسى. الثَّالثُ: أنَّ الأزواجَ الشِّتاءُ والصَّيفُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والسَّمواتُ والأرضُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ. قاله الحَسَنُ. ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الأزواجَ ما يتقَلَّبُ فيه النَّاسُ مِن خيرٍ وشَرٍّ، وإيمانٍ وكُفرٍ، وغِنًى وفَقرٍ، وصِحَّةٍ وسُقمٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقال القرطبي عن الاحتمالِ الأخيرِ: (وهذا القولُ يَعُمُّ الأقوالَ كلَّها، ويَجمَعُها بعُمومِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خَلَق كُلَّ شَيءٍ فزَوَّجَه، أي: خَلَق للذُّكورِ مِن الإناثِ أزواجًا، وللإناثِ مِن الذُّكورِ أزواجًا: ابنُ جرير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٠).

وقال ابن عاشور: (الأزواجُ: جَمعُ زَوجٍ، وهو كُلُّ ما يصيرُ به الواحِدُ ثانيًا، فيُطلَقُ على كُلٍّ منهما أنَّه زَوجٌ للآخَرِ، مِثلُ الشَّفعِ. وغُلِّبَ الزَّوجُ على الذَّكَرِ وأنثاه مِنَ الحيوانِ... وتُوسِّعَ فيه فأُطلِقَ الزَّوجُ على الصِّنْفِ... وكِلا الإطلاقَينِ يَصِحُّ أن يُرادَ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ المرادَ الأصنافُ، وأنَّه يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الشَّيئَينِ المُزدَوِجَينِ اللَّذينِ يَتولَّدُ بيْنَهما ثالِثٌ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والسَّالِبِ والمُوجَبُ، وما أشْبَهَ ذلك، وبما أنَّ الآيةَ تحتمِلُ المَعنَيينِ ولا يَتنافَيانِ فتُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٠، ٧١).

(١) قيل: كالإبِلِ والخَيلِ، والبِغالِ والحَميرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) =

إلى حيثُ أردتُم[1].

كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النِّعمةَ النَّاشِئةَ عن مُطلَقِ الإيجادِ؛ ذكَّر بنِعمةِ الرَّاحةِ

= (٣/ ٢٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧١).

وقيل: يعني بالأنعامِ: الإبلَ والبقرَ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقيل: هي الإبِلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمعاني، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

قال ابن عطية: (و﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّه لا يُركَبُ مِن الأنعامِ غيرُ الإبِلِ، وتدخُلُ الخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ فيما يُركَبُ، بالمعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

والإبلُ وإن كان ركوبُها والحملُ عليها هو الأغلَبَ، لكنَّ البقرَ في بعضِ البلاد تُركَبُ أيضًا ويَحمِلون عليها الأحمالَ الثَّقيلةَ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

فيها[١].

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾.

أي: لِتَستقِرُّوا مُتمَكِّنينَ مُرتَفِعينَ على ظُهورِ الفُلْكِ والأنعامِ[٢].

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى النِّعمةَ بخَلقِ كُلِّ ما تدعو إليه الحاجةُ، وجَعَله على وَجهٍ دالٍّ على ما له مِن الصِّفاتِ؛ ذكَرَ ما ينبغي أن يكونَ مِن غايتِها مِن شُكرِ المُنعِمِ، فقال دالًّا على عَظيمِ قَدْرِ النِّعمةِ، وعُلُوِّ غايتِها، وعُلُوِّ أمرِ الذِّكرِ - بحَرفِ التَّراخي[٣]:

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

أي: ثمَّ تَذكُروا بقُلوبِكم -أيُّها النَّاسُ- نِعمةَ رَبِّكم بتيسيرِه لكم ما تَركبونَه في البَرِّ والبَحرِ، إذا استَقررْتُم عليه[٤].

﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا ﴾.

أي: وتَقولوا بألسِنَتِكم: تَنزَّهَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه؛ الَّذي ذَلَّل لنا هذا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

الَّذي نَركَبُه مِن الفُلْكِ والأنعامِ[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

أي: وما كُنَّا لتلك المراكِبِ بمُطيقينَ ولا قادِرينَ على تَذليلِها ورُكوبِها وقِيادِها لولا أنَّ اللهَ سُبحانَه سَخَّرها لنا[2].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

قال ابن عاشور: (التَّسخيرُ: التَّذليلُ والتَّطويعُ، وتسخيرُ اللهِ الدَّوابَّ هو خَلْقُه إيَّاها قابلةً للتَّرويضِ، فاهمةً لِمُرادِ الرَّاكِبِ؛ وتسخيرُ الفُلكِ حاصِلٌ بمُجموعِ خَلقِ البَحرِ صالِحًا لسَبحِ السُّفُنِ على مائِه، وخَلقِ الرِّياحِ تهُبُّ فتَدفعُ السُّفُنَ على الماءِ، وخَلْقِ حيلةِ الإنسانِ لصُنعِ الفُلكِ، ورَصدِ مَهابِّ الرِّياحِ، ووَضعِ القُلوعِ والمجاذيفِ، ولولا ذلك لَكانت قوَّةُ الإنسانِ دونَ أن تَبلُغَ استِخدامَ هذه الأشياءِ القويَّةِ! ولهذا عقَّب بقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقينَ، أي: بمُجَرَّدِ القُوَّةِ الجَسَديَّةِ، أي: لولا التَّسخيرُ المَذكورُ؛ فجُملَةُ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَنَا﴾، أي: سخَّرَها لنا في حالِ ضَعفِنا بأنْ كان تَسخيرُه قائِمًا مَقامَ القُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

* ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان راكِبُ السَّفينةِ أو الدَّابَّةِ مُتعَرِّضًا للهلاكِ بما يُخافُ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، أو سُقوطِه عن الدَّابَّةِ؛ أُمِرَ بذِكرِ الحَشرِ؛ لِيَكونَ مُستعِدًّا للموتِ الَّذي قد يَعرِضُ له[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ السَّيرَ الدُّنْيَويَّ؛ نَبَّهَ على السَّيرِ الأُخرويِّ[٢]، فقال:

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وإنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ بعدَ مَوتِنا للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا استوى على بَعيرِه خارجًا إلى سَفَرٍ، كبَّرَ ثلاثًا، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفَرَنا هذا، واطْوِ عنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من وَعْثاءِ السَّفَرِ[٤]، وكآبةِ المَنظَرِ، وسُوءِ المُنقَلَبِ في المالِ والأهلِ. وإذا رجَعَ قالَهُنَّ، وزاد فيهِنَّ: آيِبونَ تائِبونَ عابِدونَ، لِرَبِّنا حامِدونَ))[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) وَعْثاءِ السَّفَرِ: أي: مَشَقَّته وشِدَّته. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٨٠).

(٥) رواه مسلم (١٣٤٢).

وعن عليِّ بنِ رَبيعةَ، قال: ((شَهِدتُ عَليًّا [أي: ابنَ أبي طالبٍ] رَضِيَ اللهُ عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَركَبَها، فلمَّا وَضَع رِجْلَه في الرِّكابِ قال: باسمِ اللهِ، فلمَّا استوى على ظَهرِها قال: الحَمدُ للهِ، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثمَّ قال: الحَمدُ للهِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: اللهُ أكبَرُ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: سُبحانَك إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت. ثمَّ ضَحِكَ! فقيل: يا أميرَ المؤمِنينَ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَعَل كما فعَلْتُ ثمَّ ضَحِكَ! فقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: إنَّ رَبَّك يَعجَبُ مِن عَبدِه إذا قال: اغفِرْ لي ذُنوبي، يَعلَمُ أنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غيري!))(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه إذا كان المقصودُ الحِسِّيُّ يَحتاجُ إلى طُرُقٍ فكذلك المقصودُ المعنويُّ -وهو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ- فإنَّه يَحتاجُ إلى طُرُقٍ، فلا بُدَّ أنْ نَسلُكَ هذه الطُّرُقَ حتَّى نَصِلَ إلى المقصودِ، فإنْ لم نَسْلُكْها فلن نَصِلَ إلى المقصودِ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢) واللَّفظُ له، والترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٨٠٠)، وأحمد (٧٥٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٦٩٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٦٠٢)، وصَحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٢٨٠)، وابنُ القيِّم في ((صيغ الحمد)) (ص: ٤٣)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

ﵟثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ❁ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَﵞ كم مِن راكِبِ دابَّةٍ عَثَرتْ به أو شَمَسَت[1] أو تقَحَّمت[2] أو طاحَ مِن ظَهرِها فهَلَك! وكم مِن راكِبينَ في سفينةٍ انكَسَرت بهم فغَرِقوا، فلمَّا كان الرُّكوبُ مُباشَرةَ أمرٍ مُخطِرٍ، واتِّصالًا بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ؛ كان مِن حَقِّ الرَّاكِبِ وقد اتَّصَل بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ ألَّا يَنسى هلاكَه عندَ اتِّصالِه به يومَه، وأنَّه هالِكٌ لا مَحالةَ فمُنقَلِبٌ إلى اللهِ غيرُ مُنفَلِتٍ مِن قَضائِه؛ وألَّا يَدَعَ ذِكرَ ذلك بقَلْبِه ولِسانِه حتَّى يكونَ مُستَعِدًّا لِلِقاءِ اللهِ بإصلاحِه مِن نَفْسِه، والحَذَرِ مِن أن يكونَ رُكوبُه ذلك مِن أسبابِ مَوتِه في عِلمِ اللهِ، وهو غافِلٌ عنه[3]، فينبغي للمُتلَبِّسِ بهذه الحالةِ استِذكارُ الآخرةِ، والاستِعدادُ لها، فلْيَجتلِبْ ما يُنجيه؛ مِن طاعةِ اللهِ، ويجتنبْ ما يُرديه مِن معصيتِه[4].

٣- قَولُه تعالى: ﵟوَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ❁ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ❁ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَﵞ أي: لَصائِرونَ إليه بعدَ مَماتِنا، وإليه سَيرُنا الأكبَرُ. وهذا مِن بابِ التَّنبيهِ بسَيرِ الدُّنيا على سَيرِ الآخِرةِ[5]، فتأمَّلْ كيف نبَّهَهم بالسَّفَرِ الحِسِّيِّ على السَّفَرِ إليه، وجمَعَ لهم بيْنَ السَّفَرينِ كما جَمَع لهم الزَّادَينِ في قَولِه تعالى: ﵟوَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰﵞ [البقرة: ١٩٧]،

(١) شَمَسَت: أي: شَرَدت وجَمَحت، ومَنَعت ظَهرَها عن الرُّكوبِ؛ لشِدَّةِ شَغْبِها وحِدَّتِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ١٧٤).

(٢) تقَحَّمت: رَمَت بنَفْسِها فَجأةً بلا رَوِيَّةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

فجَمَع لهم بيْنَ زادِ سَفَرِهم وزادِ مَعادِهم، وكما جمَعَ بيْنَ اللِّباسَينِ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فذكَرَ سُبحانَه زينةَ ظَواهِرِهم وبواطِنِهم، ونبَّهَهم بالحِسِّيِّ على المَعنويِّ. وفَهْمُ هذا القَدرِ زائِدٌ على فَهمِ مُجَرَّدِ اللَّفظِ ووَضعِه في أصلِ اللِّسانِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببَعضِ الحَقِّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحَقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا، ولم يَنفعْهم الإقرارُ به وقد رَدُّوا غيرَه[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أنَّ مُشرِكي العَرَبِ كانوا مُتَّفِقينَ على أنَّ أربابَهم لم تُشارِكِ اللهَ في خلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، بل كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ وحْدَه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، ووَجْهُ الامتِنانِ: أنَّه جعَلَ ظاهِرَ الأرضِ مُنبَسِطًا، وذلك الانبِساطُ لنَفْعِ البَشَرِ السَّاكِنينَ عليها، وهذا لا يُنافِي أنَّ جِسمَ الأرضِ كُرَوِيٌّ، كما هو ظاهِرٌ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ فيه إثباتُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

فيما يَخلُقُ، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَخلُقُ وفيما يُشَرِّعُ: ثابِتةٌ، لكِنْ مِن الحِكَم ما نَعلَمُ، ومِن الحِكَم ما لا نَعلَمُ؛ لقُصورِ أفهامِنا، ومِن الحِكَمِ ما يَعلَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ، وتخفَى على كثيرينَ آخَرينَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وأمثالِه في القُرآنِ: دليلٌ على ثُبوتِ الأسبابِ، وأنَّها غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المتوكِّلينَ، ولا في قُدرةِ الخالقِ؛ فاللهُ جلَّ جلالُه -لا محالةَ- قادِرٌ على إنشارِ الأرضِ بغيرِ مَطَرٍ، فأنشَرَها بالمطَرِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ إثباتُ القياسِ، وأنَّه دَليلٌ، وهو دَليلٌ عَقليٌّ ثابتٌ بالدَّليلِ السَّمعيِّ؛ وذلك أنَّ العَقلَ يَنتَقِلُ مِن المَقيسِ عليه إلى المَقيسِ، فهو دَليلٌ عقليٌّ باعتبارِ كيفيَّةِ الاستِدلالِ به، وهو دَليلٌ سَمعيٌّ؛ لِثُبوتِه شَرعًا[3]. ففي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قاسَ الغائبَ -وهو إحياءُ الموتى- على الحاضرِ الَّذي تُشاهِدونَه، وهذا مِن طُرُقِ التَّعليلِ والتَّفهيمِ[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، فيه سؤالٌ: يُقالُ: (ركِبوا الأنعامَ)، و(ركِبوا في الفلكِ)، وقد ذكَر الجنسينِ، فكيف قال: ﴿تَرْكَبُونَ﴾؟

الجوابُ: غُلِّب المتعدِّي بغيرِ واسِطةٍ؛ لقوَّتِه على المتعدِّي بواسِطةٍ[5].

٨- قَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إنْ قيل: كيف لم يقُلْ: (على ظُهورِها)، وقد تقدَّم لفظُ الجَمعِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١).

والجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يَنصَرِفُ إلى كلمةِ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، ومَعْناه: لتَسْتووا على ظُهورِ ما تَركبونَه(١).

الثَّاني: أنَّه أضافَ الظَّهرَ إلى واحدٍ فيه معنى الجمْعِ بمَنزلةِ الجِنسِ؛ فلذلك ذكَّرَه، وجمَعَ الظُّهورَ باعتبارِ مَعناها.

الثَّالثُ: أنَّ التَّأنيثَ فيها ليس حقيقيًّا؛ فجاز أنْ يَختلِفَ اللَّفظُ فيه، كما يُقالُ: عِندي مِن النِّساءِ مَن يُوافِقُك(٢).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ فيه استِحبابُ هذا الذِّكرِ عندَ رُكوبِ الدَّابَّةِ والسَّفينة(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ كان الَّذي يَتبادَرُ أنْ يقولَ الإنسانُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي سَخَّرَ لنا هذا»، ولكنَّه أمَرَ أنْ يَقولَ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لأنَّ «سُبحانَ» تدُلُّ على التَّنزيهِ -يعني: تنزيهَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن الحاجةِ وعن النَّقصِ-، فكأنَّ الإنسانَ يَشعُرُ إذا رَكِبَ على هذه الفُلْكِ والأنعامِ أنَّه مُحتاجٌ إليه، يَستعينُ به على حاجاتِه؛ فيُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٤). قال ابن عثيمين: (وهذا الذِّكرُ عامٌّ، كُلَّما رَكِبْتَ السَّيَّارةَ أو البَعيرَ أو الطَّائرةَ تَذْكُرُ هذا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

الَّذي هو مُستَغنٍ عن كلِّ خَلْقِه؛ فكان التَّسبيحُ في هذا المقامِ أنسَبَ(١). وأيضًا فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي تنزيهَ الله تعالى عن كلِّ عَيبٍ وسوءٍ، وإثباتَ صِفاتِ الكمالِ له؛ فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي التَّنزيهَ والتَّعظيمَ، والتَّعظيمَ يَستلزِمُ إثباتَ المحامِدِ الَّتي يُحمَدُ عليها(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿هَذَا﴾ في قولِه: ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ راجِعةٌ إلى لَفظِ ﴿مَا﴾ مِن قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجَمعَ الظُّهورَ نَظَرًا إلَى مَعْنَى ﴿مَا﴾؛ لأنَّ مَعْناها عامٌّ شامِلٌ لكُلِّ ما تَشْملُه صِلَتُها، ولَفْظُها مُفْرَدٌ، فالجمعُ في الآيةِ باعتبارِ مَعْناها، والإفرادُ باعتبارِ لَفْظِها(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لَمَّا كان قَولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للتَّسليَةِ والوَعدِ بالنَّصرِ؛ عَطَف عليه خِطابَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صريحًا بقَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ؛ لِقَصدِ التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهم إنَّما كذَّبوه لأنَّه دَعاهُم إلى عِبادةِ إلهٍ واحِدٍ، ونَبْذِ عِبادةِ الأصنامِ، ورَأَوْا ذلك عَجَبًا مع أنَّهم يُقِرُّون للهِ تعالى بأنَّه خالِقُ العَوالِمِ وما فيها، وهلْ يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُ خالقِ العابِدِينَ؟! ولأنَّ الأصنامَ من جُملةِ ما خلَقَ اللهُ في الأرضِ مِن حِجارةٍ، فلو سألَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُحاجَّتِه إيَّاهم عن خالِقِ الخلْقِ لَما استطاعوا غيرَ الإقرارِ بأنَّه اللهُ تعالى؛ فجُملَةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] عَطْفَ الغَرَضِ، وهو انتِقالٌ إلى الاحتِجاجِ على بُطلانِ الإشراكِ بإقرارِهم الضِّمنيِّ: أنَّ أصنامَهم خاليَةٌ عن صِفةِ استِحقاقِ أن تُعبَدَ[1].

- وتاءُ الخِطابِ في ﴿سَأَلْتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو ظاهِرُ سِياقِ التَّسليةِ، أو يكونُ الخِطابُ لِغَيرِ مُعيَّنٍ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَبٍ يُتصوَّرُ منه أنْ يَسألَهم[2].

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم ...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيه تَأْكيدُ الكَلامِ باللَّامِ المُوَطِّئةِ للقَسَمِ، ولامِ الجَوابِ، ونُونِ التَّوكيدِ؛ لتَحقيقِ أنَّهم يُجيبون بذلك، تَنزيلًا لغَيرِ المُتَردِّدِ في الخَبَرِ مَنزِلَةَ المُترَدِّدِ، وهذا التَّنزيلُ كِنايةٌ عن جَدارةِ حالَتِهم بالتَّعجيبِ مِنِ اختِلالِ تَفكيرِهم، وتَناقُضِ عَقائدِهم[3].

- وكرَّرَ الفِعلَ في الجَوابِ في قولِه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ[4].

- قيل: حَذَفَ سُبحانَه المَوصوفَ، وهو اللهُ تعالَى، وأقامَ صِفاتِه مُقامَه؛ لأنَّ الكَلامَ مُجزَّأٌ؛ فبَعضُه مِن قَولِهم، وبَعضُه مِن قَولِ اللهِ تعالَى؛ فالَّذي هو مِن قَولِهم: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾، وما بَعدَه هو مِن قَولِ اللهِ تعالى، وأصلُ الكلامِ: أنَّهم قالوا: خَلَقَهُنَّ اللهُ؛ بدَلالةِ قَولِه في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] و[الزمر: ٣٨]، ثمَّ لَمَّا قالوا: خلَقَهُنَّ اللهُ؛ وَصَف اللهُ تعالى ذاتَه بهذه الصِّفاتِ، وأُقيمَت مُقامَ المَوصوفِ كأنَّه كَلامٌ واحِدٌ، ونَظيرُ هذا أنْ تَقولَ للرَّجُلِ: مَنْ أكرَمَك مِنَ القَومِ؟ فيَقولُ:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦١).

أكرَمَني زَيدٌ، فتَقولُ أنت واصِفًا له: الكَريمُ الجَوادُ المِفضالُ الَّذي مِن صِفَتِه كذا وكذا(١). وأيضًا عُدِل عن الاسمِ العَليِّ إلى الصِّفتينِ؛ زِيادةً في إفحامِهم بأنَّ الَّذي انصَرَفوا عن تَوحيدِه بالعِبادةِ عَزيزٌ عليمٌ؛ فهو الَّذي يجِبُ أنْ يَرجُوَه النَّاسُ للشَّدائِدِ؛ لعِزَّتِه، وأنْ يُخلِصوا له باطِنَهم؛ لأنَّه لا يَخفَى عليه سِرُّهم، بخِلافِ شُركائِهم؛ فإنَّها أذِلَّةٌ لا تَعلَمُ، وأنَّهم لا يُنازِعون في وَصفِه بالعَزيزِ العليمِ. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفتَينِ بالذِّكرِ مِن بَينِ بَقِيَّةِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّها مُضادَّةٌ لصِفاتِ الأصنامِ؛ فإنَّ الأصنامَ عاجِزةٌ عن دَفعِ الأيدي(٢).

- وقيل: الظَّاهرُ أنَّ: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ نفْسُ المَحْكيِّ مِن كَلامِهم، ولا يدُلُّ كَونُهم ذَكَروا في مكانٍ: خلَقَهنَّ اللهُ، ألَّا يَقولوا في سُؤالٍ آخَرَ: خلَقَهنَّ العزيزُ العليمُ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن اللهِ تعالى، وهو تَخَلُّصٌ مِنَ الاستِدلالِ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ بأنَّه المُنفَرِدُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، إلى الاستِدلالِ بأنَّه المُنفَرِدُ بإسْداءِ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ أَوَدِ حَياةِ النَّاسِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ حُذِفَ منها المُبتَدَأُ، والتَّقديرُ: هو الَّذي جَعَل لكمُ الأرضَ مَهْدًا؛ وهذا الاستِئنافُ مُعترَضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الزخرف: ٩] الآيةَ، وجُملةِ ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ [الزخرف: ١٥] الآيةَ(٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨، ١٦٩).

- واسمُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ خَبرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو الَّذي جَعَل لكم، وهو مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الوارِدِ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ[1]، حيث تَقدَّمَ الحديثُ عن اللهِ تعالى فيما قبْلَ هذه الجُملةِ، واجتِلابُ المَوصولِ؛ للاشتِهارِ بمَضمونِ الصِّلَةِ، فساوَى الاسمَ العَلَمَ في الدَّلالةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرت صِلَتانِ فيهما دَلالةٌ على الانفرادِ بالقُدرةِ العَظيمةِ وعلى النِّعمةِ عليهم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ ولذلك جيءَ بلَفظِ ﴿لَكُمْ﴾ في المَوضِعَينِ، ولم يُقَلْ: (الَّذي جَعَل الأرضَ مَهْدًا وجعَلَ فيها سُبُلًا)، كما في قَولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧]؛ لأنَّ ذلك المَقامَ مَقامُ الاستِدلالِ على مُنكِري البَعثِ، فسِيقَ لهم الاستِدلالُ بإنشاءِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ الَّتي لا تُعَدُّ إعادةُ خَلقِ الإنسانِ بالنِّسبَةِ إليها شَيئًا عَجيبًا[3].

- وأيضًا لم يُكَرِّرِ اسمَ المَوصولِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ لأنَّ الصِّلَتَينِ تَجتَمِعانِ في الجامِعِ الخَياليِّ؛ إذ كِلْتاهُما مِن أحوالِ الأرضِ، فجَعْلُهما كجَعْلٍ واحِدٍ[4].

- وأعاد فِعلَ (جَعَل)؛ تنبيهًا على تمكُّنِه تعالى مِن إقامةِ الأسبابِ لتيسيرِ الأمورِ الصِّعابِ؛ إعلامًا بأنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ[5].

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِى﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حضورِ الصِّلَتينِ اللَّتَينِ قبْلَها؛ فلا جامِعَ بيْنَها وبيْنَهما في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[(١)].

- قولُه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ بالإنشارِ الَّذي هو إحياءُ المَوتى، وعن إحيائِها بالإخراجِ؛ تَفخيمٌ لشَأنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البَعثِ؛ لتَقويمِ سَنَنِ الاستِدلالِ، وتَوضيحِ مِنهاجِ القِياسِ[(٢)].

- وضَميرُ ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ الْتِفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التَّكَلُّمِ بنُونِ العَظَمةِ؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بأمرِ الإحياءِ، والإشعارِ بعِظَمِ خَطَرِه. وأيضًا لَمَّا وَقَع الانتِقالُ مِن كَلامِهم إلى كَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، جاء أوَّلُه على لَفظِ الغَيبةِ، وآخِرُه على الانتِقالِ منها إلى التَّكَلُّمِ في قَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾؛ افتِنانًا في أفانينِ البَلاغةِ، ولتَسجيلِ المِنَّةِ على عِبادِه، وقَرْعِ أسماعِهم بها[(٣)].

- ولعلَّه أنَّثَ البلدَ وذكَّرَ الميتَ في قولِه: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ بُلوغَها في الضَّعفِ والموتِ بلَغَ الغايةَ؛ بضَعْفِ أرْضِه في نفْسِها، وضعْفِ أهْلِه عن إحيائِه، وقَحْطِ الزَّمانِ، واضمِحلالِ ما كان به مِن النَّباتِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٢).

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ المُتعاطِفَينِ، وهو استِطرادٌ بالاستِدلالِ على ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إثباتِ البَعثِ، بُمناسَبةِ الاستِدلالِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ بدَلائلَ في بعضِها دَلالةٌ على إمكانِ البَعثِ، وإبطالِ إحالَتِهم إيَّاه[1].

- والإشارةُ بـ (ذَلِكَ) إلى الانتِشارِ المَأخوذِ مِن ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾، أي: مِثلَ ذلك الانتِشارِ الَّذي هو في الحقيقةِ إخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، تُخرَجون مِن الأرضِ بعْدَ فَنائِكم، ووَجْهُ الشَّبهِ هو إحداثُ الحيِّ بعْدَ مَوتِه، والمَقصودُ مِن التَّشبيهِ إظهارُ إمكانِ المُشَبَّهِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِي﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حُضورِ الصِّلاتِ الَّتي قبْلَها؛ فلا جامعَ بيْنَها وبيْنَها في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[3].

- ولَمَّا كان المُتبادرُ مِن الأزواجِ بادِئَ النَّظرِ أزواجَ الأنعامِ، وكان مِن أهَمِّها عِندَهم الرَّواحِلُ؛ عَطَف عليها ما هو منها وَسائِلُ للتَّنَقُّلِ بَرًّا، وأدمَجَ معها وَسائِلَ السَّفَرِ بَحرًا؛ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ فالمرادُ بـ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ هو الإبِلُ -على قولٍ-؛ لأنَّها وَسيلةُ الأسفارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠- ١٧٢).

وقد قالوا: الإبِلُ سَفائِنُ البَرِّ[١].

- وجِيءَ بفِعلِ (جَعَل)؛ مُراعاةً لأنَّ الفُلكَ مَصنوعةٌ، وليستْ مَخلوقةً، والأنعامُ قد عُرِف أنَّها مَخلوقةٌ[٢].

- وقدَّمَ سُبحانه الفُلكَ على الأنعامِ؛ لأنَّها لم يَشملْها لَفظُ الأزواجِ؛ فذِكْرُها ذِكرُ نِعمةٍ أُخرى، ولو ذَكَر الأنعامَ لَكان ذِكرُه عَقِبَ الأزواجِ بمَنزِلةِ الإعادةِ؛ فلمَّا ذَكَر الفُلكَ بعُنوانِ كَونِها مَركوبًا، عَطَف عليها الأنعامَ؛ فصار ذِكرُ الأنعامِ مُتَرَقَّبًا للنَّفْسِ لمُناسَبةٍ جَديدةٍ[٣].

- وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) المَوصولَةِ في قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وحُذِف عائدُ الصِّلَةِ، وإذ قد كان مَفعولُ ﴿تَرْكَبُونَ﴾ هنا مُبيَّنًا بالفُلكِ والأنعامِ، كان حقُّ الفِعلِ أنْ يُعَدَّى إلى أحَدِهما بنَفْسِه وإلى الآخَرِ بـ (في)؛ فغُلِّبَت التَّعديةُ المُباشِرةُ على التَّعديةِ بواسِطةِ الحَرفِ؛ لظُهورِ المُرادِ، وحُذِفَ العائِدُ بِناءً على ذلك التَّغليبِ[٤]. فقَولُه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تَركبونَه؛ تَغليبًا للأنعامِ على الفُلكِ؛ فإنَّ الرُّكوبَ مُتَعَدٍّ بنَفْسِه، واستِعمالُه في الفُلكِ ونَحوِها بكَلِمةِ (في) للرَّمزِ إلى مَكانتِها، وكَونِ حَرَكَتِها غيرَ إرادِيَّةٍ[٥].

والرُّكوبُ حَقيقَتُه: اعتِلاءُ الدَّابَّةِ للسَّيرِ، وأُطلِقَ هنا على الحُصولِ في الفُلكِ؛ لتَشبيهِهم الفُلكَ بالدَّابَّةِ بجامِعِ السَّيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾

- قَولُه: ﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ تَوطِئَةٌ وتَمهيدٌ للإشارةِ إلى ذِكْرِ نِعمةِ اللهِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾، أي: حِينَئِذٍ؛ فإنَّ ذِكْرَ النِّعمةِ في حالِ التَّلَبُّسِ بمَنافِعِها أوقَعُ في النَّفْسِ، وأَدْعَى للشُّكرِ عليها، وأجدَرُ بعَدَمِ الذُّهولِ عنها[(١)].

- والاستِواءُ: الاعتِلاءُ. والظُّهورُ: جَمعُ ظَهرٍ، والظَّهرُ مِن علائِقِ الأنعامِ لا مِن عَلائِقِ الفُلكِ؛ فهذا أيضًا مِن التَّغليبِ، والمعنى: على ظُهورِه وفي بُطونِه؛ فضَميرُ ﴿ظُهُورِهِۦ ﴾ عائدٌ إلى (ما) المَوصولَةِ الصَّادِقِ بالفُلْكِ والأنعامِ، كما هو قَضِيَّةُ البَيانِ، على أنَّ السَّفائِنَ العَظيمةَ تكونُ لها ظُهورٌ، وهي أعالِيها المَجعولَةُ كالسُّطوحِ؛ لِتَقِيَ الرَّاكِبينَ المَطَرَ وشِدَّةَ الحَرِّ والقَرِّ؛ ولذلك فجَمْعُ الظُّهورِ مِن جَمْعِ المُشتَرَكِ، والتَّعدِيةُ بحَرفِ (على) بُنِيَت على أنَّ للسَّفينةِ ظَهرًا[(٢)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي: يَحمَدوا عليها بألْسِنَتِهم، وفي العُدولِ عن (تَحمَدوا) إلى ﴿ تَذْكُرُواْ ﴾ تَصويرُ حالةِ كَونِ المَركوبِ مُذَلَّلًا مُنقادًا، وأنَّه لولا تَمكينُ اللهِ لم يُتَمَكَّنْ منه[(٣)].

- والذِّكرُ هنا هو التَّذَكُّرُ بالفِكرِ لا الذِّكرُ باللِّسانِ؛ وهذا تَعريضٌ بالمُشرِكين؛ إذ تقلَّبوا في نِعَمِ اللهِ وشَكَروا غَيرَه؛ إذ اتَّخَذوا له شُرَكاءَ في الإلهيَّةِ، وهمْ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣، ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).

يُشارِكوه في الإنعامِ[١].

- وذُكْرُ النِّعمةِ كِنايةٌ عن شُكرِها؛ لأنَّ شُكرَ المُنعِمِ لازِمٌ للإنعامِ عُرفًا؛ فلا يَصرِفُ عنه إلَّا نِسيانُه، فإذا ذَكَره شَكَر النِّعمةَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾، أي: لِتَشكُروا اللهَ في نُفوسِكم، وتُعلِنُوا بالشُّكرِ بألسِنَتِكم، فلقَّنَهم صِيغَةَ شُكرٍ عِنايةً به[٣].

- قَولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ كلمةُ تَعجُّبٍ، وفي لَفظِ ﴿هَٰذَا﴾ مَزيدُ تَقريرٍ لمعنى التَّعجُّبِ[٤].

- وافتُتِح هذا الشُّكرُ اللِّسانيُّ بالتَّسبيحِ؛ لأنَّه جامِعٌ للثَّناءِ؛ إذ التَّسبيحُ تَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ؛ فهو يدُلُّ على التَّنزيهِ عن النَّقائصِ بالصَّريحِ، ويدُلُّ ضِمنًا على إثباتِ الكَمالاتِ للهِ في المقامِ الخطابيِّ[٥].

- واستِحضارُ الجَلالَةِ بطَريقِ المَوصوليَّةِ: ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لِمَا يُؤذِنُ به المَوصولُ مِن عِلَّةِ التَّسبيحِ حتَّى يَصيرَ الحمدُ الَّذي أَفادَه التَّسبيحُ شُكرًا لتَعليلِه بأنَّه في مُقابَلةِ التَّسخيرِ لنا[٦].

- قَولُه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ هذا مِن تَمامِ ذِكْرِ نِعمَتِه تعالى؛ إذ بدونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اعتِرافِ المُنعَمِ عليه بالعَجزِ عن تَحصيلِ النِّعمةِ لا يَعرِفُ قدْرَها، ولا حقَّ المُنعِمِ بها(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ خُتِم الشُّكرُ والثَّناءُ بالاعتِرافِ بأنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ، أي: بعْدَ المَوتِ بالبَعثِ للحِسابِ والجَزاءِ، وهذا إدماجٌ(٢) لتَلقينِهم الإقرارَ بالبَعثِ(٣).

- وفيه تَعريضٌ بسُؤالِ إرجاعِ المُسافِرِ إلى أهلِه؛ فإنَّ الَّذي يَقدِرُ على إرجاعِ الأمواتِ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ يُرجَى لإرجاعِ المُسافِرِ سالمًا إلى أهلِه(٤).

- والانقِلابُ: الرُّجوعُ إلى المكانِ الَّذي يُفارِقُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ التَّنزيهِ عَطْفَ الخَبَرِ على الإنشاءِ، وفي هذا تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشركين على كُفرانِ نِعمةِ اللهِ بالإشراكِ، وبنِسبةِ العَجْزِ عن الإحياءِ بعْدَ المَوتِ؛ لأنَّ المعنى: وجَعَل لكم مِن الفُلكِ والأنعامِ ما تَركبونَ؛ لِتَشكُروا بالقَلبِ واللِّسانِ فلمْ تَفعَلُوا، ولِمُلاحَظةِ هذا المعنى أُكِّد الخبَرُ بـ (إنَّ)، واللَّامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غَرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجت المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرَّحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٥).

والجُملةِ الاسميَّةِ[١].

- وفيه تَعريضٌ بالمُؤمنينَ بأنْ يَقولُوا هذه المَقالةَ كما شَكَروا لِلهِ ما سخَّر لهم مِن الفُلْكِ والأنعامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، فأكَّدَ قَولَه هنا: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾، ولم يُؤكِّدْ في سُورةِ (الشُّعراءِ)، فلمْ تَدخُلِ اللَّامُ على خَبَرِ (إنَّا) دُخولَها في الأوَّلِ؛ وذلك لأنَّ معنى قَولِه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: لِتَذكُروا إنعامَ اللهِ عليكُم وتَشكُروه، وتُخالِفوا الكُفَّارَ بأنْ تُقِرُّوا بما أنكَروه، فتُؤمِنوا بالبَعثِ والحَياةِ بعْدَ المَوتِ، وهذا خِطابٌ لكُلِّ مَن كان في ذلك العَصرِ، ومَن يكونُ بَعدَهم إلى انقضاءِ الدَّهرِ؛ فالتَّوكيدُ لِمِثلِه لازِمٌ، وفي الكلامِ الَّذي يَأتي للتَّأبيدِ واجِبٌ. والَّذي في سُورةِ (الشُّعَراءِ) إنَّما هو خَبرٌ عن السَّحَرةِ لَمَّا آمَنوا، ووَصَفوا حالَهم واستِهانَتَهم بما خُوِّفوا أنْ يَنالَهم مِن عُقوبةِ فِرعونَ؛ إذ كان مُنقَلَبُهم إلى رَبِّهم، وكانوا مُجازَينَ على إيمانِهم وصِدقِهم وصَبرِهم؛ فلم يَحتَجْ مِن التَّوكيدِ إلى ما احتاجَ إليه ما هو على التَّأبيدِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧١، ١١٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٣).

الآيات (١٥-١٨)

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾: أي: أخلَصَكم وخَصَّكم، وأصلُ الصَّفاءِ: يدُلُّ على خُلوصِ الشَّيءِ[١].

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمتلئٌ حُزنًا وغَمًّا يُمسِكُ على حزنِه لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكِ الشَّيءِ وجَمعِه[٢].

﴿يُنَشَّؤُا۟﴾: أي: يُرَبَّى، والنُّشوءُ: التَّربيةُ، يُقالُ: نَشأتُ في بني فُلانٍ نَشْأً ونُشوءًا: إذا شَبَبتَ فيهم، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٣].

﴿ٱلْحِلْيَةِ﴾: الزِّينةِ والحُلِيِّ، وأصلُ (حلو) هنا: تَحْسينُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

قَولُه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾: يجوزُ في «مَن» وَجهانِ؛ أحدُهما: أن يكونَ في مَحَلِّ نَصبٍ مَفعولًا به بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أوَيجعَلونَ له مَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ؟! والثَّاني: أن يكونَ مُبتدَأً وخبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: أومَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ جُزءٌ أو ولَدٌ له سُبحانَه(١)؟!

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا افتراءاتِ المشركينَ: وجَعَل المُشرِكونَ لله سُبحانَه وتعالى بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ! إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها.

ثُمَّ يرُدُّ اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم، فيقولُ: أتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بَناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- واختَصَّكم بالبَنينَ؟!

وإذا بُشِّرَ أحَدُ أولئك المُشرِكينَ بما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظلَّ وَجهُه مُسْودًّا وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا لا يُظهِرُه!

أوَيجعَلونَ له مَن يُرَبَّى مِن أوَّلِ عَهْدِه في الحُلِيِّ والزِّينةِ -يعني: البَناتِ- وهو في المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ ليس عِندَه بيانٌ، ولا يأتي ببُرهانٍ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ بيَّنَ أنَّهم معَ إقرارِهم بذلك جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا[١].

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾.

أي: وجَعَل المُشرِكونَ لله بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ[٢]!

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَشَديدُ الجُحودِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٧١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٧).

قال القرطبي: (فجَعَلوهم جُزءًا له وبَعضًا، كما يكونُ الوَلَدُ بَضْعةً مِن والِدِه وجُزءًا له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩).

وقال البِقاعي: (﴿جُزْءًا﴾ أي: وَلَدًا هو -لحَصرِهم إيَّاه في الأنثى- أحَدُ قِسمَيِ الأولادِ، وكُلُّ ولَدٍ فهو جزءٌ مِن والِدِه، ومَن كان له جُزءٌ كان مُحتاجًا؛ فلم يكُن إلهًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٨).

قال البيضاوي: (ومِن ذلك نِسبةُ الوَلَدِ إلى اللهِ؛ لأنَّها مِن فَرطِ الجَهلِ به، والتَّحقيرِ لِشَأنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨).

أي: أمِ اتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- وأنتم لا تَرضَونَهنَّ لأنفُسِكم، واختَصَّكم أنتم بالبَنينَ فجعَلَهم لكم(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧)﴾.

أي: وإذا أُخبِرَ أحَدُ أولئك -الَّذين قالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ- بوِلادةِ امرأتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠).

قال الواحدي: (﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ هذا استِفهامُ تَوبيخٍ، يقولُ: أتَّخذَ رَبُّكم لِنَفْسِه البَنات ﴿وَأَصْفَاكُمْ﴾ واختَصَّكم وأخلَصَكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾... وهذه الآيةُ كقَولِه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]، قال أهلُ المعاني: والحُجَّةُ عليهم في هذه الآيةِ أنَّه ليس يَحكُمُ مَنِ اختارَ لِنَفْسِه أدْوَنَ المُبدَلَينِ ولِغَيرِه أعلاها، ولو كان على ما يقولُه المُشرِكونَ مِنِ اتِّخاذِ الوَلَدِ لم يَتَّخِذْ لِنَفْسِه البَناتِ، ويُصْفِهم بالبَنينَ! فغَلِطوا في الأصلِ، وهو: جوازُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، وفي البِناءِ على الأصلِ، وهو اتِّخاذُ البَناتِ؛ فنَعوذُ باللهِ مِنَ الخَطَأِ في الدِّينِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٠).

وقال ابنُ القَيِّمِ في تفسيرِ ﴿أَمِ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِنَ المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

لِما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظَلَّ وَجهُه أسوَدَ اللَّونِ، وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا؛ فهم يأنَفونَ مِن البَناتِ ويَكرهونَهنَّ، ومع ذلك يَنسُبونَهنَّ لله تعالى[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ * تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾.

أي: أوَجَعَلوا ولدًا لله مَن شأنُه أنْ يُرَبَّى في الزِّينةِ، وإذا خُوصِم لا يَقدِرُ على إقامةِ حُجَّتِه، ودفْعِ ما يُجادِلُه به خَصْمُه لِنُقصانِ عقلِه، وضَعفِ رَأْيِه[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٩).

قال ابنُ عطية: (والمرادُ بـ «مَنْ»: النِّساءُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩).

وقال ابنُ زَيدٍ: (هذه تماثيلُهم الَّتي يَضرِبونَها مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ يَعبُدونَها، هم الَّذين أنشَؤوها، ضرَبوها مِن تلك الحِلْيةِ ثمَّ عبَدوها! ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ [الزخرف: ١٨] قال: لا يَتكلَّمُ، وقرأ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: ٤]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٥).

وقال ابن عاشور: (والخِصامُ ظاهِرُه المُجادَلةُ والمُنازَعةُ بالكلامِ والمُحاجَّةُ... ويجوزُ عندي: أن يُحمَلَ الخِصامُ على التَّقاتُلِ والدِّفاعِ باليَدِ؛ فإنَّ الخَصمَ يُطلَقُ على المحارِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ عبَّرَ بقَولِه: ﴿ بِمَا ضَرَبَ ﴾ دونَ أن يَقولَ: (بما جَعَلَ)؛ تعليمًا للأدَبِ في حَقِّه سُبحانَه في هذه السُّورةِ الَّتي مَقصودُها العِلمُ المُوجِبُ للأدَبِ، وزيادةً في تقبيحِ كُفرِهم لا سيَّما إن أرادوا الحقيقةَ، بالإشارةِ إلى أنَّ الوَلَدَ لا يكونُ إلَّا مِثلَ الوالِدِ، لا يُتصَوَّرُ أصلًا أن يكونَ خارِجًا عن شَبَهِه في خاصِّ أوصافِه[1].

٢- التَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ أهلِ الجاهليَّةِ، الذين ذَمَّهم اللهُ في قولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، وقولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩][2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الرَّجُلَ لا يُناسِبُ له التَّزيُّنُ كالمرأةِ، ويَنبغي أن يكونَ مُخشَوْشِنًا[3]، فقد جعَلَ النَّشْءَ في الزِّينةِ والنُّعومةِ مِن المَعايبِ والمَذامِّ، وأنَّه مِن صِفَةِ رَبَّاتِ الحِجالِ؛ فعلى الرَّجُلِ أن يَجتَنِبَ ذلك، ويأنَفَ منه، ويَربأَ بنَفْسِه عنه، وإنْ أراد أنْ يُزيِّنَ نفْسَه زيَّنَها مِن باطِنٍ بلِباسِ التَّقوى[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

وجْهُه: قولُهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ، وعلى هذا الأصلِ امتَنَعتْ شهادتُه له، وقَطْعُه بالسَّرِقةِ مِن مالِه، وحَدُّه أباه على قَذفِه[١]، ولذلك كان الولدُ في التَّعصيبِ - في بابِ الميراثِ - مُقَدَّمًا على الوالِدِ، بمعنى: أنَّه لو مات ميتٌ عن أبيه وابنِه؛ فلأبيه السُّدُسُ فرضًا، والباقي للابنِ تعصيبًا، فسَهْمُ الابنِ الآنَ خمسةٌ مِن ستَّةٍ، وسهمُ الأبِ واحدٌ مِن ستَّةٍ؛ لأنَّ الابنَ جزءٌ مِن أبيه فقُدِّمَ، ولذلك يجوزُ للأبِ أنْ يَتمَلَّكَ مِن مالِ ولدِه -لأنَّ ولَدَه جزؤُه- ما شاء؛ بشرطِ ألَّا يكونَ الولدُ محتاجًا إليه؛ أو تَتعلَّقَ به نَفْسُه[٢].

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: أنَّ كَونَهم مِن عِبادِ اللهِ يَمنَعُ غايةَ المنْعِ أنْ يَكونوا جُزْءًا مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المعبودَ غيرُ العابدِ، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ العابدُ جُزءًا مِن المعبودِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ قد جَمَعوا في كُفرِهم أنواعًا مِن الكُفرِ؛ وذلك أنَّهم نَسَبوا إلى اللهِ تعالى الولَدَ، ونَسَبوا إليه ما يَعتبِرونَه أخَسَّ النَّوعَينِ، وجعَلوه مِن الملائكةِ المُكْرَمينَ، فاستَخَفُّوا بهم[٤]!

٤- قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ تَنبيهٌ على استِحالَةِ الوَلَدِ، ذَكَرًا كان أو أُنثَى، وإنْ فُرِض اتِّخاذُ الوَلدِ؛ فكيف يَختارُ له الأدنَى، ويَخُصُّكم بالأعلَى[٥]؟! ومَحلُّ الاستِدلالِ هنا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

أنَّ الإناثَ مَكروهةٌ عِندَهُم، فكيف يَجعَلون للهِ أبناءً إناثًا، وهَلَّا جَعَلوها ذُكورًا! ولَيسَت لهم مَعذِرةٌ عن الفَسادِ المُنجَرِّ إلى مُعتَقَدِهم بالطَّريقَينِ؛ لأنَّ الإبطالَ الأوَّلَ نَظريٌّ يَقينيٌّ، والإبطالَ الثَّانيَ جَدَليٌّ بَديهيٌّ؛ قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، فهذه حُجَّةٌ ناهِضةٌ عليهم؛ لاشتِهارِها بيْنَهم[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أنَّ طَريقةَ القرآنِ فيما يُثبِتُه للرَّبِّ -تعالى- ويَنفيه عنه: مَبنيَّةٌ على بُرهانِ الأَولى، لا على البُرهانِ الَّذي تَستوي أفرادُه، أو يُماثِلُ فَرعُه أصْلَه[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ فيه إشارةٌ إلى نقصِ المرأةِ وضَعفِها الخَلْقيَّينِ الطَّبيعيَّينِ؛ لأنَّ نشأتَها في الحِليةِ دليلٌ على نقصِها المُرادِ جَبرُه والتَّغطيةُ عليه بالحلي، ولأنَّ عدَمَ إبانتِها في الخِصامِ إذا ظُلِمتْ دليلٌ على الضَّعفِ الخلْقيِّ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ الذُّكورةَ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةَ ضَعفٌ خلْقيٌّ جِبِلِّيٌّ، ونقصٌ خلقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أنَّ الآباءَ مَندوبونَ إلى تحليةِ بناتِهم؛ لأنهنَّ لا يَقْدِرنَ على النُّشوءِ فيه صِغارًا إلَّا وقد حُلِّيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).
ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٨).

بما يُنشَّأنَ عليه(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّحَلِّيَ مُباحٌ للنِّساءِ، والإجماعُ مُنعَقِدٌ عليه، والأخبارُ في ذلك لا تُحصى(٢)، فالمرأةُ مُحتاجةٌ إلى التَّزَيُّنِ والتَّجَمُّلِ؛ ومِن ذلك ما تَضَعُه في أُذُنِها من الخُرُوصِ(٣) ونحوِها، وعلى هذا فلا حَرَجَ أنْ تَثْقُبَ شَحْمةَ أُذُنِها لِتُعَلِّقَ بها الحليَّ(٤).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ أنَّ الرِّجالَ لا يجوزُ لهم التَّحَلِّي بحُلِيِّ النِّساءِ -تشبُّهًا بهنَّ- لأنَّ ذلك أمارةُ نقصِ المرأةِ(٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ أنَّ المرأةَ إذا كان لها حقٌّ تُطالِبُ به وَكَّلَتْ رجُلًا يُطالِبُ لها؛ إذْ هي غيرُ مُبينةٍ في خصومتِها(٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الزخرف: ٩]، أي: ولئنْ سأَلْتَهم عن خالِقِ الأشياءِ، لَيَعْترِفُنَّ به، وقد جَعَلوا له مع ذلك الاعترافِ جُزءًا؛ فالواوُ للعطْفِ على

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٤).

(٣) الخروصُ: جمعُ الخُرصِ، وهو الحَلْقَةُ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. ويَجوزُ كَونُها للحالِ، على معنى: وقد جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، ومعنى الحالِ تُفيدُ تَعجُّبًا مِن المُشرِكين في تَناقُضِ آرائِهم وأَقوالِهم وقَلبِهمُ الحَقائِقَ، وهي عِبارَةٌ في الرَّأيِ تَعرِضُ للمُقَلِّدينَ في العَقائِدِ الضَّالَّةِ؛ لأنَّهم يُلَفِّقون عَقائِدَهم مِن مُختَلِفِ آراءِ الدُّعاةِ؛ فيَجتَمِعُ للمُقَلِّدِ مِن آراءِ المُختَلِفينَ في النَّظرِ ما لو اطَّلَع كلُّ واحِدٍ مِن المُقتَدِينَ بهم على رأيِ غَيرِه منهم لَأَبطَلَه، أو رَجَع عن الرَّأيِ المُضادِّ له؛ فالمُشرِكون مُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالِقُ الأشياءِ كلِّها، ومع ذلك جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ المخلوقُ إلهًا؟! وجَعَلوا للهِ بَناتٍ، والبُنوَّةُ تَقْتضي المُماثَلةَ في الماهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ لِخالِقِ الأشياءِ كلِّها بَناتٌ؟! فهُنَّ لا مَحالةَ مخلوقاتٌ له، فإنْ لم يكُنَّ مَخلوقاتٍ لَزِمَ أنْ يكُنَّ مَوجوداتٍ بوُجودِه، فكيف تَكُنَّ بَناتِه؟! وإلى هذا التَّناقُضِ الإشارةُ بقولِه: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، أي: مِن مَخلوقاتِه، أو ليستِ العُبوديَّةُ الحقَّةُ إلَّا عُبوديَّةَ المخلوقِ[(١)].

- قولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أي: ولَدًا، فقالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، ولَعلَّه سمَّاه جُزءًا كما سُمِّيَ بَعضًا؛ لأنَّه بَضعَةٌ مِن الوالِدِ؛ دَلالةً على استِحالَتِه على الواحِدِ الحَقِّ في ذاتِه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ تَذْييلٌ يدُلُّ على استِنكارِ ما زَعَموهُ بأنَّه كُفرٌ شَديدٌ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾

- (أم) للإضرابِ، وهو هنا انتِقاليٌّ؛ لانتِقالِ الكلامِ مِن إبْطالِ مُعتَقَدِهم بُنُوَّةَ المَلائِكةِ للهِ تعالى بما لَزِمَه مِنِ انتِقاصِ حَقيقةِ الإلهيَّةِ، إلى إبطالِه بما يَقتَضِيه مِنِ انتِقاصٍ يُنافي الكَمالَ الَّذي تقتَضِيه الإلهيَّةُ(١).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ تَجهيلًا لهم، وتَعجُّبًا مِن شَأنِهم، حيثُ لم يَرضَوا بأنْ جَعَلوا للهِ مِن عِبادِه جُزءًا، حتَّى جَعَلوا ذلك الجُزءَ الإناثَ دونَ الذُّكورِ، على أنَّهم أنفَرُ خَلقِ اللهِ عن الإناثِ، وأمقَتُهم لَهُنَّ، كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾(٢).

- و(أمْ) حَيثما وقَعَت تَقتَضِي تَقديرَ استِفهامٍ بَعدَها، وهو هنا استِفهامٌ في معنى الإنكارِ، وتَسَلَّطَ الإنكارُ على اتِّخاذِ البَناتِ مع عَدَمِ تَقدُّمِ ذِكْرِ البَناتِ؛ لِكَونِ المَعلومِ مِن جَعْلِ المُشرِكين للهِ جُزءًا أنَّ المَجعولَ جُزءًا له هو المُلائكةُ، وأنَّهم يَجعَلون الملائكةَ إناثًا، فذلك مَعلومٌ مِن كَلامِهم(٣).

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿ٱتَّخَذَ ﴾ هنا دونَ غَيرِه؛ لأنَّه يَشملُ الاتِّخاذَ بالوِلادةِ، ويَشملُ ما هو دونَ ذلك، وهو التَّبَنِّي؛ فعَلى كِلَا الفَرضَينِ يتَوَجَّهُ إنكارُ أنْ يكونَ ما هو للهِ أدوَنَ ممَّا هو لهم، وقد أشارَ إلى هذا قَولُه: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾؛ فهذا ارتِقاءٌ في إبطالِ مُعتَقَدِهم بإبطالِ فَرْضِ أنْ يَكونَ اللهُ تَبَنَّى الملائكةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

سَدًّا على المُشرِكين بابَ التَّأوُّلِ والتَّنصُّلِ مِن فَسادِ نِسبَتِهم البَناتِ إلى اللهِ تعالى[١].

- وجُملةُ ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والنَّفيُ الحاصِلُ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ مُنصَبٌّ إلى قَيدِ الحالِ، فحَصَل إبطالُ اتِّخاذِ اللهِ البَناتِ بدَليلَينِ؛ لأنَّ إعطاءَهُم البَنينَ واقِعٌ؛ فنَفيُ اقترانِه باتِّخاذِه لنَفْسِه البَناتِ يَقتَضِي انتِفاءَ اتِّخاذِه البَناتِ؛ فالمَقصودُ اقتِرانُ الإنكارِ بهذا القَيدِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿بَنَاتٍ﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وأمَّا تَعريفُ ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ باللَّامِ فهو تَعريفُ الجِنسِ، والمَقصودُ منه هنا الإشارةُ إلى المَعروفِ عِندَهم، المُتنافَسِ في وُجودِه لَدَيهم[٣].

- وتَقديمُ البَناتِ في الذِّكرِ على البَنينَ؛ لأنَّ ذِكْرَهنَّ أهمُّ هنا؛ إذ هو الغَرضُ المَسُوقُ له الكَلامُ، ولِمَا في التَّقديمِ مِن الرَّدِّ على المُشرِكين في تَحقيرِهم البَناتِ وتَطَيُّرِهم مِنهُنَّ، فجاء ذِكرُ البَنينَ مُستطَردًا؛ لِمَزيدِ الإنكارِ والتَّتميمِ[٤]

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

فيه[١].

- وأيضًا التَّقديمُ والتَّنكيرُ والتَّعريفُ في لَفظَتَيْ ﴿بَنَاتٍ﴾ و﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ فيه مُراعاةٌ للفواصِلِ[٢].

- والخِطابُ في ﴿وَأَصْفَـٰكُم﴾ مُوَجَّهٌ إلى الَّذين جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيْبةِ إلى الخِطابِ؛ لِيَكونَ الإنكارُ والتَّوبيخُ أوقَعَ عليهم لِمُواجَهَتِهم به، ولتَأكيدِ الإلزامِ، على مَعنَى: هَبُوا أنَّكُم اجتَرَأتُم على إضافةِ اتِّخاذِ جِنسِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه، مع ظُهورِ استِحالَتِه وامتِناعِه، أمَا كانَ لكم شَيءٌ مِن العَقلِ ونُبَذٌ مِن الحَياءِ حتَّى اجتَرَأتُم على التَّفَوُّه بالعَظيمةِ الخارِقةِ للعُقولِ، مِنِ ادِّعاءِ أنَّه تعالى آثَرَكُم على نَفْسِه بخَيرِ الصِّنفَينِ وأعلاهُما[٣]؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَا قبْلَه، وقيل: حالٌ على مَعنَى: أنَّهم نَسَبوا إليه ما ذَكَروا ومِن حالِهم أنَّ أحدَهُم إذَا بُشِّرَ بِه اغتَمَّ، وعَدَل عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ على طَريقِ الالْتِفاتِ؛ للإيذانِ باقتِضاءِ ذِكْرِ قَبائِحِهم أنْ يُعرَضَ عنهم وتُحكَى لغَيرِهم؛ تَعجُّبًا مِن فَسادِ مَقالَتِهم، وتَشنيعًا بها؛ إذ نَسَبوا للهِ بناتٍ دونَ الذُّكورِ، وهو نَقصٌ، وكانوا مِمَّن يَكرَهُ البَناتِ ويُحَقِّرُهُنَّ؛ فنِسبَتُها إلى اللهِ مُفضٍ إلى الاستِخفافِ بجانِبِ الإلهيَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

- قولُه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ...﴾ استِعمالُ البِشارةِ هنا تَهَكُّمٌ بهم؛ كقَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]؛ لأنَّ البِشارةَ إعلامٌ بحُصولِ أَمرٍ مُفرِحٍ[١]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا فيما يسرُّ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عَطْفُ إنكارٍ على إنكارٍ، والواوُ عاطفةُ الجُملةِ على الجملةِ، وهي مُؤخَّرةٌ عن همزةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّ للاستِفهامِ الصَّدرَ في الكلامِ، وأصلُ التَّرتيبِ: (وَأَمَن يُنشَّأُ)، وجملةُ الاستِفهامِ مَعطوفةٌ على الإنكارِ المُقَدَّرِ بعْدَ (أم) في قَولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ تَكريرًا للإنكارِ، وتَثنِيَةً للتَّوبيخِ على نِسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. ويجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ بدَلًا من قَولِه: ﴿بَنَاتٍ﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وأُبرِزَ العامِلُ في البَدَلِ؛ لتَأكيدِ معنَى الإنكارِ، ولا سِيَّما وهو قد حُذِفَ مِن المُبدَلِ منه؛ وإذ كان الإنكارُ إنَّما يَتَسلَّطُ على حُكمِ الخَبَرِ، كان مُوجِبُ الإنكارِ الثَّاني مُغايِرًا لمُوجِبِ الإنكارِ الأوَّلِ، وإنْ كان المَوصوفُ بالوصفَينِ اللَّذَينِ تَعَلَّق بهما الإنكارُ مَوصوفًا واحِدًا، وهو الأُنثَى[٢].

- قولُه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ...﴾ النَّشءُ في الحِليةِ كِنايةٌ عن الضَّعفِ عن مُزاوَلَةِ الصِّعابِ بحَسَبِ المُلازَمةِ العُرفيَّةِ فيه، والمَعنَى: أنْ لا فائِدةَ في اتِّخاذِ اللهِ بَناتٍ لا غَناءَ لهنَّ؛ فلا يَحصُلُ له باتِّخاذِها زِيادةُ عِزَّةٍ؛ بناءً على مُتعارَفِهم؛ فهذا احتِجاجٌ إقناعيٌّ خطابيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا: فَضحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٠، ١٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣).

مُعتَقَدِهم الباطِلِ، وأنَّهم لا يُحسِنون إعمالَ الفِكرِ في مُعتَقَداتِهم، وإلَّا لَكانوا حينَ جَعَلوا للهِ بُنُوَّةً ألَّا يَجعَلوا له بُنُوَّةَ الإناثِ، وهم يَعُدُّون الإناثَ مَكروهاتٍ مُستَضعَفاتٍ[1].

- الحاصلُ أنَّ في ظاهِرِ قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ إنكارَ نسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي العُدولِ إلى هذه الألفاظِ مِن التَّصريحِ بذِكْرِ «البَناتِ»: إدماجٌ[2] لمَعنَى ذمِّ التَّشَبُّهِ بالنِّساءِ، وفي مَفهومِ المُدمَجِ رَمزٌ إلى التَّرغيبِ في التَّزَيُّنِ بلِباسِ التَّقوَى، والاهتِمامِ بعِمارةِ الباطِنِ، ورَفضِ الالْتِفاتِ إلى الظَّاهِرِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١، ١٨٢).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ
وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم
بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي (إعمالُ الظَّنِّ) فيما لا تَستيقِنُه، ومنه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ خَرْصًا: إذا حَزَرْتَه؛ لأنَّ الحَزْرَ فيه ظَنٌّ لا إحاطةٌ، ثمَّ قيلَ للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ(١).

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: دِينٍ ومِلَّةٍ، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقَومِ يجتمعونَ على دِينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجُلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لِكلِّ ما كان أصلًا لِوُجودِ شَيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ(٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة =

﴿ ءَاثَٰرِهِم ﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[١].

﴿ مُتْرَفُوهَآ ﴾: أي: أغنياؤُها ورُؤساؤُها المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[٢].

﴿ عَٰقِبَةُ ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ وإتيانُه بعدَ غيرِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا الَّذين افترَوا عليه الكذبَ: وجعَل كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ الَّذين هم عِبادٌ لله إناثًا! فهل شَهِدوا خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ، فعَرَفوا أنَّهم إناثٌ؟! ستُكتَبُ شَهادتُهم، ويُسألونَ عنها يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى شُبهةً مِن شُبَهِهم، ويَرُدُّ عليهم بما يَقطَعُ شُبهتَهم، فيقولُ: وقال أولئك المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم! ما للمُشرِكينَ عِلمٌ بما قالوه وادَّعَوْه، فما هم إلَّا كاذِبونَ. فهل أعطَيْنا أولئك الكاذِبينَ كِتابًا مِن قَبلِ هذا

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

القُرآنِ يُثبِتُ صِحَّةَ دَعواهم، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ؟! ليس الأمرُ كذلك، بل قالوا: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتَقَدِ، ونحن بهم مُقتَدونَ!

ثُمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مبيِّنًا أنَّ هؤلاءِ المشركينَ قد سبَقهم مَن قال مِثلَ مقالتِهم، فيقولُ: وكما فَعَل مُشركو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عَذابَ اللهِ تعالى إلَّا قال رؤُساؤُها المُتنَعِّمونَ فيها -على سَبيلِ البَطَرِ والمُفاخَرةِ-: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على طَريقةٍ مَعهودةٍ مُعَيَّنةٍ لا نَترُكُها.

فقال الرَّسولُ لهم: أتُقَلِّدونَ آباءَكم وتتَّبِعونَهم على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بدِينٍ هو أهدى وأنفَعُ لكم في أُولاكم وأُخراكم ممَّا وَجدتُم عليه آباءَكم؟! قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به كافِرونَ، فلمَّا أصَرُّوا على ضَلالِهم وعِنادِهم أخَذْناهم مُهانِينَ صاغِرينَ فعاقَبْناهم؛ فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف كان مآلُ أمرِ أولئك المُصِرِّينَ على التَّكذيبِ؛ فسَيؤُولُ أمرُ هؤلاء أيضًا إلى أمثالِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عِندَ﴾ أي: وجَعَلوا ملائكةَ اللهِ الَّذين هم عِندَه يُسَبِّحونَه ويُقَدِّسونَه إناثًا[١].

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨). =

٢- قِراءةُ ﴿عِبَٰدُ﴾ جمعُ عَبدٍ، أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِبادٌ له إناثًا(١).

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾.

أي: واعتقد كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ -الَّذين هم عِبادٌ لله- إناثًا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨].

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).
قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أنَّهما قِراءتانِ مَعروفتانِ في قَرَأةِ الأمصارِ، صحيحتَا المعنى، فبأيَّتِهما قرأ القارئُ فمُصيبٌ؛ وذلك أنَّ الملائكةَ عِبادُ اللهِ وعِندَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).
و(جَعَلَ) تَأْتي في القرآنِ لِمَعانٍ، والمرادُ بها هنا اعتقَد. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).
قال أبو إسحاقَ الزَّجَّاجُ: (الجَعلُ هاهنا في معنى القَولِ والحُكم على الشَّيءِ، تقولُ: قد جعَلْتُ زيدًا أعلَمَ النَّاسِ، أي: قد وصَفْتُه بذلك وحَكَمتُ به). يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٧).

أي: فهل حَضَر أولئك المُشرِكونَ خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ وشاهَدوه فعرَفوا أنَّهم إناثٌ[(١)]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: ستُكتَبُ شَهادةُ أولئك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ في الدُّنيا، ويُسألونَ في الآخِرةِ عن شَهادتِهم تلك الَّتي ليس لهم عليها بُرهانٌ، ويُعاقَبونَ على افتِرائِهم هذا[(٢)].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى نوعًا آخَرَ مِن كُفرِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم[(٣)].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم[(٤)]، ولَصَرَفَنا عن ذلك، فترْكُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٦).

(٤) قال ابن الجوزي: (في المَكنيِّ عنهم قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الملائكةُ. قاله قَتادةُ، ومُقاتِلٌ في آخَرينَ. والثَّاني: الأوثانُ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٥).
وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعودُ إلى الأوثانِ والأصنامِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠). =

إيَّانا دَليلٌ على رِضاه مِنَّا بعِبادتِهم، وأنَّه حقٌّ لا اعتِراضَ عليه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾.

أي: ليس للمُشرِكينَ عِلمٌ بصِحَّةِ ما قالوه واحتَجُّوا به[(٢)].

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الغَيبةِ في ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن المقامِ ومِن ذِكرِ فِعلِ العبادةِ؛ لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ، وهم الغالِبُ، وأقوامٌ منهم يَعبُدونَ الجِنَّ؛ قال تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]... فضميرُ جمعِ المذكَّرِ تَغليبٌ، وليس عائدًا إلى الملائكةِ؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمونَ الملائكةَ إناثًا، فلو أرادوا الملائكةَ لَقالوا: ما عَبَدْناها، أو ما عبَدْناهُنَّ. وهذا هو الوَجهُ في معنى الآيةِ. ومِن المفَسِّرينَ مَن جَعَل مُعادَ الضَّميرِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ولعَلَّهم حمَلَهم على ذلك وُقوعُ هذا الكلامِ عَقِبَ حِكايةِ قَولِهم في الملائِكةِ: إنَّهم إناثٌ، وليس اقترانُ كلامٍ بكلامٍ بمُوجِبٍ اتِّحادَ مَحمَلَيهما. ... وهو بعيدٌ مِن اللَّفظِ؛ لتذكيرِ الضَّميرِ كما عَلِمْتَ، ومِن الواقِعِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَعبُدْ منهم الملائكةَ إلَّا طوائِفُ قليلةٌ عَبَدوا الجِنَّ والملائكةَ مع الأصنامِ، وليست هي الدِّيانةَ العامَّةَ للعَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: لو أراد اللهُ لَحالَ بيْنَنا وبيْنَ عبادةِ هذه الأصنامِ الَّتي هي على صُوَرِ الملائكةِ الَّتي هي بناتُ اللهِ؛ فإنَّه عالِمٌ بذلك، وهو يُقَرِّرُنا عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

أي: إنَّما يَقولونَ ذلك كَذِبًا وظَنًّا منهم بلا دَليلٍ ولا بُرهانٍ[(١)].

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ بالملائكةِ -الَّذين هم جُندُ المَلِكِ- مِن دَعائِمِ أُصولِ الدِّينِ، وأخبَرَ سُبحانَه أنَّهم وَصَفوهم بغيرِ ما هم عليه، ففَرَّطوا بوَصفِهم بالبَناتِ حتَّى أنزَلوهم إلى الحَضيضِ، وأفرَطوا بالعبادةِ حتَّى أعلَوهم عن قَدْرِهم، فانسَلَخوا في كِلا الأمْرَينِ مِن صَريحِ العَقلِ بما أشار إليه ما مضَى- أتْبَعَ ذلك أنَّهم عَريُّونَ أيضًا مِن صَحيحِ النَّقلِ؛ فقال مُعادِلًا لِقَولِه: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ إنكارًا عليهم بعد إنكارٍ: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾ الآيةَ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ تَرْكِ عِقابِهم على عبادةِ غَيرِ اللهِ، أي: ليس يدُلُّ على ذلك عَقلٌ؛ نفَى أيضًا أن يَدُلَّ على ذلك سَمعٌ، فقال[(٣)]:

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فهل أعطَيْنا أولئك المُتخرِّصينَ كِتابًا يُثبِتُ صِحَّةَ دَعواهم مِن قَبلِ نُزولِ هذا القُرآنِ، فهم بذلك الكِتابِ مُتمسِّكونَ، وعلى العَمَلِ به ثابِتونَ[(٤)]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾[الروم: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٥، ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٦).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّه لا دليلَ على صِحَّةِ قَولِهم البتَّةَ لا مِنَ العَقلِ ولا مِنَ النَّقلِ؛ بَيَّنَ أنَّه لا حامِلَ لهم يَحمِلُهم عليه إلَّا التَّقليدُ؛ بِقَولِه تعالى[1]:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس لهم مُستَنَدٌ على صِحَّةِ دَعواهم، وإنَّما حُجَّتُهم الباطِلةُ هي تقليدُ آبائِهم، فيقولونَ: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتقَدِ، ونحن لهم مُتَّبِعونَ[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾.

أي: وكما فَعَل مُشركو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم إلَّا قال رُؤساؤُهم وكُبَراؤُهم المُنعَّمونَ الَّذين أطْغَتْهم الدُّنيا: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على دينٍ غيرِ الَّذي تَدْعونا إليه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩، ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم =

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

أي: وإنَّا مُتَّبِعونَ لِطَريقتِهم، ولازِمونَ لها، فلا ننحَرِفُ عنها(١).

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قَٰلَ﴾ على الخبَرِ، قيل: المرادُ: قال كُلُّ نَذيرٍ لِقَومِه. وقيل: المرادُ: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَومِه(٢).

٢- قِراءةُ ﴿قُلْ﴾ على الأمرِ، قيل: المرادُ: قُلْنا للنَّذيرِ: قُلْ لِقَومِك. وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك(٣).

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾.

أي: قال الرَّسولُ لِقَومِه المُشرِكينَ المُتمَسِّكينَ بتقليدِ آبائِهم: أتَتَّبِعونَ آباءَكم

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بدِينٍ أهدى إلى الحَقِّ مِن الدِّينِ الَّذي وجَدْتُم عليه آباءَكم[(١)]؟!

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به جاحِدونَ مُنكِرونَ، وعلى دِينِ آبائِنا ثابِتونَ، وله وَحْدَه مُتَّبِعونَ[(٢)].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾.

أي: فعاقَبْناهم، فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف صار آخِرُ أمرِهم إلى هَلاكٍ وبَوارٍ[(٣)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۞ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ تقريعٌ للشُّهودِ ألَّا يَشهَدوا على شَيءٍ يُسألُونَ عنه إلَّا بعدَ تَيَقُّنِه والتَّثَبُّتِ فيه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّ الدَّاعيَ إلى القَولِ بالتَّقليدِ والحاملَ عليه إنَّما هو حُبُّ التَّنَعُّمِ في طيِّباتِ الدُّنيا، وحُبُّ الكَسَلِ والبَطالةِ، وبُغْضُ تحَمُّلِ مَشاقِّ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، والمُترَفونَ هم الَّذين أترَفَتْهم النِّعمةُ، أي: أبطَرَتْهم، فلا يُحِبُّونَ إلَّا الشَّهَواتِ والملاهيَ، ويُبغِضونَ تحَمُّلَ المَشاقِّ في طَلَبِ الحَقِّ؛ فرأسُ جميعِ الآفاتِ: حُبُّ الدُّنيا واللَّذَّاتِ الجُسْمانيَّةِ. ورأسُ جميعِ الخَيراتِ: حُبُّ اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ(٢).

٣- مَن بُيِّنَ له أنَّ القَولَ الآخَرَ هو أهدَى مِنَ القَولِ الَّذي نشأَ عليه، فعليه أن يَتَّبِعَه؛ قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وُجوبُ النَّظرِ والاعتبارِ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ رَدٌّ على

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١١).

الجَهميَّةِ في بابِ «الجَعْلِ» الَّذي لا يَعُدُّونه إلَّا خَلْقًا؛ لِيَتطَرَّقوا إلى خَلْقِ القُرآنِ، وهم لا يَستطيعونَ أنْ يَجعَلوا «الجَعْلَ» هاهنا خَلْقًا؛ إذ مُحالٌ أنْ يكونَ الكُفَّارُ خَلَقوا الملائِكةَ إناثًا! إنَّما افتَرَوا على اللهِ، وادَّعَوا عليه دَعوى باطلٍ وكُفرٍ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ احتَجَّ به مَن قال بتَفضيلِ الملائكةِ على البَشَرِ؛ فعلى قراءةِ ﴿عِنْدَ﴾ بالنُّونِ، فهذه العِنديَّةُ لا شَكَّ أنَّها عِنديَّةُ الفَضلِ والقُرْبِ مِن اللهِ تعالى بسَبَبِ الطَّاعةِ، ولَفظةُ ﴿هُمْ﴾ تُوجِبُ الحَصرَ، والمعنى: أنَّهم هم المَوصوفونَ بهذه العِنديَّةِ لا غيرُهم؛ فوَجَب كَونُهم أفضَلَ مِن غَيرِهم رعايةً لِلَّفظِ الدَّالِّ على الحَصرِ. وأمَّا مَن قرأَ ﴿عِبَـٰدُ﴾ جمعُ العَبدِ، فإنَّ لَفظَ العبادِ مَخصوصٌ في القُرآنِ بالمؤمِنينَ؛ فقَولُه ﴿هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ يفيدُ حَصرَ العُبوديَّةِ فيهم؛ فإذا كان اللَّفظُ الدَّالُّ على العُبوديَّةِ دالًّا على الفَضلِ والشَّرَفِ كان اللَّفظُ الدَّالُّ على حَصرِ العُبوديَّةِ دالًّا على حَصرِ الفَضلِ والمَنقَبةِ والشَّرَفِ فيهم، وذلك يُوجِبُ كَونَهم أفضَلَ مِن غَيرِهم. واللهُ أعلَمُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

والمنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّم عن ابن تيميَّةَ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّة فيصيرُ حالُ صالِحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّم: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَينِ، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ مِن فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عملٌ.

خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ أقوالَ الإنسانِ تُكْتَبُ عليه كأفعالِه؛ لأنَّ الشَّهادةَ هنا بالقولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ مَن أخبرَ غيرَه بشَيءٍ فقد شَهِدَ به، سواءٌ كان بلَفظِ الشَّهادةِ أو لم يَكُنْ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أنَّ الحُكْمَ على الغَيبِ مَحظورٌ على كلِّ أحدٍ، بغيرِ عِيانٍ ولا خَبَرٍ صادقٍ(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَولَ بغَيرِ دَليلٍ مُنكَرٌ(٤).

٧- أنكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى على مَن جَعَل مَشيئَتَه وقَضاءَه مُستلزِمَينِ لمَحبَّتِه ورِضاه. فكيف بمَن جَعَل ذلك شيئًا واحِدًا؟! قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل: ٣٥]؛ فهم استدَلُّوا على محَبَّتِه لِشِرْكِهم ورِضاه عنه بمَشيئتِه لذلك، وعارَضوا بهذا الدَّليلِ أمْرَه ونَهْيَه، وفيه أبيَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

الرَّدِّ لِقَولِ مَن جَعَل مَشيئَتَه عَيْنَ مَحبَّتِه ورِضاه؛ فالإشكالُ إنَّما نَشَأ مِن جَعْلِهم المشيئةَ نَفْسَ المحبَّةِ، ثمَّ زادوه بجَعْلِهم الفِعلَ نَفْسَ المفعولِ، والقَضاءَ عَينَ المقضِيِّ؛ فنشأ مِن ذلك إلزامُهم بكَونِه تعالى راضيًا مُحِبًّا لذلك، والتِزامُ رِضاهم به! والَّذي يَكشِفُ هذه الغُمَّةَ، ويُبَصِّرُ مِن هذه العَمايةِ، ويُنَجِّي مِن هذه الوَرطةِ: إنَّما هو التَّفريقُ بيْن ما فَرَّق اللهُ بيْنَه، وهو المشيئةُ والمحَبَّةُ؛ فإنَّهما ليسا واحِدًا، ولا هما مُتلازِمَينِ، بل قد يَشاءُ ما لا يُحِبُّه، ويُحِبُّ ما لا يشاءُ كَوْنَه؛ فالأوَّلُ: كمَشيئتِه لِوُجودِ إبليسَ وجُنودِه، ومَشيئتِه العامَّةِ لجَميعِ ما في الكونِ مع بُغْضِه لِبَعضِه. والثَّاني: كمَحبَّتِه إيمانَ الكُفَّارِ، وطاعاتِ الفُجَّارِ، وعَدْلَ الظَّالِمينَ، وتَوبةَ الفاسِقينَ، ولو شاء ذلك لوُجِدَ كُلُّه وكان جميعُه؛ فإنَّه ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ ﴾ أنَّه لم يَنزِلْ على العَرَبِ كِتابٌ سِوى القُرآنِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ﴾ تحريمُ التَّقليدِ بالباطلِ، وأمَّا التَّقليدُ بالحقِّ فلا بأسَ به؛ فإذا كان رجُلٌ لا يَعرِفُ حُكْمَ مسألةٍ في دينِ اللهِ، وليس عندَه قُدرةٌ على الاجتهادِ، فإنَّ فَرْضَه التَّقليدُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: ٤٣]، ولقولِ الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[3] [التغابن: ١٦].

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٣-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ﴾ أنَّ هؤلاءِ القومَ المكذِّبينَ للرُّسُلِ ليس عندَهم حُجَّةٌ إلَّا مُجرَّدُ ما كان عليه الآباءُ، وهذا ليس بحُجَّةٍ، وعلى هذا فلا يجوزُ الاحتِجاجُ بعَمَلِ النَّاسِ -كما يَفعَلُه بعضُ القومِ-، فإذا نهَيْتَه عن شَيءٍ قال: كلُّ النَّاسِ يَفعَلُه! فهذا ليس بحُجَّةٍ[1].

١١- قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾، قولُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ومع ذلك فإنَّا نقولُ: ما وجَدوا عليه آباءَهم ليس فيه هدًى، لكِنَّ التَّنزُّلَ مع الخَصمِ لا بأسَ به، وإنْ لم يَكُنْ في الطَّرَفِ الآخَرِ شَيءٌ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا ﴾[الزخرف: ١٥]، أُعِيدَ ذلك مع تَقَدُّمِ ما يُغْني عنه مِن قَولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ لِيُبنَى عليه الإنكارُ عليهم بقَولِه: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾؛ استقراءً لإبطالِ مَقالِهم؛ إذ أُبطِلَ ابتداءً بمُخالَفتِه لدَليلِ العَقلِ، وبمُخالَفتِه لِمَا يجِبُ لِلَّهِ مِن الكَمالِ، فكَمَّلَ هنا إبطالَه بأنَّه غيرُ مُستَنِدٍ لدَليلِ الحِسِّ[3].

- وقَولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ بيانٌ لتَضمينِ كُفرِهم المَذكورِ لكُفرٍ آخَرَ، وهو تَقريعٌ لهم بذلك؛ وهو جَعْلُهم أكمَلَ العِبادِ وأكرَمَهم على اللهِ عزَّ وجلَّ أنقَصَهُم رأْيًا، وأخَسَّهُم صِنفًا[4]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

- والإضافةُ إلى اسمِ الرَّحمنِ في قولِه: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تُفيدُ تَشريفَهم[١].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ الهَمزةُ لاستِفهامِ الإنكارِ، دَخَلت على فِعلِ (شَهِد)، أي: ما حَضَروا خَلْقَ الملائِكةِ، وعلى قِراءةِ ﴿أَأُشْهِدُوا﴾ -بهَمزَتَين: أُولاهُما مَفتوحةٌ، والأُخرَى مَضمومةٌ، وسُكونِ الشِّين مَبنيًّا للنَّائِب[٢]-؛ فالهَمزةُ للاستِفهامِ، وهو للإنكارِ والتَّوبيخ. وجِيءَ بصِيغةِ النَّائِبِ عن الفاعِلِ دونَ صِيغةِ الفاعِلِ؛ لأنَّ الفاعِلَ مَعلومٌ أنَّه اللهُ تعالى؛ لأنَّ العالَمَ العُلوِيَّ الَّذي كان فيه خَلقُ المَلائِكةِ لا يَحضُرُه إلَّا مَن أمَرَ اللهُ بحُضورِه[٣].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ هذا تَهكُّمٌ بهم، وتَجهيلٌ لهم، بمَعنَى أنَّهُم يَقولون ذلك مِن غَيرِ أنْ يَستَنِدَ قَولُهم إلى عِلمٍ؛ فإنَّ اللهَ لم يَضطَرَّهُم إلى عِلمِ ذلك، ولا تَطرَّقوا إليه باستِدلالٍ، ولا أحاطوا به عن خَبَرٍ يُوجِبُ العِلمَ؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُشاهِدُوا خَلْقَهُم فأَخبَروا عن هذه المُشاهَدةِ، أي: هل حَضَروا خَلْقَ اللهِ إيَّاهُم فشَاهَدوهُم إناثًا[٤]؟!

- وجُملَةُ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك الإنكارَ يَشتَمِلُ على الوَعيدِ، وهذا خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّوَعُّدِ، وكِتابةُ الشَّهادةِ كِنايةٌ عن تَحقُّقِ العِقابِ على كَذِبهم. والسِّينُ في ﴿سَتُكۡتَبُ﴾ لتَأكيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

الوَعيدِ[(١)]. وقيل: أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاستِقبالِ في ﴿سَتُكْتَبُ﴾ فأتى بالسِّينِ الدَّالَّةِ عليه؛ لِيَتضَمَّنَ الكَلامُ معنَى انفِساحِ الوَقتِ للتَّوبةِ، وبِناءِ الرَّجاءِ على الاستِعطافِ لقَبولِها قبْلَ كِتابةِ ما قالوا[(٢)].

-والمُرادُ بِشَهادتِهم: ادِّعاؤُهم أنَّ المَلائكةَ إناثٌ، قيل: أطلَقَ عليها شَهادةً؛ تَهَكُّمًا بهم[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لبَيانِ نَوعٍ آخَرَ وفَنٍّ آخَرَ مِن أنواعِ كُفرِهم[(٤)]. أو عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فإنَّها استِدلالٌ على وَحدانيَّةِ الله تعالى، وعلى أنَّ مَعبوداتِهم غَيرُ أهلٍ لِأَنْ تُعبَدَ، فحُكِيَ هنا ما استَظْهَروه مِن مَعاذيرِهم عِندَ نُهوضِ الحُجَّةِ عليهم يَرُومون بها إفحامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ، فيقولونَ: لو شاءَ اللهُ ما عبَدْناهم، أي: لو أنَّ اللهَ لا يحِبُّ أنْ نَعبُدَها، لَكان اللهُ صَرَفَنا عن أنْ نَعبُدَها، وتوهَّموا أنَّ هذا قاطعٌ لِجِدالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم؛ لأنَّهم سَمِعوا مِن دِينِه أنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في الحوادثِ، فتَأَوَّلوه على غيرِ المرادِ منه[(٥)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيةِ): ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فقال هنا: ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ ووجهُه: أنَّ قَبْلَ الآيَةِ مِن سُورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم قالوا: المَلائِكةُ بَناتُ اللهِ، وأنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَعبُدوهم! وليس ذلك مِن عِلمٍ، بل هم كاذِبون فيما يَدَّعونَه ويُخبِرون به؛ فأبطَلَ خبَرَهم بالتَّكذيبِ لهم، وهو الَّذي يَليقُ بالمَوضِعِ. وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الجاثِيةِ) فخَبَرٌ عن الكُفَّارِ الَّذين دَعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الإسلامِ بأنَّهم قالوا: لا بَعْثَ لنا، وإنَّما هو أنْ تَموتَ الأَسلافُ، وتَحْيَا الأَخلافُ، فكُلَّما هَدَم الدَّهرُ قَومًا فأفناهُم، أنشَأَ فيه آخَرينَ وأحياهُم، وهؤلاء لم يَقولُوا ما قالوا بمَعرِفةٍ، بلْ قالوه على سَبيلِ الظَّنِّ؛ فكان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لائِقًا بهذا المَكانِ. أو أنَّ ما في سُورةِ (الجاثيةِ) مُتَّصِلٌ بخَلطِهِمُ الصِّدقَ بالكَذِبِ؛ فإنَّ قَولَهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ صِدقٌ، وكَذَبوا في إنكارِهِمُ البَعثَ، وقَولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ فناسَبه ﴿يَظُنُّونَ﴾، أي: يَشُكُّون فيما يَقولُون[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ إضرابٌ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٣، ١١٧٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٩، ٤٤٠).

انتِقاليٌّ، عُطِف على جُملةِ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ فبَعْدَ أنْ نَفَى أنْ يكونَ قولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] مُستنِدًا إلى حُجَّةِ العَقلِ؛ انتَقَل إلى نَفيِ أن يكونَ مُستنِدًا إلى حُجَّةِ النَّقلِ عن إخبارِ العالِمِ بحَقائقِ الأشياءِ الَّتي هي مِن شُؤونه(١).

- واجتُلِبَ للإضرابِ حرْفُ (أَمْ) دونَ (بلْ)؛ لِما تُؤذِنُ به (أَمْ) مِن استفهامٍ بعْدَها، وهو إنكاريٌّ، والمعنَى: وما آتَيْناهُم كِتابًا مِن قَبلِه(٢).

- و(مِن) صِلةٌ لتَوكيدِ مَعنَى (قَبل)، والضَّميرُ المُضافُ إليه (قبْل) في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المَذكورِ في أوَّلِ السُّورةِ، وفي قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ولم يتقدَّمْ له معادٌ في اللَّفظِ، ولَكِنَّه ظاهِرٌ مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿كِتَٰبٗا﴾. وفي هذا ثَناءٌ ثالثٌ على القُرآنِ ضِمنيٌّ؛ لاقتِضائِه أنَّ القُرآنَ لا يأتي إلَّا بالحَقِّ الَّذي يُستَمسَكُ به، وهذا تَمهيدٌ للتَّخَلُّصِ إلى قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾(٣) [الزخرف: ٢٢].

- وكَلِمَةُ ﴿مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (مُمسِكون)؛ يُقالُ: أمسَكَ بالشَّيءِ، إذا شدَّ عليه يَدَه، وهو مُستَعمَلٌ هنا في مَعنَى الثَّباتِ على الشَّيءِ(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ إضرابُ إبطالٍ عن الكَلامِ السَّابِقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦، ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٨٧).

مِن قَولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]؛ فهو إبطالٌ للمَنفيِّ لا للنَّفيِ، أي: ليس لهم عِلمٌ فيما قالُوه ولا نَقلٌ؛ فكان هذا الكَلامُ مَسُوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم؛ إذ لم يُقارِنوا بيْنَ ما جاءَهم به الرَّسولُ وبيْن ما تَلَقَّوْه مِن آبائِهم؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يُمَيِّزَ ما يُلقَى إليه مِن الاختِلافِ، ويَعرِضَه على مِعيارِ الحَقِّ(١).

- وقَولُه: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يَجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ مُتعَلِّقًا بـ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ بتَضمينِ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ معنى سائِرُون، أي: إنَّهُم لا حُجَّةَ لهم في عِبادَتِهم الأصنامَ إلَّا تَقليدُ آبائِهم، وذلك ما يَقولُونه عِندَ المُحاجَّةِ؛ إذ لا حُجَّةَ لهم غَيرُ ذلك. وجَعَلوا اتِّباعَهُم إيَّاهُم اهتِداءً؛ لشِدَّةِ غُرورِهم بأحوالِ آبائِهم؛ بحَيثُ لا يَتَأَمَّلون في مُصادَفةِ أَحوالِهم للحَقِّ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ قال بَعْدَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ فقالَ: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ في فاصِلَةِ الآيةِ الأُولَى، و﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ في فاصِلةِ الآيةِ الثَّانيةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه خصَّ الآيةَ الأُولَى بالاهتداءِ؛ لأنَّه كلامُ العربِ في محاجَّتِهم رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وادِّعائِهم أنَّ آباءَهم كانوا مُهتدينَ، فنحنُ مهتدونَ. ولهذا قال عَقيبَه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ﴾. وأما الآيةُ الثانيةُ فهي حكايةٌ عمَّنْ كان قَبْلَهم مِن الكفَّارِ، وادَّعَوا الاقتداءَ بالآباءِ دونَ الاهتداءِ، فاقتَضتْ كلُّ آيةٍ ما خُتِمتْ به(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري =

وقيل: جاء في حِكايةِ قَولِ المُشرِكينَ الحاضِرينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم مُهتَدونَ بآثارِ آبائِهم، وجاء في حِكايةِ أقوالِ السَّابِقينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم بآبائِهم مُقتَدُون؛ لأنَّ أقوالَ السَّابِقينَ كثيرةٌ مُختَلِفةٌ يَجمَعُ مُختَلِفَها أنَّها اقتِداءٌ بآبائِهم، فحِكايةُ أقوالِهم مِن قَبيلِ حِكايةِ القَولِ بالمَعنَى، وحكايةُ القَولِ بالمَعنى طَريقةٌ في حِكايةِ الأقوالِ كَثُرَ وُرودُها في القُرآنِ وكلامِ العَرَبِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ اعتِراضٌ لِتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَمَسُّكِ المُشرِكينَ بدِينِ آبائِهم، والمَقصودُ: أنَّ هذه شِنْشِنَةُ أهلِ الضَّلالِ مِن السَّابِقين واللَّاحِقينَ -أي: عادتُهم المستمِرَّةُ- قد استَوَوْا فيه كما استَوَوْا في مَثارِه؛ وهو النَّظَرُ القاصِرُ المُخطِئُ، ويَتضمَّنُ هذا تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لَقِيَه مِن قَومِه؛ بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْله لَقُوا مِثلَ ما لَقِيَ[٢].

- وكافُ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مُتعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، وقُدِّم على مُتَعَلَّقِه؛ للاهتِمامِ بهذه المُشابَهةِ، والتَّشويقِ لِمَا يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ...﴾ فيه تَخصيصُ المُترَفينَ بتلك المَقالَةِ؛ للإيذانِ بأنَّ التَّنَعُّمَ وَحُبَّ البَطالَةِ هو الَّذي صَرَفَهم عن النَّظَرِ

= (ص: ٥١٢، ٥١٣). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٥ - ١١٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

إلى التَّقليدِ(١)، والمَعنَى: أنَّهُم مِثلُ قُرَيشٍ في الازدِهاءِ بالنِّعمةِ الَّتي هم فيها، أي: في بَطَرِ نِعمَةِ اللهِ عليهم؛ فالتَّشبيهُ يَقتَضي أنَّهم مِثلُ الأُمَمِ السَّالِفَةِ في سَبَبِ الازدِهاءِ، وهو ما همْ فيه مِن نِعمةٍ حتَّى نَسُوا احتِياجَهم إلى اللهِ تعالى(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّم ذِكرَ القَبْلِيَّةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾؛ اهتِمامًا بالتَّسلِيَةِ، وتَخليصًا لها من أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّه يكونُ معه في زَمانِه أو بَعدَه نَذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجَدِّدَ لشَريعَتِه إنَّما يَكونُ مُغيثًا لأُمَّتِه، وبَشيرًا لا نَذيرًا لثَباتِهم على الدِّينِ بتَصديقِهم جَميعَ النَّبيِّينَ، وأسقَطَ هذه القَبليَّةَ في سُورَةِ (سبَأٍ) في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ فيها التَّعميمُ؛ لأنَّه لم يتَقَدَّمْ لقُرَيشٍ ذِكرٌ حتَّى يُخَصَّ مَن قَبْلَهُم(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ قَرأَ الجُمهورُ ﴿قُلۡ﴾، وقَرَأَ ابنُ عامِرٍ وحَفصٌ: ﴿قَٰلَ﴾ بصِيغةِ فِعلِ المُضيِّ المُسنَدِ إلى المُفرَدِ الغائِبِ؛ فيَكونُ الضَّميرُ عائِدًا إلى نَذيرِ الَّذين قالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ فحَصَل مِن القِراءتَين أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ أجابُوا أقوامَهم بهذا الجَوابِ، وقَرَأَ الجُمهورُ ﴿جِئۡتُكُم﴾ بضَميرِ تاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١١).

المُتكلِّمِ، وقَرَأ أبو جعفرٍ: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾[١]، وأبو جَعفرٍ مِن الَّذين قَرَؤوا ﴿قُلْ﴾ بصِيغةِ الأمرِ؛ فيَكونُ ضَميرُ ﴿جِئْناكُم﴾ عائدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُخاطَبِ بفِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لتَعظيمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جانِبِ ربِّه تعالى الَّذي خاطَبَه بقَولِه: ﴿قُلْ﴾[٢].

وقيل: قُرِئ ﴿قُلْ﴾ على أنَّه حِكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حِينَئِذٍ إلى كلِّ نَذيرٍ؛ لا على أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما قيل؛ لقَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ فإنَّه حِكايةٌ عن الأُمَمِ قَطعًا؛ أي: قال كلُّ أُمَّةٍ لنَذيرِها: إنَّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ؛ وقد أُجمِلَ عِندَ الحِكايةِ للإيجازِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ المَشُوبِ بالإنكارِ، و(لو) وَصليَّةٌ، تَقتَضي المُبالَغةَ بنِهايةِ مَدلولِ شَرطِها، والمَقصودُ من الاستِفهامِ تَقريرُهم على ذلك؛ لاستِدعائِهم إلى النَّظَرِ فيما اتَّبَعوا فيه آباءَهُم؛ لَعَلَّ ما دَعاهُم إليه الرَّسولُ أهْدَى منهم[٤].

- وقَولُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ أي: بدِينٍ أَهدَى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ مِن الضَّلالةِ الَّتي لَيسَت مِن الهِدايةِ في شَيءٍ، وإنَّما عبَّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مَسلَكِ الإنصافِ[٥]، وفيه تَجهيلٌ لهم، حيث يُقَلِّدون ولا يَنظُرون في الدَّلائِلِ[٦].

(١) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

- وصَوغُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ مِن الهدَى إرخاءٌ للعِنانِ لهم ليَتَدَبَّروا؛ نَزَّل ما كان عليه آباؤُهم مَنزِلةَ ما فيه شَيءٌ مِن الهُدَى، استِنزالًا لطائِرِ المُخاطَبينَ؛ ليَتَصَدَّوا للنَّظَرِ(١)، وفيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتَكَلِّمُ الخَصمَ بما يُلجِئُه إلى الاعتِرافِ بحَقيقةِ نَفْسِه ودَخيلَةِ قَلبِه؛ فالتَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّفضيلِ المُقتَضِي أنَّ ما عليه آباؤُهم فيه هِدايةٌ، لم يَكُن إلَّا لإلْجائِهم إلى الاعتِرافِ بحقيقةِ نِيَّاتِهم الَّتي يُضمِرونَها؛ كأنَّه يَتَنَزَّلُ معهم إلى أبعَدِ الحُدودِ، ويُرخِي لهم العِنانَ إلى أقْصى الآمادِ؛ لِيَعتَرِفوا -مِن ثَمَّ- بمُكابَرَتِهم الَّتي لا تُجدِي معها المُناصَحةُ في القَولِ، ولا يَنفَعُ في تَذليلِها الإتيانُ بالحُجَّة(٢).

- قَولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا ثابِتون على دِينِ آبائِنا، لا نَنفَكُّ عنه، وإنْ جِئْتَنا بما هو أهدَى وأهدَى، ودلَّ على هذه المُبالَغةِ الجُملةُ الاسمِيَّةُ وتَضَمُّنُها معنى الكِنايةِ، انظُرْ كمْ بيْنَ دَعوةِ الأنبياءِ وبيْن مُقابَلةِ الكَفَرةِ مِن التَّبايُنِ؟! فالأنبياءُ تَفادَوْا عن لَفظِ الأمرِ، وعَدَلوا إلى الاستِفهامِ، ومع ذلك ما استَوفَوا تَمامَ الحقِّ، حيث أَتَوا بحَرفِ التَّقريرِ، وضَمُّوا إليه (أفعَلَ) التَّفضيلِ، وكان الجوابُ المُطابِقُ: نَتَّبِعُ دِينَ آبائِنا ولا نَتَّبِعُ دِينَكم؛ فعَدَلوا إلى ما دلَّ على نَفيِ دِينِ الحقِّ، وإثباتِ الباطِلِ بالطَّريقِ البُرهانِيِّ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٥).

والطَّريقُ البُرهانيُّ: قياسٌ استثنائيٌّ، يُستدَلُّ فيه بنَفْيِ اللَّازمِ البَيِّنِ انتفاؤُه على نَفْيِ الملزوم، كما يُقالُ: هل زَيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لَحَضَرَ مَجلِسَنا، فيُستدَلُّ بعدَمِ الحُضورِ على =

- وقولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملَةِ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ ذلك يَشتَمِلُ على معنى: لا نَتَّبِعُكم ونَترُكُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا، وضَميرُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ راجِعٌ إلى ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ مَوقِعَ جُملةِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٥] يُعَيِّنُ أنَّ هؤلاءِ القائِلينَ وَقَعَ الانتِقامُ منهم؛ فلا يَكونُ منهم المُشرِكون الَّذين وَقَع تَهديدُهم بأولئك(١).

- وقَولُهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هو حِكايةٌ لقَولِهم؛ فإطلاقُهم اسمَ الإرسالِ على دَعوةِ رُسُلِهم تَهَكُّمٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ حِكايةً بالمَعنَى، وإنَّما قالُوا: إنَّا بما زَعَمتُم أنَّكُم مُرسَلُون به(٢).

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، أي: انتَقَمْنا منهم عَقِبَ تَصريحِهم بتَكذيبِ الرُّسُلِ، وهذا تَهديدٌ بالانتِقامِ مِن الَّذين شابَهوهُم في مَقالِهم، وهم كُفَّارُ قُرَيشٍ(٣).

- والانتِقامُ: افتِعالٌ مِن النَّقْمِ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ(٤).

= عدَمِ كَونِه في البَلدِ. أو: هو ما يَلزَمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفْيُ مِثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩١).

الآيات (٢٦-٣٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ
سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ
قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَرَآءٌ﴾: أي: بريءٌ، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَبَرِّي: التَّفصِّي مما يُكرهُ مُجاوَرتُه، وأصلُ (برأ) هنا: التَّباعُدُ مِن الشَّيءِ ومُزايَلَتُه[١].

﴿فَطَرَنِى﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿عَقِبِهِۦ﴾: العَقِبُ: الذُّرِّيَّةُ ووَلَدُ الوَلَدِ ما امتَدَّ فرعُهم، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢١)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠).
والبَراءُ لا يُثنَّى ولا يُجمعُ ولا يؤنَّثُ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُضِع مَوضِعَ النَّعتِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

﴿مَتَّعْتُ﴾: أي: أبقيتُ وعَمَّرْتُ. والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي: لِيَخدُمَ بعضُهم بعضًا، ويعمَلَ بعضُهم لبعضٍ، مِن التَّسخيرِ، وهو: التَّهيئةُ. وقيل: هو سياقةُ الشَّيءِ إلى الغرضِ المختصِّ به قهرًا، والسُّخْريُّ: هو الَّذي يُقهَرُ فيَتسَخَّرُ بإرادتِه، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: إنَّني بَريءٌ مِمَّا تَعبُدونَه مِن دُونِ اللهِ تعالى، فلا أعبُدُ إلَّا اللهَ الَّذي خلَقَني فهو يُرشِدُني إلى الحَقِّ. وجَعَل إبراهيمُ تلك الكَلِمةَ -كَلِمةَ التَّوحيدِ- كَلِمةً باقيةً مُستَمِرَّةً في ذرِّيَّتِه؛ لعَلَّهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ.

لكِنَّ هؤلاء الكُفَّارَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- ليسوا ممَّن بَقِيَت الكَلِمةُ فيهم، بل مَتَّعتُهم وآباءَهم بالمَدِّ في العُمُرِ والنِّعمةِ والمُهلةِ، فاغترُّوا وشُغِلوا عن كَلِمةِ التَّوحيدِ، حتَّى جاءهم القُرآنُ ورسولٌ مُظهِرٌ للحَقِّ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٧٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

ثُمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن القرآنِ: ولَمَّا جاءهم القُرآنُ قالوا: هذا سِحرٌ ولن نُؤمِنَ به، وقالوا اعتِراضًا على إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا فهلَّا نُزِّلَ على رجُلٍ ذي ثَروةٍ وجاهٍ مِن وُجَهاءِ مكَّةَ أو الطَّائِفِ!

ثُمَّ يقولُ الله تعالَى رادًّا عليهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ حيث شاؤُوا أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختصُّ بذلك؟! نحن قَسَمْنا الأرزاقَ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا، ورَفَعْنا بعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ -فمِنهم الغنيُّ، ومنهم الفَقيرُ إلى غيرِ ذلك-؛ لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بعضَهم مِن بَعضٍ؛ فإذا كان أمرُ الدُّنيا لم يُفَوَّضْ إليهم، فكيف بأمرِ النُّبُوَّةِ؟! ورحمةُ رَبِّك -يا محمَّدُ- خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه أولئك المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن مَتاعِها الزَّائِلِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّه ليس لأولئك الكُفَّارِ داعٍ يَدعوهم إلى تلك الأقاويلِ الباطِلةِ إلَّا تقليدُ الآباءِ والأسلافِ، ثمَّ بَيَّن أنَّه طَريقٌ باطِلٌ ومَنهَجٌ فاسِدٌ، وأنَّ الرُّجوعَ إلى الدَّليلِ أَولَى مِن الاعتِمادِ على التَّقليدِ؛ أردَفَه بهذه الآيةِ، والمقصودُ منها ذِكرُ وَجهٍ آخَرَ يدُلُّ على فَسادِ القَولِ بالتَّقليدِ، وتَقريرُه مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه تعالى حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه تبَرَّأَ عن دينِ آبائِه بناءً على الدَّليلِ، فنَقولُ: إمَّا أن يكونَ تَقليدُ الآباءِ في الأديانِ مُحَرَّمًا أو جائِزًا، فإن كان

مُحَرَّمًا فقد بطَلَ القَولُ بالتَّقليدِ، وإن كان جائزًا فمَعلومٌ أنَّ أشرَفَ آباءِ العَرَبِ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّهم ليس لهم فَخرٌ ولا شَرَفٌ إلَّا بأنَّهم مِن أولادِه، وإذا كان كذلك فتقليدُ هذا الأبِ الَّذي هو أشرَفُ الآباءِ أَولى مِن تقليدِ سائرِ الآباءِ، وإذا ثَبَت أنَّ تقليدَه أَولى مِن تقليدِ غَيرِه فنَقولُ: إنَّه تَرَك دينَ الآباءِ وحَكَم بأنَّ اتِّباعَ الدَّليلِ أَولى مِن مُتابَعةِ الآباءِ، وإذا كان كذلك وَجَب تقليدُه في تَركِ تقليدِ الآباءِ، ووَجَب تقليدُه في ترجيحِ الدَّليلِ على التَّقليدِ.

الوَجهُ الثَّاني: في بيانِ أنَّ تَرْكَ التَّقليدِ والرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ أَولى في الدُّنيا وفي الدِّينِ: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عَدَل عن طريقةِ أبيه إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ لا جَرَمَ جَعَل اللهُ دينَه ومَذهَبَه باقيًا في عَقِبِه إلى يومِ القيامةِ، وأمَّا أديانُ آبائِه فقد اندَرَست وبَطَلَت؛ فثَبَت أنَّ الرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ يَبقى محمودَ الأثَرِ إلى قيامِ السَّاعةِ، وأنَّ التَّقليدَ والإصرارَ يَنقَطِعُ أثَرُه، ولا يبقَى منه في الدُّنيا خبرٌ ولا أثَرٌ؛ فثَبَت مِن هذينِ الوَجهَينِ أنَّ مُتابعةَ الدَّليلِ وتَرْكَ التَّقليدِ أَولى، فهذا بيانُ المقصودِ الأصليِّ مِن هذه الآيةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرَهم اللهُ بالأُمَمِ الماضِيةِ، وشَبَّه حالَهم بحالِهم؛ ساقَ لهم أمثالًا في ذلك مِن مَواقِفِ الرُّسُلِ مع أُمَمِهم؛ منها قِصَّةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه[٢].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكينَ: إنَّني بَريءٌ مِنَ الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ، فأُبغِضُها ولا أعبُدُها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾.

أي: أنا بَريءٌ مِنَ الَّذين تَعبُدونَهم إلَّا الَّذي خلَقَني، فهو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ، فأنا أعبُدُه ولا أتبَرَّأُ منه؛ فإنَّه سيُرشِدُني ويُوَفِّقُني للحَقِّ(١).

= (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه على حقيقةِ الاستِثناءِ -يعني: أنَّه استِثناءٌ مُتَّصِلٌ- لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ اللهَ وما دُونَه، فيَستقيمُ الاستِثناءُ على هذا.

والثَّاني: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، ومعناه: لَكِن الَّذي فَطَرني). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الاستِثناءَ مُنقَطِعٌ: الماوَرْديُّ، وجَوَّزه الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٨].

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾.

أي: وجَعَل إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ[1] ....

---

(١) قال ابنُ عطية: (قالت فِرقةٌ: ذلك عائِدٌ على كَلِمتِه بالتَّوحيدِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾، وقال مجاهِدٌ وقَتادةُ والسُّدِّيُّ: ذلك مُرادٌ به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وعاد الضَّميرُ عليها وإن كانت لم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ اللَّفظَ يَتضَمَّنُها. وقال ابنُ زَيدٍ: المرادُ بذلك: الإسلامُ ولَفْظتُه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقَولُه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾: يَعودُ إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ: ابن جرير، والزجاج، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٣).

قال الرازي: (وجعَلَ إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ الَّتي تَكَلَّمَ بها وهي قَولُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جاريًا مَجْرَى لا إلهَ، وقولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: إلَّا اللهُ؛ فكان مجموعُ قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ المنصوبُ في «جَعَلَهَا» على التَّحقيقِ راجِعٌ إلى كَلِمةِ الإيمانِ المُشتَمِلةِ على معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ، المذكورةِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لأنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ نفْيٌ وإثباتٌ، فمعنى النَّفيِ منها هو البَراءةُ مِن جميعِ المعبوداتِ غيرِ اللهِ في جميعِ =

كَلِمةً باقيةً في ذُرِّيَّتِه[(١)]؛ ....

= أنواعِ العباداتِ، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾. ومعنى الإثباتِ منها هو إفرادُ اللهِ وَحْدَه بجميعِ أنواعِ العباداتِ على الوَجهِ الَّذي شَرَعه على ألْسِنةِ رُسُله، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢).
ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤).

وممَّن اختار أنَّ ضميرَ الفاعِلِ في (جَعَلَها) يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرَّازي، والرَّسْعَني، والخازن، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢).

وقيلَ: الفاعلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ كلمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٧).

(١) وجَعْلُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كَلِمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبِه، قيل: المرادُ أنَّه وصَّاهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾... الآيةَ [البقرة: ١٣٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

وقيل: المرادُ أنَّه دعا اللهَ تعالى -وهو مُجابُ الدَّعوةِ- كما في قَولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ: الشنقيطي، فقال: (وإنَّما جعَلَها إبراهيمُ باقيةً فيهم؛ لأنَّه تَسَبَّب لذلك بأمْرَين:

أحدُهما: وصيَّتُه لأولادِه بذلك، وصاروا يَتوارَثون الوَصيَّةَ بذلك عنه، فيُوصي به السَّلَفُ منهم الخَلَفَ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]. =

رجاءَ أن يَرجِعوا إلى الحَقِّ(١).

= والأمرُ الثاني: هو سؤالُه ربَّه تعالى لِذُرِّيَّتِه الإيمانَ والصَّلاحَ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة: ١٢٤]... وقَولِه تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقولِه عنه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقَولِه عنه هو وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢، ١٠٣).

وقال ابن كثير: (جعَلَها دائِمةً في ذُرِّيَّتِه يَقتدي به فيها مَن هداه اللهُ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (فالمعنى: جَعَل إبراهيمُ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] شِعارًا لعَقِبه، أي: جعَلَها هي وما يُرادِفُها قَولًا باقيًا في عَقِبه على مَرِّ الزَّمانِ، فلا يخلو عَقِبُ إبراهيمَ مِن مُوَحِّدينَ لله، نابِذينَ للأصنامِ...، فإنْ أُريدَ بالعَقِبِ مَجموعُ أعقابِه فإنَّ كَلِمةَ التَّوحيدِ لم تَنقطِعْ مِن اليهودِ، وانقطَعَت مِنَ العَرَبِ بعدَ أن تقَلَّدوا عبادةَ الأصنامِ إلَّا مَن تهَوَّدَ منهم أو تنَصَّرَ. وإن أُريدَ مِن كُلِّ عَقِبٍ فإنَّ العَرَبَ لم يَخلوا من قائمٍ بكَلِمةِ التَّوحيدِ؛ مِثلُ المتنَصِّرينَ منهم، كالقبائِلِ المتنَصِّرة، ووَرَقةَ بنِ نَوفَلٍ، ومِثلُ المتحَنِّفينَ، كزَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ، وأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦، ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢- ١٠٤).

قال الألوسي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليلٌ للجَعْلِ، أي: جعَلَها باقيةً في عَقِبِه؛ كي يَرجِعَ مَن أشرَكَ منهم بدُعاءِ مَن وَحَّد، أو بسَبَبِ بقائِها فيهم). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٧).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: جَعَل الكَلِمةَ باقيةً فيهم؛ لعَلَّ الزَّائِغينَ الضَّالِّينَ منهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ بإرشادِ المُؤمِنينَ المُهتَدينَ منهم؛ لأنَّ الحَقَّ ما دام قائمًا في جُملتِهم فرُجوعُ الزَّائغينَ عنه إليه مَرجُوٌّ مأمولٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والرَّجاءُ المذكورُ: بالنِّسبةِ إلى بني آدَمَ؛ لأنَّهم لا يَعرِفونَ مَن يَصيرُ إلى الهُدى، ومَن يصيرُ إلى الضَّلالِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه حكايةً لِقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا عَوَّلوا على تقليدِ الآباءِ، ولم يَتفَكَّروا في الحُجَّةِ؛ اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، وإمتاعِ اللهِ إيَّاهم بنَعيمِ الدُّنيا؛ فأعرَضوا عن الحَقِّ(١).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لم يَحصُلْ ما رجاه إبراهيمُ مِن رُجوعِ جَميعِ عَقِبِه إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ الَّتي

= وقال الشوكاني: (وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجِعٌ إلى أهلِ مكَّةَ، أي: لعَلَّ أهلَ مكَّةَ يَرجِعونَ إلى دينِك الَّذي هو دينُ إبراهيمَ. وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: فإنَّه سيَهدينِ لعَلَّهم يَرجِعونَ، وجعَلَها ... إلخ. قال السُّدِّيُّ: لعلَّهم يَتوبونَ فيَرجِعونَ عمَّا هم عليه إلى عبادةِ اللهِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ [أي: في قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾] راجعٌ إلى مَن ضَلَّ مِن عَقِبِه؛ لأنَّ الضَّالِّينَ منهم داخِلونَ في لفظِ العَقِبِ، فرُجوعُ ضميرِهم إلى العقِبِ لا إشكالَ فيه، وهذا القولُ هو ظاهِرُ السِّياقِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٥).

وتنوَّعت عباراتُ المفسِّرينَ فيما يُرجى رُجوعُهم إليه؛ فمِنهم مَن قال: يَرجِعون إليها، أي: إلى الكلمةِ، ومنهم مَن قال: إلى التَّوحيدِ، ومنهم مَن قال: إلى الإيمانِ، ومنهم مَن قال: إلى الهُدى بعدَ الضَّلالةِ، ومنهم مَن قال: إلى الحقِّ، ومنهم مَن قال: إلى دينِ إبراهيمَ. وهي مُتقارِبةٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

جعَلَها فيهم -ومنهم كُفَّارُ قُريشٍ وآباؤُهم مِن قَبلِهم-؛ فقد مَتَّع اللهُ هؤلاء القَومَ، فأسبَغَ عليهم مِنَ النِّعَمِ، وعافاهم مِن العُقوباتِ والنِّقَم؛ فأبطَرَهم ذلك وزهَّدَهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وتمادَوا في باطِلِهم حتَّى جاءَهم القُرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وجاءهم مِنَ الله تعالى رَسولٌ ظاهرٌ أمرُه، ومُبَيِّنٌ لرسالتِه وأحكامِ دينِه، مُظهِرٌ للحَقِّ وحُجَجِه، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّبِينٌ﴾ في هذه الآيةِ يحتملُ التَّعدِّيَ وتَرْكَ التَّعدِّي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ لازِمٌ غيرُ مُتَعَدٍّ، بمعنَى: بَيِّن، أي: واضحٍ وظاهرٍ أمْرُه ورسالتُه ونِذارتُه بما معه من الآياتِ البَيِّنةِ والدَّلائلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مُتَعَدٍّ، بمعنى أنَّه يُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ، ويُبيِّنُ الدِّينَ والأحكامَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ أي: أمرُه ظاهِرٌ في نَفْسِه...، وهو مع ظُهورِه في نَفْسِه مُظهِرٌ لكُلِّ مَعنًى يُحتاجُ إليه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤١٨).

أي: ولَمَّا جاء القُرآنُ إلى المُشرِكينَ قالوا: هذا سِحرٌ يَسحَرُ محمَّدٌ به النَّاسَ، ولن نُؤمِنَ به(١)!

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن طعنِ المشركين في القرآنِ؛ أتْبَعه الإخبارَ عن طعنِهم فيمَنْ جاء به؛ تغطيةً لأمرِه عمَلًا بإخبارِهم في ختامِ ما قبْلَها عن أنفُسِهم بالكفرِ، زيادةً وإمعانًا فيما كانت النِّعَمُ أدَّتْهُم إليه مِن البَطَرِ(٢).

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ أيضًا اعتِراضًا منهم على إنزالِ القُرآنِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ كان هذا القُرآنُ حَقًّا فلِمَ لمْ يُنزَّلْ على رَجُلٍ مِن وُجَهاءِ وأغنياءِ مَكَّةَ أو الطَّائِفِ(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((اختيار الأَولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٠، ١١١).

قال ابنُ عاشور: (كان الرَّجُلانِ اللَّذانِ عَنَوْهما ذَوَيْ مالٍ؛ لأنَّ سَعةَ المالِ كانت مِن مُقَوِّماتِ وَصفِ السُّؤدُدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

وقال الرَّسْعَني: (وعظيمُ مَكَّةَ: الوَليدُ بنُ المُغيرةِ. في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والأكثَرينَ؛ وعُتبةُ ابنُ رَبيعةَ. في قَولِ مُجاهِدٍ.

وأمَّا عَظيمُ الطَّائِفِ ففيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه حبيبُ بنُ عَمرِو بنِ عُمَيرٍ الثَّقَفيُّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أبو مسعودٍ عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ. قاله قَتادةُ... =

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

أي: هل هؤلاء المُشرِكونَ المُقترِحونَ إنزالَ القُرآنِ على رَجُلٍ عَظيمٍ مِن القَريتَينِ هم مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ وإنزالَ الوَحيِ حيث شاؤُوا، أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختَصُّ بذلك(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: نحن تَوَلَّيْنا قِسمةَ الأرزاقِ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا؛ فيَبسُطُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه وتعالى(٢).

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

أي: ورفَعْنا في الدُّنيا بَعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ؛ فمنهم الغَنيُّ والفَقيرُ،

= الثَّالثُ: أنَّه كِنانةُ بنُ عبدِ عَمرٍو الطَّائفيُّ. قاله السُّدِّيُّ.
الرَّابعُ: أنَّه ابنُ عبدِ ياليلَ. قاله مجاهِدٌ. ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١١).
قال الواحدي: (﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ لم يختلِفوا أنَّها بمعنى النُّبُوَّةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

وغَيرُ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [النحل: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾.

أي: لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بَعضَهم مِن بعضٍ، فكما توَلَّيْنا قَسْمَ مَعايشِهم، وفضَّلْنا بَعضَهم على بَعضٍ، ولم يكُنْ أمرُ الدُّنيا إليهم؛ فكذلك لم يُفَوِّضِ اللهُ تعالى إليهم أمرَ النُّبُوَّةِ؛ فهو وَحْدَه مَن يَصطفي مَن يَشاءُ لرِسالتِه ونُزولِ الوَحيِ عليه؛ فلا وَجهَ لاعتراضِهم[(٢)].

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

أي: ورَحمةُ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُه المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن أموالِها الفانيةِ ومَتاعِها الزَّائلِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان المرادُ هنا الاستِخدامَ دونَ الهُزءِ؛ لأنَّه لا يَليقُ التَّعليلُ به، أجمَع القُرَّاءُ على ضَمِّ هذا الحَرفِ هنا ﴿سُخۡرِيّٗا﴾، أي: أن يَستَعمِلَه فيما يَنوبُه أو يَتعَسَّرُ أو يتعذَّرُ عليه مُباشرتُه، ويأخُذَ للآخَرِ منه مِن المالِ ما هو مُفتَقِرٌ إليه؛ فهذا بمالِه، وهذا بأعمالِه، وقد يكون الفقيرُ أكمَلَ مِن الغَنيِّ؛ لِيَكمُلَ بذلك نظامُ العالَمِ؛ لأنَّه لو تساوت المقاديرُ لتعَطَّلَت المعايشُ؛ فلم يَقدِرْ أحَدٌ أن ينفَكَّ عما جعَلْناه إليه مِن هذا الأمرِ الدَّنيءِ، فكيف يَطمَعونَ في الاعتراضِ في أمرِ النُّبُوَّةِ، أيتَصوَّرُ عاقِلٌ أن نَتوَلَّى قَسْمَ النَّاقِصِ، ونَكِلَ العاليَ إلى غيرِنا؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ تَقريعٌ شَديدٌ، وغِلظةٌ للحاسِدِ ألَّا يَحسُدَ مَن فَضَّلَه اللهُ في المعيشةِ

= (١٦/ ٨٤)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤).

قيل: المرادُ بالرَّحمةِ هنا: النُّبُوَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، والسمعاني، وابن جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٦، ٧٧).

قال ابن رجب: (رَحمتُه بالنُّبُوَّةِ والعِلمِ والإيمانِ خَيرٌ ممَّا يَجمَعونَه من الأموالِ الَّتي تفنى، فهو يَخُصُّ بهذه الرَّحمةِ الدِّينيَّةِ مَن يشاءُ، ويَرفَعُه على أهلِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ). ((اختيار الأَولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) (ص: ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالرَّحمةِ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧).

ونقل ابنُ عطيَّةَ عن قَتادةَ والسُّدِّيِّ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ. ثمَّ قال: (لا شَكَّ أنَّ الجنَّةَ هي الغايةُ، ورحمة اللهِ في الدُّنيا بالهدايةِ والإيمانِ خَيرٌ من كُلِّ مالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

وممَّن جمَع بيْنَ هذه المعاني: الشنقيطي، فقال: (يعني: أنَّ النُّبُوَّةَ والاهتِداءَ بهُدى الأنبياءِ، وما يَنالُه المُهتَدونَ يومَ القيامةِ: خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه النَّاسُ في الدُّنيا من حُطامِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٤).

عليه؛ لأنَّ في حَسَدِه تَسَخُّطَ قضاءِ ربِّه، والازْدِراءَ بِنعمةِ اللهِ عليه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن قَتادةَ قال: (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعيفَ الحِيلةِ، عَيِيَّ اللِّسانِ، وهو مَبسوطٌ له في الرِّزقِ، وتَلْقاه شَديدَ الحِيلةِ، سَليطَ اللِّسانِ، وهو مَقتورٌ عليه! قال اللهُ جلَّ ثناؤُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قَسَم بيْنَهم صُوَرَهم وأخلاقَهم، تبارك رَبُّنا وتعالى)[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تَزهيدٌ في الإكبابِ على طَلَبِ الدُّنيا، وعونٌ على التَّوكُّلِ على اللهِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فيه تحقيرٌ للدُّنيا وما جُمِعَ فيها مِن مَتاعِها[٤]، وإشارةٌ إلى خطورةِ جمعِ الأموالِ؛ وأنَّ ذلك قد يُنسي الآخرةَ -إلَّا مَن رَحِم ربِّي-، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((فواللهِ؛ لا الفقرَ أخشَى عليكم؛ ولكنْ أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ عليكم الدُّنيا، كما بُسِطَتْ على مَن كان قبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهْلِكَكم كما أهلكَتْهم))[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ نِعمةَ اللهِ الدِّينيَّةَ خَيرٌ مِن النِّعمةِ الدُّنيويَّةِ[٦].

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٧).
والحديث أخرجه البخاري (٣١٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٩٦١) من حديث عَمرِو بنِ عَوفٍ المُزَنيِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ذكَّرَ العَرَبَ بحالِ جَدِّهم الأعلَى، ونَهْيِه عن عبادةِ غيرِ اللهِ، وإفرادِه بالتَّوحيدِ والعبادة؛ هزًّا لهم؛ لِيَكونَ لهم رُجوعٌ إلى دينِ جَدِّهم؛ إذ كان أشرَفَ آبائِهم، والمُجمَعَ على محبَّتِه، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُقَلِّدْ أباه في عبادةِ الأصنامِ؛ فينبغي أن تَقتَدوا به في تَركِ تَقليدِ آبائِكم الأقرَبينَ، وتَرجِعوا إلى النَّظَرِ واتِّباعِ الحَقِّ(١)!

٢- في قَولِ إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولم يَقُلْ (إلَّا اللهَ): فائدتانِ:

الأولى: الإشارةُ إلى عِلَّةِ إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لأنَّه كما أنَّه مُنفَرِدٌ بالخَلقِ فيَجِبُ أن يُفرَدَ بالعِبادةِ.

الثَّانيةُ: الإشارةُ إلى بُطلانِ عِبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لم تَفطُرْكم حتَّى تَعبُدوها؛ ففيها تعليلٌ للتَّوحيدِ الجامِعِ بيْنَ النَّفيِ والإثباتِ، وهذه مِن البلاغةِ التَّامَّةِ في تعبيرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ(٢). وأيضًا ففي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَقْرِنَ الحُكمَ بالدَّليلِ؛ لأنَّه أبْلَغُ(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ حكى الله سبحانه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ في آيةٍ أُخرى أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عنه هاهنا أنَّه قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فاجمَعْ بيْنَهما وقَدِّرْ، كأنَّه قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٠).

فهو يَهدينِ وسيَهدينِ؛ فيَدُلَّانِ على استِمرارِ الهدايةِ في الحالِ والاستِقبالِ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أخَذ منه بعضُهم أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ وَحدانيَّةَ اللهِ كانتْ غيرَ مَجهولةٍ للمُشرِكين؛ فيَتَّجِهُ أنَّ الدَّعوةَ إلى العِلْمِ بوُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِه كانتْ بالِغةً لِأكثَرِ الأُمَمِ بما تَناقَلوه مِن أقوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ومِن تِلكَ الأُمَمِ العَرَبُ؛ فيَتَّجِهُ مُؤاخَذةُ المُشرِكين على الإشراكِ قبْلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهُم أهمَلوا النَّظَرَ فيما هو شائِعٌ بيْنَهم، أو تَغافَلوا عنه، أو أعرَضوا؛ فيَكونُ أهلُ الفَترةِ مُؤاخَذينَ على نَبذِ التَّوحيدِ في الدُّنيا، ومُعاقَبينَ عليه في الآخرةِ[(٢)].

٥- قولُه تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ الرَّسولُ المُبينُ: مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُه بـ ﴿مُبِينٌ﴾؛ لأنَّه أوضَحَ الهُدَى، ونَصَب الأدِلَّةَ، وجاء بأفصَحِ كَلامٍ؛ فالإبانةُ راجِعةٌ إلى معانِي دِينِه وألفاظِ كِتابِه، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ اللهَ أراد أنْ يُشَرِّفَ هذا الفَريقَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بالانتِشالِ مِن أوحالِ الشِّركِ والضَّلالِ إلى مَناهِجِ الإيمانِ والإسلامِ، واتِّباعِ أفضَلِ الرُّسُلِ وأفضَلِ الشَّرائِعِ، فيَجبُرُ لأُمَّةٍ مِن عَقِبِ إبراهيمَ ما فَرَّطوا فيه مِن الاقتداءِ بأبيهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥، ١٩٦).

ووقع الخلافُ في أهلِ الفترةِ: هل يَدخُلونَ النَّارَ بكُفرِهم، أو يُعْذَرونَ بالفترةِ، أو يُمتحَنون يومَ القيامةِ؟

قال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ، والمجانينِ، وأهلِ الفَترَاتِ؛ فهؤلاء فيهم أقوالٌ، أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ أنَّهم يُمتحَنونَ يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإنْ عَصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٣-٥٨)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٧).

حتَّى يَكمُلَ لدَعوَته شَرَفُ الاستِجابةِ، والمَقصودُ مِن هذا: زِيادةُ الإمهالِ لهم لَعلَّهم يَتذَكَّرون(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إنَّما جَعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمُفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهنِه(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ تَعظيمَ الأغنياءِ والمُتَرَيِّسينَ بالثَّراءِ قديمٌ في أطباعِ مَن لم يَعْصِمْه اللهُ بالإيمانِ ويُبَصِّرْه رُشدَه، ألَا ترَى المساكينَ كيف ظَنُّوا أنَّ مَن كان عِندَهم عظيمًا رئيسًا أحقُّ بالنُّبُوَّةِ مِن محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؟! فأخبَرَهم اللهُ أنَّ النُّبُوَّةَ رَحمةٌ منه على مَن يُنبيه، ليست هي بأيديهم؛ فيَقسِموها لِمَن أحبُّوا(٣)!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أنَّ القريةَ تُطلَقُ على المدنِ الكبيرةِ -بل على أُمِّ المُدُنِ-، ولقولِه تعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد: ١٣]، فقريتُه الَّتي أخرجَتْه هي مكَّةُ، في عُرْفِنا الآنَ تُطلقُ القريةُ على المدينةِ الصَّغيرةِ، ولكنَّ القرآنَ دلَّ على أنَّ القريةَ تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِن القَرْيِ، وهو الاجتِماعُ(٤).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ هذا مِن كُفْرِيَّاتِ المُشرِكينَ الَّتي حكاها اللهُ تعالى عنهم في هذه السُّورةِ، وهؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٤).

المساكينُ قالوا: مَنصِبُ رسالةِ اللهِ مَنصِبٌ شَريفٌ فلا يليقُ إلَّا برجُلٍ شَريفٍ، وقد صَدَقوا في ذلك إلَّا أنَّهم ضَمُّوا إليه مُقَدِّمةً فاسِدةً: وهي أنَّ الرَّجُلَ الشَّريفَ هو الَّذي يكونُ كثيرَ المالِ والجاهِ، ومحمَّدٌ ليس كذلك، فلا تليقُ رِسالةُ اللهِ به! وإنَّما يَليقُ هذا المَنصِبُ برَجُلٍ عَظيمِ الجاهِ كثيرِ المالِ في إحدى القريتَينِ، وهي مكَّةُ والطَّائِفُ. ثمَّ أبطَلَ اللهُ تعالى هذه الشُّبهةَ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قَولُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وتقريرُ هذا الجَوابِ مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في مَناصِبِ الدُّنيا، ولم يَقدِرْ أحَدٌ مِن الخَلْقِ على تغييرِه؛ فالتَّفاوُتُ الَّذي أوقَعْناه في مناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ بألَّا يَقدِروا على التَّصريفِ فيه كان أَولى.

وثانيها: أن يكونَ المرادُ أنَّ اختِصاصَ ذلك الغَنيِّ بذلك المالِ الكثيرِ إنَّما كان مِن أجْلِ حُكْمِنا وفَضْلِنا وإحسانِنا إليه، فكيف يَليقُ بالعَقلِ أن نجعَلَ إحسانَنا إليه بكَثرةِ المالِ حُجَّةً علينا في أن نُحسِنَ إليه أيضًا بالنُّبُوَّةِ؟

وثالِثُها: أنَّا لَمَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدُّنيا لا لسَبَبٍ سابقٍ، فلِمَ لا يجوزُ أيضًا أن نُوقِعَ التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ لا لسَبَبٍ سابقٍ؟ فهذا تقريرُ الجوابِ.

والوَجهُ الثَّاني في الجوابِ: ما المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؟ وتقريرُه: أنَّ اللهَ تعالى إذا خَصَّ بَعضَ عَبيدِه بنَوعِ فَضْلِه ورَحمتِه في الدِّينِ فهذه الرَّحمةُ خَيرٌ مِن الأموالِ الَّتي يَجمَعُها؛ لأنَّ الدُّنيا على شَرَفِ الانقضاءِ والانقراضِ، وفَضْلَ الله ورَحمتَه تبقَى أبدَ الآبادِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ يدُلُّ على أنَّ تَفاوُتَ النَّاسِ في الأرزاقِ والحُظوظِ سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ السَّماويَّةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، لا يستطيعُ أحَدٌ مِن أهلِ الأرضِ البتَّةَ تبديلَها ولا تحويلَها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا، ولن تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحويلًا. وبذلك تَحقَّقَ أنَّ ما يَتذَرَّعُ به الملاحِدةُ المُنكِرونَ لوُجودِ اللهِ ولجَميعِ النُّبُوَّاتِ والرَّسائلِ السَّماويَّةِ، إلى ابتزازِ ثَرواتِ النَّاسِ، ونَزْعِ مُلْكِهم الخاصِّ عن أملاكِهم؛ بدعوَى المُساواةِ بيْنَ النَّاسِ في مَعايِشِهم: أمرٌ باطِلٌ لا يُمكِنُ بحالٍ مِن الأحوالِ، مع أنَّهم لا يَقصِدونَ ذلك الَّذي يَزعُمونَ، وإنَّما يَقصِدونَ استِئثارَهم بأملاكِ جَميعِ النَّاسِ؛ لِيَتمتَّعوا بها، ويَتصَرَّفوا فيها كيف شاؤوا تحتَ ستارٍ كثيرٍ مِن أنواعِ الكَذِبِ والغُرورِ والخِداعِ، كما يَتحَقَّقُه كُلُّ عاقِلٍ مُطَّلِعٍ على سِيرتِهم وأحوالِهم مع المجتَمَعِ في بلادِهم! فالطُّغمةُ القَليلةُ الحاكِمةُ ومَن يَنضَمُّ إليها هم المتمَتِّعونَ بجَميعِ خَيراتِ البلادِ، وغَيرُهم مِن عامَّةِ الشَّعبِ مَحرومونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، مَظلومونَ في كُلِّ شَيءٍ حتَّى ما كَسَبوه بأيديهم، يُعلَفونَ ببطاقةٍ كما تُعلَفُ البِغالُ والحَميرُ! وقد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعلا في سابِقِ عِلمِه أنَّه يأتي ناسٌ يَغتَصِبونَ أموالَ النَّاسِ بدعوى أنَّ هذا فقيرٌ، وهذا غنيٌّ، وقد نهَى جلَّ وعلا عن اتِّباعِ الهَوى بتلك الدَّعوى، وأوعَدَ مَن لم يَنْتَهِ عن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فيه وَعيدٌ شَديدٌ لِمَن فَعَل ذلك[(١)].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يقتَضي أن تكونَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤، ١١٥).

كُلُّ أقسامِ مَعايِشِهم إنَّما تَحصُلُ بحُكمِ اللهِ وتَقديرِه، وهذا يَقتَضي أن يكونَ الرِّزقُ الحرامُ والحَلالُ كُلُّه مِنَ الله تعالى(١).

١٢- قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ إنَّ اللهَ عزَّ وعلَا هو الَّذي قَسَم بيْنَهم مَعيشَتَهم وقَدَّرَها، ودبَّر أحوالَهُم تَدبيرَ العالِمِ بها، فلم يُسَوِّ بيْنَهم، ولَكِنْ فاوَتَ بيْنَهم في أسبابِ العَيشِ؛ حتَّى يَتعايَشوا ويَترافَدوا ويَصِلوا إلى مَنافِعِهم، ويَحصُلوا على مَرافِقِهم، ولو وَكَلَهم إلى أنفُسِهم ووَلَّاهُم تَدبيرَ أمرِهِم، لَضاعُوا وهَلَكوا، وإذا كانوا في تَدبيرِ المَعيشةِ الدَّنِيَّة في الحَياةِ الدُّنيا على هذه الصِّفَةِ؛ فما ظَنُّكَ بهم في تَدبيرِ أُمورِ الدِّينِ الَّذي هو رَحمةُ اللهِ الكُبرَى، ورَأفَتُه العُظمَى، وهو الطَّريقُ إلى حِيازةِ حُظوظِ الآخِرةِ، والسُّلَّمُ إلى حُلولِ دارِ السَّلامِ(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

قال القرطبي: (خِلافًا للمُعتَزِلةِ في قَولِهم: إنَّ الحرامَ ليس برِزقٍ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ تمَلُّكُه، وإنَّ اللهَ لا يَرزُقُ الحرامَ، وإنَّما يَرزُقُ الحلالَ، والرِّزقُ لا يكونُ إلَّا بمعنى المِلْكِ). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٧٧).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والرِّزقُ يُرادُ به شَيئانِ: أحدُهما ما ينتفِعُ به العبدُ.

والثَّاني: ما يَملِكُه العبدُ. فهذا الثَّاني هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقولِه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، وهذا هو الحلالُ الَّذي مَلَّكه اللهُ إيَّاه. وأمَّا الأوَّلُ: فهو المذكورُ في قَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إنَّ نَفسًا لن تموتَ حتى تَستكمِلَ رِزقَها»، ونحوِ ذلك. والعبدُ قد يأكُلُ الحلالَ والحرامُ فهو رِزقٌ بهذا الاعتبارِ، لا بالاعتِبارِ الثَّاني، وما اكتَسَبه ولم يَنتفِعْ به هو رِزقٌ بالاعتبارِ الثَّاني دونَ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا في الحقيقةِ مالُ وارِثِه لا مالُه. واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ فيه إباحةُ استِخدامِ الحُرِّ برِضاه واستِئجارِه[١]، واستخدامِ العمالِ[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على حِكمةِ الله تعالى في تَفضيلِ اللهِ بَعضَ العِبادِ على بَعضٍ في الدُّنيا: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾، أي: لِيُسَخِّرَ بَعضُهم بعضًا في الأعمالِ والحِرَفِ والصَّنائِعِ، فلو تساوى النَّاسُ في الغِنى، ولم يَحتَجْ بَعضُهم إلى بعضٍ؛ لَتعَطَّلَت كَثيرٌ مِن مَصالِحِهم ومَنافِعِهم[٣]؛ فإنَّ كُلَّ صِناعةٍ دُنيويَّةٍ يُحسِنُها قَومٌ دونَ آخَرينَ، فجُعِل البَعضُ مُحتاجًا إلى البَعضِ؛ لِتَحصُلَ المواساةُ بيْنَهم في مَتاعِ الدُّنيا، ويحتاجَ هذا إلى هذا، ويَصنَعَ هذا لهذا، ويُعطيَ هذا هذا؛ فتَتِمَّ بذلك مَصالِحُهم، ويَنتَظِمَ مَعاشُهم، ويَصِلَ كُلُّ واحدٍ منهم إلى مَطلوبِه[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ فيه إثباتُ التَّعليلِ والحكمةِ لأفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ ابتَدَأَ بذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وقَومِه إبطالًا لقَولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ بأنَّ أَولى آبائِهم بأنْ يَقتَدوا به هو

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٥).

أبوهُم الَّذي يَفتَخِرون بنِسبَتِه؛ إبراهيمُ عليه السلامُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ...﴾ (إذ) ظَرفٌ مُتَعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، تَقديرُه: واذكُرْ إذ قال إبراهيمُ، والمعنى: واذكُرْ زمانَ قَولِ إبراهيمَ لأبيهِ وقَومِه قَولًا صَريحًا في التَّبَرُّؤِ من عِبادةِ الأصنامِ[(٢)].

- وخُصَّ أبو إبراهيمَ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكْرِ قَومِه -وما هو إلَّا واحِدٌ منهم- اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لأنَّ بَراءةَ إبراهيمَ مِمَّا يَعبُدُ أبوه أدَلُّ على تَجَنُّبِ عِبادةِ الأصنامِ؛ بحيثُ لا يَتسامَحُ فيها، ولو كان الَّذي يَعبُدُها أقرَبَ النَّاسِ إلى مُوَحِّدِ اللهِ بالعِبادةِ مِثلَ الأبِ، ولِتَكُونَ حكايةُ كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قُدوَةً لإبطالِ قَولِ المُشرِكينَ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[(٣)] [الزخرف: ٢٢].

- وقولُه: ﴿بَرَآءٌ﴾ مَصدرٌ نُعِتَ به مُبالَغةً[(٤)]. أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، و(بَريءٌ) اسمُ فاعلٍ، والصِّفةُ المُشبَّهةُ أعظَمُ؛ لأنَّها تدُلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ[(٥)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾

- الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استِثناءٌ مِن (ما تَعبُدون)، و(ما) مَوصولةٌ، أي: مِن الَّذين تَعبدونَهُم؛ فإنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانوا مُشرِكين مِثلَ مُشرِكي العَرَبِ. وفَرَّع على هذا قَولَه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يَتضَمَّن معنى: إنَّني اهتَدَيتُ إلى بُطلانِ عِبادَتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٥).

الأصنامَ بهَديٍ مِن اللهِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]؛ فأفاد بالآيةِ المُقتَرِنةِ بالسِّينِ: هِدايَتَه في الاستِقبالِ، بعْدَ أنْ أفاد بقَولِه المَحكِيِّ في (الشُّعراءِ) الهِدايةَ في الحالِ[٢].

- وتَوكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ أبيهِ وقَومِه؛ لأنَّهم يُنكِرون أنَّه الآنَ على هُدًى، فهُم يُنكِرون أنَّه سيَكونُ على هُدًى في المستقبَلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أشْعَرَ حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في) بأنَّ هاتِه الكَلِمةَ -وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ- لم تَنقَطِعْ بيْن عَقِبِ إبراهيمَ دُونَ أنْ تَعُمَّ العَقِبَ[٤].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَعليلٌ لجَعْلِ الكَلِمةِ باقِيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ ليَدعُوَ المُوَحِّدُ المُشرِكَ نَسلًا بعْدَ نَسلٍ إلى المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ رَجاءَ أنْ يَرجِعَ إليها مَنْ أشرَكَ منهم بدُعاءِ المُوَحِّدِ[٥].

- وحَرفُ (لَعَلَّ) لإنشاءِ الرَّجاءِ، والرَّجاءُ هنا رَجاءُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ؛ فتَعَيَّنَ أنْ يُقَدَّرَ مَعنَى قَولٍ صادرٍ مِن إبراهيمَ بإنشاءِ رَجائِه، بأنْ يُقَدَّرَ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

ويُنظر ما تقدم في الفوائد العلمية واللطائف (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥).

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أو: قائلًا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ إضرابٌ عن قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وهو إضْرابُ إبطالٍ، أي: لم يَحصُلْ ما رَجاهُ إبراهيمُ مِن رُجوعِ بَعضِ عَقِبِه إلى الكَلِمةِ الَّتي أوصاهُم برَعيِها؛ فإنَّ أقدَمَ أُمَّةٍ مِن عَقِبِه لم يَرجِعوا إلى كَلِمَتِه، وهؤلاء هُمُ العَرَبُ الَّذين أشْرَكوا وعَبَدوا الأصنامَ. وبَعْدَ (بَلْ) كلامٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه الإبطالُ وما بعْدَ الإبطالِ، وتَقديرُ المَحذوفِ: بلْ لَمْ يَرجِعْ هؤلاء وآباؤُهم الأوَّلون إلى التَّوحيدِ، ولم يَتَبَرَّؤُوا مِن عِبادةِ الأصنامِ، ولا أخَذوا بوِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا لسائِلٍ يَسألُ عمَّا عامَلَهم اللهُ به جَزاءً على تَفريطِهم في وِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهلَّا استَأصَلَهم؟ فأُجيبَ: بأنَّ اللهَ مَتَّعَهم بالبَقاءِ إلى أنْ يَجيئَهم رَسولٌ بالحَقِّ، وذلك لِحِكمةٍ عَلِمها اللهُ يَرتَبِطُ بها وُجودُ العَرَبِ زَمنًا طويلًا بدُونِ رَسولٍ، وتأخُّرُ مَجيءِ الرَّسولِ إلى الإبَّانِ الَّذي ظَهَر فيه، وبهذا الاستِئنافُ حَصَل التَّخَلُّصُ إلى ما بَدَا مِن المُشرِكين بعْدَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن فَظيعِ تَوَغُّلِهم في الإعراضِ عن التَّوحيدِ الَّذي كان عليه أبوهُم[٣].

- وفي مَجيءِ الإضرابِ بقَولِه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ...﴾ الآيةَ، وجَعْلِ الغايةِ للتَّمَتُّعِ مَجيءَ الحَقِّ: نُكتَةٌ بَديعةٌ؛ لأنَّه ليس المَقصودُ مِن الإضرابِ ردَّ الكَلامِ السَّابِقِ، ولكنَّ المَقصودَ هو التَّأكيدُ والاستِمرارُ؛ لِيُبيِّنَ أنَّهم شُغِلوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦، ١٩٧).

عمَّا جاءَهم مِن الحقِّ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْنَ مَجيءِ الحَقِّ والتَّمتِيع، والمَعنَى: أنَّهم شُغِلوا عن شُكرِ المُنعِمِ؛ فإنَّهم بَدلًا مِن أنْ يَنصاعُوا إلى الحقِّ، ويأخُذوا بأسبابِه، ويَعكُفوا عليه؛ جاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها[1].

- قَولُه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ المُرادُ بآبائِهم: آباؤُهم الَّذين سَنُّوا عِبادةَ الأصنامِ، مِثلُ عَمرِو بنِ لُحَيٍّ والَّذين عَبَدوها مِن بَعدِه، وتَمتيعُ آبائِهم تَمهيدٌ لتَمتيعِ هؤلاءِ؛ ولذلك كانت غايةُ التَّمتيعِ مَجيءَ الرَّسولِ؛ فإنَّ مَجيئَه لهؤلاءِ، والتَّمتيعُ هنا التَّمتيعُ بالإمهالِ وعَدَمِ الاستِئصالِ، كما تدُلُّ عليه الغايةُ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾، والمُرادُ بالحَقِّ هنا القُرآنُ، وهذه الآيةُ ثَناءٌ راجِعٌ على القُرآنِ مُتَّصِلٌ بالثَّناءِ عليه الَّذي افتُتِحَت به السُّورَةُ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَعجُّبٌ مِن حالِ تَغافُلِهم، أي: قد كان لهم بَعضُ العُذرِ قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والقُرآنِ؛ لأنَّ لِلغَفَلاتِ المُتَقادِمةِ غِشاوَةً تُصَيِّرُ الغَفلةَ جَهالةً؛ فكان الشَّأنُ أنْ يَستَيقِظوا لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ، فيَتَذَكَّروا كَلِمةَ أبيهِم إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولَكِنَّهم لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ قالوا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، أي: قالوا للرَّسولِ: هذا ساحِرٌ، فازْدادوا رَيْنًا على رَيْنٍ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ، لا في إفادةِ صُدورِ هذا القولِ منهم؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ لهم وللمُسلِمينَ[3].

- وجَعَل مَجيءَ الحَقِّ والرَّسولِ غايةَ التَّمتيعِ، ثمَّ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، والمَرادُ التَّنبيهُ على غَفلَتِهم، فقال: بلِ اشتَغَلوا عن

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٨).

التَّوحيدِ حتَّى جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ؛ فخَيَّلَ بهذه الغايةِ أنَّهم تَنبَّهوا عندَها عن غَفلَتِهم؛ لاقتِضائِها التَّنَبُّهَ، ثمَّ ابتَدَأَ قِصَّتَهم عندَ مَجيءِ الحقِّ فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ جاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها: وهو أنْ ضَمُّوا إلى شِركِهم مُعانَدَةَ الحَقِّ، ومُكابَرَةَ الرَّسولِ، ومُعاداتَه، والاستِخفافَ بكتابِ اللهِ وشَرائِعِه، والإصرارَ على أفعالِ الكَفَرةِ، والاحتِكامَ على حِكمةِ اللهِ في تَخَيُّرِ مُحمَّدٍ مِن أهلِ زَمانِه، ثمَّ قالوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾، وهي الغايَةُ في تَشويهِ صُورَةِ أمرِهِم[1].

- وفي تَعقيبِ الغايةِ بهذا الكَلامِ إيذانٌ بأنَّ تَمتيعَهم أصبَحَ على وَشْكِ الانتِهاءِ؛ فجُملَةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مَعطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الزخرف: ٢٩]؛ فإنَّ (لَمَّا) تَوقيتِيَّةٌ؛ فهي في قُوَّةِ (حتَّى) الغائِيَّةِ؛ كأنَّه قيلَ: مَتَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ عَقِبَ ذلك التَّمتيعِ، لم يَستَفيقُوا مِن غَفلَتِهم، وقالوا: هذا سِحرٌ، أي: كانوا قبلَ مَجيءِ الحقِّ مُشرِكين عن غَفلَةٍ وتَساهُلٍ، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ صاروا مُشرِكين عن عِنادٍ ومُكابَرةٍ[2].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مَقولٌ ثانٍ، أي: قالوا: هذا سِحرٌ فلا نَلتَفتُ إليه، وقالوا: إنَّا به -أي: بالقُرآنِ- كافِرون، أي: سواءٌ كان سِحرًا أم غيرَه، أي: فَرَضوا أنَّه سِحرٌ، ثمَّ ارتَقَوا فقالوا: إنَّا به كافِرون، أي: كافِرون بأنَّه مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كان سِحرًا، أم شِعرًا، أمْ أساطيرَ الأوَّلينَ، ولهذا المَعنَى أكَّدوا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ ليُؤْيِسوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهِم به[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ عَطفٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على جُملةِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ﴾ [الزخرف: ٣٠]؛ فهو في حيِّزِ جوابِ (لَمَّا) [الزخرف: ٣٠] التَّوقيتيَّةِ، واقعٌ مَوقعَ التَّعجيبِ أيضًا، أي: بعْدَ أنْ أخذوا يَتعَلَّلون بالعِلَلِ لإنكارِ الحقِّ؛ إذ قالوا للقُرآنِ: هذا سِحرٌ، وإذ كان قَولُهم ذلك يَقْتضي أنَّ الَّذي جاء بالقُرآنِ ساحِرٌ؛ انتَقَل إلى ذِكْرِ طَعنٍ آخَرَ منهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه لم يَكُنْ مِن عُظَماءِ أهلِ القَريَتَينِ[1].

- و(لولا) أصْلُه حَرفُ تَحضيضٍ، استُعْمِلَ هنا في معنى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لأنَّ التَّحضيضَ على تَحصيلِ ما هو مَقطوعٌ بانتفاءِ حُصولِه يَستلزِمُ الجزْمَ بانتفائِه[2].

- ويَحتمِلُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المَحكيَّ عنهم في القُرآنِ، ولم يُسَمُّوا شَخصَينِ مُعَيَّنَينِ، ويَحتمِلُ أنَّهم سَمَّوا شَخصَينِ ووَصَفوهُما بهَذَينِ الوَصفَينِ، واقتَصَر القُرآنُ على ذِكْرِ هَذَينِ الوَصفَينِ أنَّه رَجلٌ وعَظيمٌ؛ إيجازًا، مع التَّنبيهِ على ما كانوا يُؤَهِّلون به الاختِيارَ للرِّسالةِ؛ تَحميقًا لرَأيِهم[3].

- وقَولُهم: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ذِكرٌ له على وَجهِ الاستِهانةِ به؛ لأنَّهم لم يقولوا هذه المقالةَ تسليمًا، بل إنكارًا[4].

- وتعريفُ ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ في قولِهم: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ للعَهدِ، جَعَلوا عِمادَ التَّأهُّلِ لسِيادةِ الأقوامِ أمْرَينِ: عَظَمةَ المُسَوَّد، وعَظَمةَ قَريَتِه؛ فهمْ لا يَدينون إلَّا مَن هو مِن أشهَرِ القَبائِلِ في أشهَرِ القُرَى؛ لأنَّ القُرى هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٨).

مَأوَى شُؤونِ القَبائِلِ وتَموينِهِم وتِجارَتِهم[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إنكارٌ عليهم قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنهم لَمَّا نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ مَن يَتَخَيَّرُ أصنافَ النَّاسِ للرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقد جَعَلوا لأنفُسِهم ذلك لا لِلَّهِ؛ فكان مِن مُقتَضى قَولِهم أنَّ الاصطِفاءَ للرِّسالةِ بيَدِهم؛ فلذلك قُدِّم ضَميرُ (هُم) المجعولُ مُسنَدًا إليه، على مُسنَدٍ فِعليٍّ؛ ليُفِيدَ معنَى الاختِصاصِ؛ فسَلَّط الإنكارَ على هذا الحَصرِ إبطالًا لقَولِهم، وتَخطِئَةً لهم في تَحَكُّمِهم، ولَمَّا كان الاصطِفاءُ للرِّسالةِ رَحمةً لِمَن يُصطَفَى لها، ورَحمةً للنَّاسِ المُرسَلِ إليهم؛ جَعَل تَحكُّمَهم في ذلك قِسمَةً منهم لِرَحمةِ اللهِ باختِيارِهم مَن يُختارُ لها، وتَعيينِ المُتأهِّلِ لإبلاغِها إلى المَرحُومينَ[2].

- وفي قَولِه: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وُجِّهَ الخِطابُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأُضِيفَ لَفظُ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِه؛ إيماءً إلى أنَّ اللهَ مُؤَيِّدُه تَأنيسًا له؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] قَصَدوا منه الاستِخفافَ به؛ فرَفَع اللهُ شَأنَه بإبلاغِ الإنكارِ عليهم؛ بالإقبالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١).

عليه بالخِطابِ، وبإظهارِ أنَّ اللهَ رَبُّه، أي: مُتَوَلِّي أمرِه وتَدبيرِه[(١)].

- قَولُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ...﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والنَّفيِ المُستفادِ منه، واستِدلالٌ عليه، أي: لَمَّا قَسَمْنا بيْنَ النَّاسِ مَعيشتَهم، فكانوا مُسَيَّرينَ في أمُورِهم على نَحوِ ما هَيَّأْنا لهم مِن نِظامِ الحَياةِ، وكان تَدبيرُ ذلك للهِ تعالى ببالِغِ حِكمَتِه، فسَخَّر بَعضَهم لبَعضٍ في أشغالِهم على حِسابِ دَواعِي حاجةِ الحَياةِ؛ فإذا كانوا بهذه المَثابةِ في تَدبيرِ المَعيشةِ الدُّنيا؛ فكذلك الحالُ في إقامةِ بَعضِهم دُونَ بَعضٍ للتَّبليغِ؛ فإنَّ ذلك أعظَمُ شُؤونِ البَشَرِ؛ فهذا وَجهُ الاستِدلالِ[(٢)].

- وجُملَةُ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَذييلٌ للرَّدِّ عليهم، وفي هذا التَّذييلِ ردٌّ ثانٍ عليهم بأنَّ المالَ الَّذي جَعَلوه عِمادَ الاصطفاءِ للرِّسالةِ، هو أقَلُّ مِن رَحمةِ اللهِ؛ فهي خَيرٌ ممَّا يَجمَعون مِن المالِ الَّذي جَعَلوه سَببَ التَّفضيلِ حينَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ المالَ شَيءٌ جَمَعه صاحبُه لِنَفْسِه، فلا يكونُ مِثلَ اصطفاءِ اللهِ العبْدَ لِيُرْسِلَه إلى النَّاسِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٣-٣٥)

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَعَارِجَ﴾: أي: مَراقيَ وسَلالِمَ، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[١].

﴿يَظْهَرُونَ﴾: أي: يَعْلُونَ ويَصعَدونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٢].

﴿وَزُخْرُفًا﴾: أي: ذَهَبًا، أو: الزُّخرفُ: الزِّينةُ، قيل: أصلُ معنى الزُّخرفِ: الذَّهبُ، ولَمَّا كان حَسنًا في الأعيُنِ قيل لكلِّ زينةٍ: زخرفةٌ، ثم جعلوا كلَّ مُزيَّنٍ: مزخْرفًا، وقيل: أصلُ الزُّخرفِ: الزِّينةُ المُزَوَّقةُ، ومنه قيل للذَّهبِ: زُخرفٌ؛ لِكَونِ كمالِ الزِّينةِ بالذَّهبِ[٣].

﴿مَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتِفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥١) و (١٣/ ٨٠).

(متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قَولُه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ به لِفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: وجعَلْنا لهم زُخرُفًا، ويكونُ مِن قَبيلِ عَطفِ الجُمَلِ. الثَّاني: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾ مِن قَبيلِ عَطفِ المُفرداتِ. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محلِّ ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، كأنَّه قيل: سُقُفًا مِن فِضَّةٍ وزُخرُفٍ، يعني: بَعضُها مِن فِضَّةٍ وبَعضُها مِن ذَهَبٍ، فنصب عَطفًا على المحَلِّ. وقيلَ: هو منصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ عَطفًا على ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ -أي: ذَهَبٍ.

قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَإِن﴾ الواوُ: حرفُ استِئنافٍ. إنْ: نافيةٌ. ﴿كُلُّ﴾ مُبتدأٌ مرفوعٌ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُضافٌ إليه في محَلِّ جَرٍّ. ﴿لَمَّا﴾ حرفُ حَصرٍ بمعنى «إلَّا». ﴿مَتَٰعُ﴾ خَبَرُ المبتدأِ ﴿كُلُّ﴾. والجُملةُ الاسميَّةُ كلُّها مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محقِّرًا الدُّنيا، مبيِّنًا هوانَها عليه: ولولا أن يَصيرَ النَّاسُ كُلُّهم كُفَّارًا إذا رأَوا ما أُوتِيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ في الأرزاقِ، لَجَعَلَ اللهُ لأولئك الكُفَّارِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ، ومَصاعِدَ يَصعَدونَ ويرتَفِعونَ بها، ولجَعَلَ لِبُيوتِهم أبوابًا، وأسِرَّةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٨٤).

يتَّكِئُونَ عليها، وجعَلْنا معَ ذلك لهم ذَهَبًا، وما كُلُّ ذلك إلَّا مَتاعٌ وعَرَضٌ زائِلٌ، ونَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- للمُتَّقين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقَرَّر أنَّ من خُلُقِهم تَعظيمَ المالِ وأهلِ الثَّراءِ، وحِسبانَهم ذلك أصلَ الفَضائِلِ، ولم يَهتَمُّوا بزَكاءِ النُّفوسِ، وكان اللهُ قد أبطَلَ جَعْلَهم المالَ سَبَبَ الفَضلِ بإبطَالَينِ؛ بقَولِه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقَولِه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أعقَبَ ذلك بتَعريفِهم أنَّ المالَ والغِنى لا حَظَّ لهما عِندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ أعطى كلَّ شَيءٍ خَلْقَه، وجعَلَ للأشياءِ حَقائِقَها ومَقاديرَها، فكثيرًا ما يكونُ المالُ للكافرينَ ومَن لا خَلاقَ لهم من الخَيرِ؛ فتعيَّنَ أنَّ المالَ قِسمةٌ من اللهِ على النَّاسِ، جعَلَ له أسبابًا نظَمَها في سِلكِ النُّظُمِ الاجتماعيَّةِ، وجعَلَ لها آثارًا مُناسِبةً لها، وشتَّانَ بَيْنَها وبَينَ مَواهبِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ، والسَّرائرِ الطَّيِّبةِ، ويَحصُلُ مِن هذا التَّحقيرِ للدُّنيا وللمالِ إبطالٌ ثالِثٌ لِمَا أَسَّسوا عليه قَولَهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[1] [الزخرف: ٣١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ حَقارةَ الدُّنيا، وعَظَّم شأنَ الآخرةِ، في قَولِه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أَتْبَعَ ذلك ببَيانِ شِدَّةِ حَقارتِها، وأنَّه جعَلَها مُشتَرَكةً بيْنَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ، وجَعَل ما في الآخِرةِ من النَّعيمِ خاصًّا بالمؤمِنينَ دونَ الكافِرينَ، وبَيَّن حِكمَتَه في اشتِراكِ المؤمِنِ مع الكافِرِ في نَعيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

الدُّنيا، بقَولِه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لولا كراهَتُنا لِكَونِ جميعِ النَّاسِ أمَّةً واحِدةً مُتَّفِقةً على الكُفرِ لَأعطَيْنا زَخارِفَ الدُّنيا كُلَّها للكُفَّارِ[(١)].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

أي: ولولا كراهَتُنا أن يَرغَبَ النَّاسُ في الكُفرِ إذا رأَوْا ما أُوتيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ وقُدرةٍ، فيَصيروا كُلُّهم كُفَّارًا؛ لَجَعَل اللهُ للَّذين يَكفُرونَ به بُيُوتًا ذاتَ سُقُفٍ مِن فِضَّةٍ[(٢)].

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

أي: ومَصاعِدَ ومَراقيَ يَرتَفِعونَ بها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٨).

قال ابن جرير: (السُّقوف جمْعُ سَقْفٍ، ثمَّ تُجمعُ السُّقوفُ سُقُفًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٩).

وقال ابن عطية: (معنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى أبقَى على عَبيدِه، وأنعَمَ بمُراعاةِ بَقاءِ الخَيرِ والإيمانِ، وشاء حِفْظَه على طائِفةٍ منهم بقيَّةَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٨).

قال الرازي: (هي المصاعِدُ إلى المساكِنِ العاليةِ، كالدَّرَجِ والسَّلالمِ، عليها يَظهَرونَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

قيل: هذه المعارِجُ مِن فِضَّةٍ أيضًا كما أنَّ السُّقُفَ مِن فِضَّةٍ. وممَّن قال بهذا: السمعاني، والزمخشري، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥). =

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾.

أي: ولَجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا(١).

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾.

أي: ولَجَعَل لهم أَسِرَّةً يتَّكِئُونَ عليها(٢).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠).
قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي: يَصعَدونَ ويَرتَفِعونَ حتَّى يَصيروا على ظُهورِ البُيوتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).
قيل: الأبوابُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
وقال ابن عثيمين: (هذا ليس بُمتعيِّنٍ، بل نقولُ: أبوابًا فَخمةً ليست كالمعتادِ، سواءٌ مِن فِضَّةٍ، أو مِن حديدٍ، أو مِن خَشَبٍ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).
قيل: السُّرُرُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زمنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
قال أبو حيَّان: (هذه الأسماءُ مَعاطيفُ على قَولِه: ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، فلا يتعَيَّنُ أن تُوصَفَ =

﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥ ﴾.

﴿ وَزُخۡرُفٗا ﴾.

أي: وذَهَبًا[1]؛ فلولا يَعتَقِدُ النَّاسُ أنَّهم يَنالُونَ ذلك بالكُفرِ، فيَكفُرونَ جَميعًا؛

= المعاطيفُ بكَونِها مِن فِضَّةٍ. وقال الزمخشري: سقوفًا ومَصاعِدَ وأبوابًا وسُرُرًا كُلُّها مِن فِضَّةٍ. انتهى، كأنَّه يرى اشتراكَ المعاطيفَ في وَصفِ ما عُطِفَت عليه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (ودلَّ على هدوءِ بالِهم، وصفاءِ أوقاتِهم وأحوالِهم بقولِه: ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (وفائدةُ وصْفِها بجُملة ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ الإشارةُ إلى أنَّهم يُعطَونَ هذه البَهرجةَ مع استِعمالِها في دَعَةِ العَيشِ، والخُلُوِّ عن التَّعبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

قال الماوردي: (﴿ وَزُخۡرُفٗا ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه الذَّهَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ... الثَّاني: الفُرُشُ ومتاعُ البَيتِ. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّالثُ: أنَّه النُّقوشُ. قاله الحَسَنُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّه هاهنا الذَّهبُ، إلَّا زيدَ بنَ أسلَمَ فإنَّه قال: هو مَتاعُ البَيتِ. والزُّخرُفُ في اللُّغةِ: الزِّينةُ وكَمالُ الشَّيءِ فيها، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾ [يونس: ٢٤]، أي: كَمالَها وتَمامَها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ: الذَّهَبُ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزخرف)) (ص: ١٤٢).

قال الواحدي: (﴿ وَزُخۡرُفٗا ﴾ كلُّهم قالوا: إنَّه الذَّهبُ. والمعنى: ونجعلُ لهم معَ ذلك ذهبًا وغِنًى). ((الوسيط)) (٤/ ٧١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّخرفِ: الزِّينةُ: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٢). =

رغبةً منهم في الدُّنيا، لَجعَلَه اللهُ تعالى للكافِرينَ به[(١)].

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

= وقال القاسمي: (زخرفًا: أي: زينةً مِن ذهَبٍ وجواهرَ فوقَ الفضَّةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: المرادُ بـقولِه: ﴿وَزُخۡرُفٗا﴾: أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً: البِقاعي، والشربيني، وجوَّز ابنُ عاشور استعمالَه في هذَين المعنيَينِ استعمالَ المشترَكِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

وقال ابن جرير: (في نَصبِ الزُّخرُفِ وَجهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ معناه: لَجَعَلْنا لِمَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ، فلمَّا لم يُكرِّرْ عليه «مِنْ» نُصِبَ على إعمالِ الفِعلِ فيه ذلك، والمعنى فيه فكأنَّه قيل: وزُخرُفًا يُجعَلُ ذلك لهم منه.

والوجهُ الثاني: أن يكونَ مَعطوفًا على السُّرُرِ، فيَكونَ معناه: لَجعَلْنا لهم هذه الأشياءَ مِن فِضَّةٍ، وجعَلْنا لهم مع ذلك ذَهَبًا يكونُ لهم غِنًى يَستغنُونَ بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٣، ٥٩٤).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّل، وأنَّ المعنى: لجعَلْنا هذا كلَّه مِن فضَّةٍ وذهبٍ: السمرقندي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١).

وممَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال الواحدي: (معنى الآيةِ: لولا أن تميلَ الدُّنيا بالنَّاسِ فيَصيرَ الخَلقُ كُفَّارًا، لَأعطى اللهُ الكافرَ في الدُّنيا غايةَ ما يَتمنَّى فيها؛ لِقِلَّتِها عندَه، ولكنَّه عزَّ وجَلَّ لم يفعَلْ ذلك؛ لعِلْمِه بأنَّ الغالِبَ على الخَلقِ حُبُّ العاجِلةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٧١، ٧٢).

أي: وما كُلُّ تلك الأشياءِ المذكورةِ إلَّا عَرَضٌ دُنيويٌّ زائلٌ لا يَبقَى(١).

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ))(٢).

﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وأمَّا نَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- فهو خاصٌّ بالَّذين امتَثَلوا ما أمرَ اللهُ به مِن التَّوحيدِ والطَّاعاتِ، واجتَنَبوا ما نهَى عنه مِنَ الشِّركِ والسَّيِّئاتِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٩).

قال ابنُ عثيمين: (لأنَّ الدُّنيا مهما طالتْ بالإنسانِ فلا بُدَّ مِن الزَّوالِ؛ إمَّا أن تَزولَ الدُّنيا عنه، وإمَّا أن يَزولَ هو عن الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٧).

الدُّنيا لا تُساوي عِندَ الله تعالى شَيئًا، وأنَّه لولا لُطفُه ورحمتُه بعِبادِه الَّتي لا يُقَدِّمُ عليها شيئًا، لَوَسَّع الدُّنيا على الَّذين كَفَروا توسيعًا عَظيمًا[(١)]، فالآيةُ تضَمَّنَت تَهوينَ أمرِ الدُّنيا[(٢)]، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدة: أنْ لا يَتعلَّقَ الإنسانُ بها؛ وأن لا يَهتمَّ بها؛ فليس له مِن الدُّنيا إلَّا ما أكَل فأفْنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو تصدَّق فأمضَى[(٣)]. ودلَّت الآيةُ على أنَّ كُلَّ هذه المذكوراتِ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا، مُنغَّصةٌ مُكَدَّرةٌ فانيةٌ، وأنَّ الآخِرةَ عندَ اللهِ تعالى خَيرٌ للمُتَّقينَ لِرَبِّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ لأنَّ نَعيمَها تامٌّ كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ، وهم فيها خالِدونَ؛ فما أشَدَّ الفَرقَ بيْنَ الدَّارَينِ[(٤)]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه تحريضٌ على التَّقْوى[(٥)]؛ وذلك لأنَّ ذِكْرَ الجزاءِ والثَّوابِ يَستثيرُ النَّفْسَ حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى الوصفِ الَّذي يَحصُلُ به على الثَّوابِ[(٦)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ...﴾، فيه سؤالٌ: لَمَّا بيَّن تعالى أنَّه لو فتَح على الكافرِ أبوابَ النِّعَمِ، لَصار ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الكفرِ، فلِمَ لَمْ يَفعلْ ذلك بالمسلمينَ؛ حتَّى يصيرَ ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الإسلامِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٦).

الجوابُ: لأنَّ النَّاسَ -على هذا التَّقديرِ- كانوا يَجتمِعون على الإسلامِ لِطَلَبِ الدُّنيا، وهذا الإيمانُ إيمانُ المنافقينَ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه تعالى يمنَعُ العِبادَ بَعضَ أُمورِ الدُّنيا مَنعًا عامًّا أو خاصًّا؛ لِمَصالِحِهم(٢)، ففي إغناءِ البَعضِ وإحواجِ البَعضِ مَصلحةُ العالَمِ، وإلَّا لَبَسَط على الكافِرِ الرِّزقَ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منَعَ أسبابَ تَعميمِ الكُفرِ في الأرضِ؛ لُطفًا منه بالإيمانِ وأهلِه، وإن كان لم يمنَعْ وُقوعَ كُفرٍ جُزئيٍّ قَليلٍ أو كثيرٍ؛ حِفظًا منه تعالى لِناموسِ تَرتيبِ المُسَبَّباتِ على أسبابِها(٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ لأنَّ الإنسانَ يَستَمتِعُ به قليلًا، ثمَّ يَنقَضي في الحالِ، وأمَّا الآخِرةُ فهي باقيةٌ دائِمةٌ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لحَقارةِ مَتاعِ الدُّنيا، ودَناءَةِ قَدْرِه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٦). وقيل: هذه الجُملةُ عَطفٌ على جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١] [الزخرف: ٣٢].

- قوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ مِثلُ اللَّامِ في قَولِه: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: لَجَعَلْنا لبُيوتِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ مِمَّن يَكفُرُ بالرَّحمنِ، وإنَّما صَرَّح بتَكريرِ العامِلِ للتَّوكيدِ، ونُكتةُ هذا الإبدالِ تَعليقُ المَجرورِ ابتِداءً بفِعلِ الجَعلِ، ثمَّ الاهتِمامُ بذِكْرِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمَنِ في هذا المَقامِ المَقصودِ منه قَرْنُه مع مَظاهِرِ الغِنَى في قَرَنِ التَّحقيرِ، ثمَّ يَذكُرُ ما يَعِزُّ وُجودُ أمثالِه مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ. وإذ قد كان الخَبرُ كُلُّه مُستَغرَبًا، كان حَقيقًا بأنْ يُنظَمَ في أُسلوبِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المُرادُ أنَّ المَعارِجَ والأبوابَ والسُّرُرَ مِن فِضَّةٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فحُذِفَ الوَصْفُ مِن المَعطوفاتِ؛ لِدَلالةِ ما وُصِف المَعطوفُ عليه[٣].

- وتكَرَّرَ لَفظُ البُيوتِ في قولِه: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ هو كنايةٌ عن كَثرةِ الإرفاهِ[٥].

- قولُه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرُفُ: الزِّينةُ، فيَكونُ هنا عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).

جَمعًا لعَديدِ المَحاسِنِ، ويُطلَقُ على الذَّهَبِ؛ لأنَّ الذَّهَبَ يُتزَيَّنُ به؛ فيَكونُ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾ بتأويلِ: لَجَعَلْنا لهم ذَهَبًا، أي: لَكانَت سُقُفُهم ومَعارِجُهُم وأبوابُهُم مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ مُنَوَّعةً؛ لأنَّ ذلك أَبْهَجُ في تَلوينِها، وابتُدِئَ بالفِضَّةِ؛ لأنَّها أكثَرُ في التَّحلياتِ، وأجمَلُ في اللَّونِ، وأُخِّرَ الذَّهَبُ؛ لأنَّه أندَرُ في الحُليِّ، ولأنَّ لَفظَه أسعَدُ بالوَقفِ؛ لِكَونِ آخِرِه تَنوينًا يَنقَلِبُ في الوَقفِ أَلِفًا، فيُناسِبُ امتِدادَ الصَّوتِ، وهو أفصَحُ في الوَقفِ. ويجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ (زُخْرُفًا) مُستعمَلًا في مَعْنيَيه -الزِّينةِ والذَّهبِ- استِعمالَ المشترَكِ، فلا يَرِدُ سُؤالٌ عن تَخصيصِ السُّقُفِ والمَعارِجِ بالفِضَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: كلُّ ما ذُكِر مِن السُّقُفِ والمَعارِجِ، والأبوابِ والسُّرُرِ مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ؛ مَتاعُ الدُّنيا لا يَعودُ على مَن أُعطِيَه بالسَّعادةِ الأبَدِيَّةِ، وأمَّا السَّعادةُ الأبَديَّةُ فقد ادَّخَرها اللهُ للمُتَّقينَ، وليستْ كمِثلِ البهارِجِ والزِّينةِ الزَّائدةِ الَّتي تُصادِفُ مُختلِفَ النُّفوسِ، وتَكثُرُ لأهلِ النُّفوسِ الضَّئيلةِ الخسيسةِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٧).

الآيات (٣٦-٣٩)

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْشُ﴾: أي: يَعْمَ ويُعْرِضْ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[١].

﴿نُقَيِّضْ﴾: أي: نُهَيِّئْ ونُسَبِّبْ، يُقالُ: قَيَّضَ اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[٢].

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ مُلازِمٌ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿فَبِئْسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مُستوفيةٌ لجميعِه[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

﴿يَنفَعَكُمُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ، والكافُ: في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فاعِلُ (ينفع) مُؤَخَّرٌ، والتَّقديرُ: لن يَنفَعَكم اليومَ اشتِراكُكم في العذابِ. أو الفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ يعودُ على التَّمَنِّي المدلولِ عليه بقَولِه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[الزخرف: ٣٨]، أي: لن يَنفَعَكم تَمنِّيكم البُعدَ، وعلى هذا الوَجهِ يكونُ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ على نَزعِ الخافِضِ (لامِ العِلَّة)، أي: لن يَنفعَكم تَمنِّيكم البُعدَ؛ لاشتِراكِكم في العَذابِ، والجارُّ والمجرورُ مُتعَلِّقانِ بـ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ويُقَوِّي إضمارَ الفاعِلِ قِراءةُ مَن قرأ: (إِنَّكُمْ) بالكَسرِ[(١)]؛ فهي استِئنافٌ مُفيدٌ للتَّعليلِ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظَرفُ زمانٍ مَنصوبٌ مُتعَلِّقٌ بـ(يَنفَع).

﴿إِذ﴾: ظرفٌ مَبنيٌّ على السُّكونِ في محلِّ نَصبٍ على البَدلِ مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: إذْ تبيَّنَ أنَّكم ظلَمْتُم في الدُّنيا، وفُسِّر ذلك بالتَّبيُّنِ لئَلَّا يُشكِلَ جَعلُ ﴿إِذ﴾ -وهو ظَرفٌ ماضٍ- بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وهو ظَرفٌ مُستقبَلٌ؛ لأنَّ تبيُّنَ كَونِهم ظالِمينَ عندَ أنفُسِهم إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، فاليومُ وزَمانُ التَّبيُّنِ مُتَّحِدانِ، وإذا كان تَبَيُّنُ الحالِ في الاستِقبالِ اندفَعَ الإشكالُ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿إِذ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالنَّظَرِ إلى أنَّ الدُّنيا والآخِرةَ مُتَّصِلَتانِ، وهما في حُكمِ اللهِ تعالى وعِلمِه سواءٌ. وقيل: ﴿إِذ﴾ هنا ليست ظَرفًا، بل هي حَرفٌ للتَّعليلِ كاللَّامِ[(٢)].

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ في روايةِ التَّغْلبيِّ عن ابنِ ذَكْوانَ، وقرأ الباقون وابنُ عامرٍ في روايةِ الأخفَشِ، وأحمدَ بنِ أنسٍ، وابنِ المُعَلَّى، وابنِ موسى الصُّوري عن ابنِ ذَكْوانَ بفَتحِها. يُنظر: ((جامع البيان في القراءات السبع)) لأبي عمرو الداني (٤/ ١٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٢)، ((الخصائص)) لابن جني (٢/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حالَ الَّذينَ يُعرِضونَ عن ذِكرِه وعقوبتَهم: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا يَصيرُ قَرينًا له لا يُفارِقُه، وإنَّ أولئك الشَّياطينَ لَيَمنعونَهم مِن الطَّريقِ الموصِلِ إلى اللهِ، ويَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ أنَّهم مُهتَدونَ وعلى الحَقِّ! حتَّى إذا جاءنا هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ رَبِّه قال لِقَرينِه مِن الشَّياطينِ: يا لَيْتَ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت! فيُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ في هذا اليَومِ اشتِراكُكم فيه؛ مِن أجْلِ ظُلمِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تتَّصِلُ بقَولِه تعالى أوَّلَ السُّورة: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ [الزخرف: ٥]، أي: نُواصِلُ لكم الذِّكرَ، فمَن يَعْشُ عن ذلك الذِّكرِ بالإعراضِ عنه إلى أقاويلِ المُضِلِّينَ وأباطيلِهم، ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، أي: نُسَبِّبْ له شَيطانًا؛ جزاءً له على كُفْرِه[1].

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا؛ جزاءَ إعراضِه عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).=

= وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بذِكرِ الرَّحمنِ هنا: القُرآنُ: الواحدي، وابن القيِّم، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦١).

قال ابن تيميَّة: (و﴿يَعْشُ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: «يَعمَى»، وكذلك قال عَطاءٌ وابنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ، وكذلك أبو عُبَيدةَ، قال: «تُظلِمْ عينُه»، واختاره ابنُ قُتَيْبةَ ورجَّحه على قولِ مَن قال: «يُعْرِض». والعَشا: ضَعفٌ في البَصَرِ؛ ولهذا قيل فيه: يَعْشُ. وقالت طائفةٌ: يُعْرِضْ، وهو روايةُ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وقاله قَتادةُ، واختاره الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ، وهذا صَحيحٌ مِن جهةِ المعنى؛ فإنَّ قوله: ﴿يَعْشُ﴾ ضُمِّنَ معنى «يُعْرِض»؛ ولهذا عُدِّيَ بحرف الجرِّ «عن»، كما يقالُ: أنت أعمى عن محاسِنِ فلانٍ: إذا أعرَضْتَ فلم تَنظُرْ إليها. فقَولُه: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يكُنْ أعشى عنها، وهو دونَ العمى، فلم ينظُرْ إليها إلَّا نظَرًا ضَعيفًا، وهذا حالُ أهلِ الضَّلالِ الَّذين لم يَنتَفِعوا بالقرآنِ؛ فإنَّهم لا يَنظُرونَ فيه كما يَنظُرونَ في كلامِ سَلَفِهم؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّه لا يُحصِّلُ المقصودَ، وهم الَّذين عَشَوا عنه فقُيِّضَت لهم الشَّياطينُ تَقترِنُ بهم وتصُدُّهم عن السَّبيلِ، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدون؛ ولهذا لا تجِدُ في كلامِ مَن لم يتَّبِعِ الكتابَ والسُّنَّةَ بيانَ الحَقِّ عِلمًا وعَمَلًا أبدًا؛ لِكَثرةِ ما في كلامِه مِن وَساوِسِ الشَّياطينِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٥/ ٤٣٢، ٤٣٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧، ٣٩٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَمَن يَعْشُ﴾: مَن يَنظُرْ نظَرًا غيرَ مُتمَكِّنٍ في القُرآنِ، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ، دونَ تدَبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمعانيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وقال القاسمي: (﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ جنيًّا؛ فيغويه بالتَّسويلِ والتَّزيينِ لما انهَمَك فيه مِن اللَّذاتِ، وحرَص عليه مِن الزَّخارفِ. أو: بالشُّبهِ والأباطيلِ المغويةِ لما اعتَكف عليه بهواه مِن دينِه. أو إنسيًّا يغويه ويشاركُه في أمرِه ويجانِسُه في طريقِه ويُبعِدُه عن الحقِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الإنسانُ إذا أعرَض عن ذكرِ الله قيَّض الله له الشَّيطانَ مِن الإنسِ أو مِن الجنِّ فهو له قرينٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

أي: فيَصيرُ الشَّيطانُ قرينًا له لا يُفارِقُه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وإنَّ الشَّياطينَ لَيَمنَعونَهم مِن طَريقِ الحَقِّ الموصِلِ إلى اللهِ تعالى وإلى جنَّتِه، ويَصرِفونَهم عنه(٢).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤).

قال ابن المُنَيِّر: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدٌ إلى الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠).

وقال الألوسي: (وفي كَونِ ضَميرِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدًا على الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا نَظَرٌ؛ فقد قال أبو حيَّان: الظَّاهِرُ أنَّ ضَميرَ النَّصبِ في ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائِدٌ على «مَنْ» على المعنى، وهو أَولى مِن عودِ ضَميرِ «إنَّهم» على الشَّيطانِ كما ذهب إليه ابنُ عطيَّةَ؛ لِتَناسُقِ الضَّمائِرِ في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وما بَعدَه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٣). =

أي: ومع ذلك يَحسَبُ قُرناءُ الشَّيطانِ هؤلاء أنَّهم على الحَقِّ والصَّوابِ[(١)]!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

أي: حتَّى إذا جاءَنا يومَ القيامةِ هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ، قال لِقَرينِه الشَّيطانِ: وَدِدتُ أنَّ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قال الشوكاني: (﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: يَحْسَبُ الكفَّارُ أنَّ الشَّياطينَ مُهْتَدونَ فيُطِيعونَهم، أوْ يَحْسَبُ الكفَّارُ بسببِ تلك الوَسْوسةِ أنَّهم في أنْفُسِهم مُهْتَدونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥١- ١٥٣).

قال الألوسي: (﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أي: في الدُّنيا، وقيل: في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

قال الماوَرْدي: (وفي المَشرِقَينِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه المَشرِقُ والمَغرِبُ، فغُلِّبَ أحَدُهما على الآخَرِ، كما قيل: سُنَّةُ العُمَرَينِ [أي: أبي بكرٍ وعُمَرَ رضيَ الله عنهما]... الثَّاني: أنَّه مَشرِقُ الشِّتاءِ ومَشرِقُ الصَّيفِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٦).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّاني: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾.

أي: فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت -أيُّها الشَّيطانُ[١]!

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾.

أي: يُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العذابَ في هذا اليَومِ -بسببِ ظُلمِكم[٢]- اشتِراكُكُم في هذا العذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) مِن المفسِّرينَ مَن فسَّر الظُّلْمَ بالشِّركِ؛ ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: إذ أشرَكْتُم. ومنهم: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير الجلالين)) (٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥).

المَقولُ لهم هم الكُفَّارُ الَّذين عَشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ موَجَّهٌ لِلَّذين عشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ ولِشياطينِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ التَّحذيرُ من الغَفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك إذا غَفَلْتَ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى حَلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللهِ وَساوِسُ الشَّيطانِ[١]. فترتيبُه قولَه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ على قولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ ترتيبَ الجزاءِ على الشَّرطِ يدُلُّ على أنَّ سببَ تقييضِه له هو غفلتُه عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[٢]، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: مَشدودٌ به كما يُشَدُّ الأسيرُ، مُلازِمٌ له، فلا يُمكِنُه التَّخلُّصُ منه ما دام مُتعاميًا عن ذِكرِ اللهِ؛ فذِكرُ اللهِ حِصنٌ حَصينٌ مِن الشَّيطانِ، متى خرَجَ العبدُ منه أسَرَه العدُوُّ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أنَّ كلَّ مَن أعرَضَ عن عُبوديَّةِ اللهِ تعالى وطاعتِه ومحبَّتِه، بُلِيَ بعُبوديَّةِ المخلوقِ ومَحبَّتِه وخِدمَتِه[٤].

= وقال الشوكاني: (قال المفَسِّرون: لا يُخفَّفُ عنهم -بسَبَبِ الاشتراكِ- شَيءٌ من العذابِ؛ لأنَّ لكُلِّ أحدٍ مِن الكُفَّارِ والشَّياطينِ الحَظَّ الأوفَرَ منه. وقيل: إنَّها للتَّعليلِ لِنَفيِ النَّفعِ، أي: لأنَّ حَقَّكم أن تَشترِكوا أنتم وقُرَناؤكم في العذابِ، كما كُنتُم مُشترِكينَ في سَبَبِه في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

وقال السعدي: (ولا يَنفَعُكم يومَ القيامةِ اشتراكُكم في العذابِ أنتم وقُرَناؤُكم وأخِلَّاؤُكم؛ وذلك لأنَّكم اشتركتُم في الظُّلمِ، فاشترَكتُم في عِقابِه وعَذابِه، ولن يَنفَعَكم أيضًا رُوحُ التَّسَلِّي في المُصيبةِ؛ فإنَّ المصيبةَ إذا وقَعت في الدُّنيا، واشترَكَ فيها المُعاقَبونَ؛ هان عليهم بعضَ الهَونِ، وتسَلَّى بعضُهم ببَعضٍ، وأمَّا مُصيبةُ الآخرةِ فإنَّها جَمَعَت كلَّ عِقابٍ، ما فيه أدنى راحةٍ، حتَّى ولا هذه الرَّاحةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾، المقصودُ مِن حِكايةِ هذا: تَفظيعُ عواقِبِ هذه المُقارَنةِ الَّتي كانت شغَفَ المُتقارِنَيْنِ، وكذلك شأنُ كُلِّ مُقارَنةٍ على عَمَلٍ سَيِّئِ العاقبةِ. وهذا مِن قَبيلِ قولِه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، والمقصودُ تحذيرُ النَّاسِ مِن قَرينِ السُّوءِ، وذَمُّ الشَّياطينِ؛ لِيَعافَهم النَّاسُ[(١)]. فالشياطينُ ليس اسمًا خاصًّا لشياطينِ الجِنِّ! بل حتَّى الإنسُ لهم شياطينُ، فالَّذي يُلازِمُك ويَبقَى قَرينًا معك هو أشدُّ تأثيرًا مِن العابِرِ، فيَنبغي الحذَرُ مِن قُرَناءِ السوءِ، والبُعدُ عنهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّ النَّكِرةَ الواقِعةَ في سِياقِ الشَّرطِ تُفيدُ العُمومَ؛ ولذلك أعادَ عليه الضَّميرَ مَجموعًا في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُعاقِبُ العبدَ بما يَقتضيه الذَّنْبُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ فلَمَّا أَخْلَى قلبَه مِن ذِكْرِ اللهِ عُوقِبَ بأنْ يَحُلَّ مَحَلَّه الشَّيطانُ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث قَيَّضَ اللهُ -سُبحانَه- الشَّيطانَ للعاشِي عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، وصَيَّره قرينَه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ مَنِ ابتلاه اللهُ بقَرينِه مِن الشَّياطينِ وضَلالِه به فإنَّما كان بسَبَبِ إعراضِه وعَشْوِه عن ذِكرِه الَّذي أنزَلَه على رَسولِه؛ فكان عُقوبةُ هذا الإعراضِ أنْ قَيَّضَ له شَيطانًا يُقارِنُه فيَصُدُّه عن سَبيلِ ربِّه وطريقِ فلاحِه، وهو يَحسَبُ أنَّه مُهتَدٍ! حتَّى إذا وافى ربَّه يومَ القيامةِ مع قرينِه، وعايَنَ هلاكَه وإفلاسَه ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، وكلُّ مَن أعرَضَ عنِ الاهتداءِ بالوحيِ الَّذي هو ذِكْرُ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يقولَ هذا يومَ القيامةِ. فإنْ قيلَ: فهل لهذا عُذرٌ في ضَلالِه إذا كان يَحسَبُ أنَّه على هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟ قيل: لا عُذرَ لهذا وأمثالِه مِن الضُّلَّالِ الَّذين مَنشَأُ ضَلالِهم الإعراضُ عن الوَحيِ الَّذي جاء به الرَّسولُ، ولو ظَنَّ أنَّه مُهتَدٍ؛ فإنَّه مُفَرِّطٌ بإعراضِه عن اتِّباعِ داعي الهُدى، فإذا ضَلَّ فإنَّما أُتيَ مِن تَفريطِه وإعراضِه، وهذا بخِلافِ مَن كان ضلالُه لعَدَمِ بُلوغِ الرِّسالةِ، وعَجزِه عن الوُصولِ إليها، فذاك له حُكمٌ آخرُ، والوَعيدُ في القرآنِ إنَّما يَتناولُ الأوَّلَ، وأمَّا الثَّاني فإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] [الإسراء: ١٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَقولُ: إنَّه ليس أحَدٌ يُفارِقُ الحَقَّ إلَّا وهو يَعلَمُ أنَّه ضالٌّ، وإن كَفَر

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤).

فعلى وَجهِ العِنادِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَزعُمُ أنَّ المعارِفَ اضطِراريَّةٌ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ لَمَّا كان المُصابُ إذا شارَكَه غَيرُه في مُصيبةٍ حَصَل له بالتَّأسِّي نَوعُ تَخفيفٍ وتَسليةٍ، أخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّ هذا غيرُ مَوجودٍ وغيرُ حاصِلٍ في حَقِّ المُشترِكينَ في العَذابِ، وأنَّ القَرينَ لا يَجِدُ راحةً ولا أدنى فَرَحٍ بعَذابِ قَرينِه معه، وإن كانت المصائِبُ في الدُّنيا إذا عَمَّت صارت مَسلاةً، كما قالت الخَنساءُ في أخيها صَخرٍ:

ولولا كَثرةُ الباكينَ حَوْلي ... على إخوانِهم لقَتَلْتُ نفسي
وما يَبكُونَ مِثلَ أخي ولكِنْ ... أُعَزِّي النَّفسَ عنه بالتأسِّي[٣]

فمنَع اللهُ سُبحانَه هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ على أهلِ النَّارِ، فقال: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[٤].

٨- إذا قُرِنَ أحَدُهم بمن أضَلَّه في العذابِ كان أشَدَّ لعَذابِه؛ فإنَّ المكانَ المُتَّسِعَ يَضيقُ على المُتباغِضينِ، فكيف باقترانِهما في المكانِ الضَّيِّقِ[٥]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((ديوان الخنساء)) (ص: ٦٨)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

- ابتُدِئَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ووَصفِه بأنَّه ذِكرٌ وبيَانٌ للنَّاسِ، ووَصْفِ عِنادِ المُشرِكين في الصَّدِّ عنه والإعراضِ، وأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ تَذكيرَهم ومُحاجَّتَهم؛ لأنَّ اللهَ يَدعو بالحَقِّ ويَعِدُ به، وأُطنِبَ في وَصفِ تناقُضِ عَقائِدِهم؛ لَعَلَّهُم يَستيقِظون مِن غِشاوَتِهم، وفي تَنبيهِهم إلى دَلائِلِ حَقِّيَّة ما يَدعُوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا القُرآنِ، وفُضِحَتْ شُبُهاتُهم بأنَّهم لا تَعويلَ لهم إلَّا على ما كان عليه آباؤُهم الأوَّلون الضَّالُّون، وأُنذِرُوا باقترابِ انتِهاءِ تَمتيعِهم وإمهالِهم، وتَقَضَّى ذلك بمَزيدِ البَيانِ، وأفضَى الكَلامُ إلى ما قالُوه في القُرآنِ ومَن جاء به بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ إلى قولِه: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١]، وما أُلحِقَ به مِن التَّكَمُّلاتِ -عاد الكَلامُ هنا إلى عَواقِبِ صَرفِهم عُقولَهم عن التَّدبُّرِ في الدَّعوةِ القُرآنيَّة؛ فكان انصِرافُهم سببًا لِأَنْ يُسَخِّرَ اللهُ شَياطينَ لهم تُلازِمُهم؛ فلا تَزالُ تَصرِفُهم عن النَّظرِ في الحقِّ وأدِلَّةِ الرُّشدِ؛ فجُملةُ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ [الزخرف: ٣٠] الآيةَ[١]. وقيل: هي كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسُوقٌ لسَردِ مآلِ المُعرِضين عن ذِكْرِ اللهِ[٢].

- وجُملَةُ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَمثيلٌ لحالِهم في إظهارِهم عَدَمَ فَهمِ القُرآنِ بحالِ مَن يَعشُو ويَعمَى عن الشَّيءِ الظَّاهِرِ للبَصَرِ؛ فمعنى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ دُونَ تَدبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمَعانيه؛ فشَبَّهَ سَماعَ القُرآنِ مع عَدَمِ الانتِفاعِ به بنَظَرِ النَّاظِرِ دُونَ تَأَمُّلٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧، ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٨، ٢٠٩).

- وعُدِّيَ ﴿يَعْشُ﴾ بحَرفِ (عن) المُفيدِ للمُجاوَزةِ؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعنَى الإعراضِ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[١].

- قَولُه: ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إضافةُ الذِّكْرِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إضافةُ تَشريفٍ؛ وهذا ثَناءٌ على القُرآنِ[٢]. وفي إضافَتِه إلى اسمِ الرَّحمنِ أيضًا إيذانٌ بنُزولِه رَحمةً للعالَمينَ[٣].

- وأتَى الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ مُفرَدًا؛ لأنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِمَّن تَحقَّقَ فيهم الشَّرطُ شَيطانًا، وليس لجَميعِهم شَيطانٌ واحِدٌ؛ ولذلك سَيجيءُ في قَولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [الزخرف: ٣٨] بالإفرادِ، أي: قال كلُّ مَن له قَرينٌ لقَرينِه[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتَعَلَّقُ فِعلِ ﴿نُقَيِّضْ﴾ اكتِفاءً بدَلالةِ مَفعولِه، وهو ﴿شَيْطَٰنًا﴾؛ فعُلِمَ منه أنَّه مُقيَّضٌ لإضلالِه، أي: هم أعرَضوا عن القُرآنِ لِوَسْوَسةِ الشَّيطانِ لهم[٥].

- وفُرِّعَ عن ﴿نُقَيِّضْ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ لأنَّ التَّقْييضَ كان مِن أجْلِ مُقارَنَتِه. وجِيءَ بالجُملةِ المُفرَّعةِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على الدَّوامِ، أي: فكان قَرينًا مُقارَنةً ثابِتةً دائمةً؛ ولذلك لم يَقُل: نُقَيِّضْ له شَيطانًا قَرينًا له[٦].

- وقُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ (له) على مُتَعَلَّقِه (قرين) في قَولِه: ﴿لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للاهتِمامِ بضَميرِ (مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)، أي: قَرينٌ له مُقارَنةً تامَّةً[١].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتَكَلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّه؛ مِن أجْلِ نُكتَةٍ في المَذكورِ تُرَجِّحُ مَجيئَه على سِواهُ؛ فإنَّ لقائلٍ أن يَقولَ: لأيِّ نُكتةٍ عُدِلَ عن لَفظِ (يُعرِض) إلى (يَعْشُ)؛ فلم يَقُلْ: ومَن يُعرِضْ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ؛ فيُقالُ: النُّكتةُ في ذلك: أنَّ لَفظَ (يَعْشُ) مُوَفٍّ بالمَعنَى المُرادِ بخِلافِ لفظِ (يُعرِض)؛ فإنَّ الإعراضَ إعراضانِ: إعراضٌ يُرجَى بَعْدَه الإقبالُ؛ لأنَّ المُعرِضَ مُتَمَكِّنٌ مِن الإقبالِ؛ وذلك إعراضُ المُؤمِنِ المُعتقِدِ أحسَنَ مُعتَقَدٍ؛ فيَعرِضُ له مِن المَلاذِّ الَّتي تَستَغرِقُ فِكرَه، وتَشغَلُ قَلبَه وعَقلَه شَغْلًا بتلك اللَّذَّةِ أو ضِدِّها، أو غَيرِها مِن أُمورِ الدُّنيا؛ فيُعرِضُ عن الذِّكرِ في تلك الحالةِ؛ فمُصاحَبةُ الشَّيطانِ لذلك غَيرُ دائِمةٍ؛ لأنَّه يُمكِنُ أنْ يَؤُوبَ إلى اللهِ سُبحانَه ويَتُوبَ عن ذلك؛ فيُقبِلَ على ما كان أعرَضَ عنه مِن الذِّكرِ الَّذي عَرَف قديمًا طَريقَه، واهتَدَى إلى سَبيلِه، ورُبِّيَ عليه، أو مِن أجْلِ عِنايةٍ إلهيَّةٍ اقتَضَتْها سابِقةٌ أزَليَّةٌ تَجذِبُه إليه. وإعراضُ ضَلالٍ عن طَريقِ الرُّشدِ وسَبيلِ الخَيرِ، والمُرادُ بالإعراضِ في الآيةِ إعراضُ الضَّلالِ لا إعراضُ الغَفلةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّه حَسُنَ التَّعبيرُ بالعَشا فيها، وهذا المُعرِضُ هو الَّذي يُقَيَّضُ له مُقارَنةُ الشَّيطانِ أين كان وحيثُ كان؛ وبذلك يَتَبَيَّنُ مَوضِعُ النُّكتةِ الَّتي رَجَّحَت العُدولَ عن لَفظِ (الإعراض) إلى لَفظِ (العَشا)[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٧).

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فيه جَمْعُ الضَّميرِ العائِدِ على (مَنْ) وضَميرِ (الشَّيطانِ) في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؛ لأنَّ (مَنْ) مُبهَمٌ في جِنسِ العاشِي، وقد قُيِّضَ له شَيطانٌ مُبهَمٌ في جِنسِه؛ فلمَّا جازَ أنْ يَتناوَلَا -لإبهامِهِما- غيرَ واحِدَين، جاز أنْ يَرجِعَ الضَّميرُ إليهما مَجموعًا(١).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ في الأفعالِ الأربَعةِ: ﴿يَعْشُ﴾ و﴿نُقَيِّضْ﴾ و(يَصُدُّونَهُمْ) و﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ والتَّجديدِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

- إفرادُ الضَّميرِ في (جاءَ) وما بعدَه؛ لِمَا أنَّ المُرادَ حِكايةُ مَقالةِ كُلِّ واحِدٍ واحِدٍ مِن العاشِينَ لِقَرينِه؛ لِتَهويلِ الأمْرِ، وتَفظيعِ الحالِ، والمَعنَى: يَستَمِرُّ العاشُون على ما ذُكِرَ مِن مُقارَنةِ الشَّياطينِ والصَّدِّ والحِسبانِ الباطلِ، حتَّى إذا جاءَنا كلُّ واحدٍ منهُم مع قَرينِه يومَ القيامةِ ﴿قَالَ﴾ مُخاطبًا له: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾(٣).

- قولُه: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ حَرفُ (يا) أصلُه للنِّداءِ، وهو هنا للدَّلالةِ على التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ(٤).

- والمَشرِقانِ: المَشرِقُ والمَغرِبُ، غُلِّبَ اسمُ المَشرِقِ؛ لأنَّه أكثَرُ خُطورًا بالأذهانِ؛ لتَشَوُّفِ النُّفوسِ إلى إشراقِ الشَّمسِ بعْدَ الإظلامِ، والمُرادُ بالمشْرِقِ والمغرِبِ: إمَّا مكانُ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها في الأُفقِ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

الجِهةُ مِن الأرضِ الَّتي تَبْدو الشَّمسُ منها عِندَ شُروقِها، وتَغيبُ منها عِندَ غُروبِها فيما يَلوحُ لِطائفةٍ مِن سُكَّانِ الأرضِ. وعلى الاحتِمالَينِ فهو مَثَلٌ لشِدَّةِ البُعدِ. وأُضِيفَ ﴿بُعْدَ﴾ إلى ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بالتَّثنيةِ، بتَقديرِ بُعدٍ لهما، أي: مُختصٍّ بهما، بتَأويلِ البُعدِ بالتَّباعُدِ؛ وهو إيجازٌ بَديعٌ حَصَل مِن صِيغةِ التَّغليبِ ومِن الإضافةِ، ومُساواتُه أنْ يُقالَ: بُعْدَ المَشرقِ مِن المَغرِبِ، والمَغرِبِ مِن المَشرِقِ؛ فنابَتْ كَلِمةُ ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ عن سِتِّ كَلِماتٍ[١].

- قَولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ بعدَ أنْ تَمَنَّى الكافِرُ مُفارَقةَ شَيطانِه فَرَّع عليه ذمًّا؛ فالكافِرُ يَذُمُّ شَيطانَه الَّذي كان قَرينًا، ويُعَرِّضُ بذلك للتَّفَصِّي -أي: للإفلاتِ- مِن المُؤاخَذةِ، وإلقاءِ التَّبِعةِ على الشَّيطانِ الَّذي أضَلَّه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ مُبالَغةٌ منه في ذمِّ قَرينِه؛ إذ كان سَبَبَ إيرادِهِ النَّارَ. والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، أي: فِبئسَ القَرينُ أنتَ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لِبَسطِ وحِكايةِ ما سيُقالُ لهم حِينَئذٍ في الآخِرةِ مِن جِهةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ تَوبيخًا وتَقريعًا، وهي مَقالةٌ مُوحِشةٌ حَرَمَتْهم رَوحَ التَّأَسِّي؛ لأنَّه وَقَفَهم بها على أنَّه لا يَنفَعُهم التَّأَسِّي؛ لِعِظَمِ المُصيبةِ، وطُولِ العَذابِ، واستِمرارِ مُدَّتِه؛ إذ التَّأَسِّي راحةُ كلِّ مُصابٍ في الدُّنيا في الأغلَبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٥).

- وقيل: هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، وهناك قولٌ محذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨] الدَّالُّ على أنَّ الفَريقَينِ حَضَرا للحِسابِ، وتلك الحَضرةُ تُؤْذِنُ بالمُقاوَلةِ؛ فإنَّ الفَريقَينِ لَمَّا حَضَرَا وتَبَرَّأَ أحَدُهما مِن الآخَرِ قَصْدًا للتَّفَصِّي- أي: للإفْلَاتِ- مِن المُؤاخَذةِ؛ فيَقولُ اللهُ: ولن يَنفَعَكُم اليَومَ أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكون، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للَّذين عَشَوْا عن ذِكْرِ الرَّحمنِ ولشَياطِينِهم -على قولٍ-، وفي هذا الكَلامِ إشارةٌ إلى كَلامٍ مَطوِيٍّ، والتَّقديرُ: لا تُلْقُوا التَّبِعةَ على القُرَناءِ؛ فأنتُم مُؤاخَذون بطاعَتِهم، وهم مُؤاخَذون بإضلالِكم، وأنتم مُشتَرِكون في العَذابِ، ولن يَنفَعَكُم أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكُون؛ لأنَّ عَذابَ فَريقٍ لا يُخَفِّفُ عن فَريقٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٨].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على نَفيِ أنْ يَكونَ الاشتِراكُ في العَذابِ نافِعًا بحالٍ؛ لأنَّه لا يُخَفِّفُ عن الشَّريكِ مِن عَذابِه[2].

- وقيل: قَولُه: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تَعليلٌ لنَفيِ النَّفعِ، أي: لنْ يَنفَعَكُم تَمَنِّيكُم؛ لأنَّ حَقَّكُم أنْ تَشتَرِكوا أنتم وقُرَناؤُكُم في العَذابِ كما كُنتُم مُشتَرِكين في سَبَبِه، وهو الكُفرُ، وتُقَوِّيه قِراءَةُ: (إنَّكُمْ) بالكَسرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٣).

- قَولُه: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، قدَّم ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ اهتمامًا بالزَّجرِ به، والتَّخويفِ منه[(١)].

- واجتَمَع في هذه الآيةِ ثَلاثُ كَلِماتٍ، تدُلُّ على ثَلاثةِ أزمِنَةٍ؛ وهي: (لن) لنَفيِ المُستَقبَلِ، و(اليَومَ) اسمٌ لزَمنِ الحالِ، و(إذ) اسمٌ لزَمَنِ المُضِيِّ، وثَلاثَتُها مَنوطةٌ بفِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ومُقتضياتُها يُنافي بَعضُها بعضًا؛ فالنَّفيُ في المُستقبَلِ يُنافي التَّقييدَ بـ (اليَوم) الَّذي هو للحالِ، و(إذ) يُنافي نَفْيَ النَّفعِ في المُستقبَلِ، ويُنافي التَّقييدَ بـ(اليوم)، ويُدفَعُ التَّنافيَ بيْنَ مُقتَضَى (إذ) ومُقتَضَى (اليَوم) بتَأويلِ مَعنى (إذ) بالتَّعليلِ؛ شُبِّهَت عِلَّةُ الشَّيءِ وسَببُه بالظَّرفِ في اللُّزومِ له. ويجوزُ أنْ تكونَ (إذ) بَدلًا من (اليوم)، وتأْويلُ الكلامِ على جَعلِ فِعلِ ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾، بمعنى: تَبيَّنَ أنَّكم ظَلَمْتُم. ولِدَفعِ التَّنافي بيْنَ مُقتَضى (اليَومِ) الدَّالِّ على زَمَنِ الحالِ وبيْنَ مُقتَضَى (لن) وهو حُصولُ النَّفيِ في الاستِقبالِ: أنْ يَكونَ اليَومُ ظَرفًا للحُكمِ والإخبارِ، أي: تَقَرَّر اليَومَ انتِفاءُ انتِفاعِكُم بالاشتِراكِ في العَذابِ انتِفاءً مُؤبَّدًا مِنَ الآنَ، وقد حَصَل مِن اجتِماعِ هذه الكَلماتِ الثَّلاثِ الدَّالَّةِ على الأزمنةِ في الآيَةِ طِباقٌ[(٢)] عَزيزٌ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِكِ والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقون. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَين بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو =

ثَلاثةِ مَعانٍ مُتَضادَّةٍ في الجُملةِ(١).



= اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القَتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٥، ٢١٦).

الآيات (٤٠-٤٥)

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ
بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾
وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يوجِّهُ الله تعالى الخِطابَ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مُسَلِّيًا له ومثبِّتًا؛ فيقولُ تعالى: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تَستطيعُ أن تُسمِعَ الكُفَّارَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به منك، أو تَستَطيعُ أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن عَمِيَ عنه، وضَلَّ ضَلالًا مُبينًا؟! إنَّما ذلك إلينا، فعليك البَلاغُ، وعلينا الحِسابُ. فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ أولئك المُشرِكينَ -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترى عَذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم، وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم؛ فتمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك؛ إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ.

وإنَّ هذا القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك، وعِظَةٌ وتَذكيرٌ لكم، وسوف يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ والعَمَلِ بما فيه.

ثمَّ يقولُ تعالى: واسأَلْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك، أجَعَلْنا آلهةً مِن دُونِ الرَّحمنِ سُبحانَه يُعبَدونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بالعَشَا، وصَفَهم في هذه الآيةِ بالصَّمَمِ والعَمى(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ وما يُقالُ لهم، وكانت قُرَيشٌ تَسمَعُ ذلك فلا تَزدادُ إلَّا عُتُوًّا واعتِراضًا، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتَهِدُ في تحصيلِ الإيمانِ لهم- خاطَبَه تعالى تَسليةً له باستِفهامِ تَعجيبٍ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، عُمْيٌ حَيارَى فلا يُمكِنُك أن تَهدِيَهم، وإنَّما ذلك راجِعٌ إليه تعالى(٢).

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾.

أي: لا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تجعَلَ الكُفَّارَ يَنتَفِعونَ بالسَّماعِ منك؛ فليس ذلك إليك(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

أي: ولا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن أعمَى اللهُ قَلْبَه عن رُؤيةِ هذا الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: ولا تَستطيعُ أن تَهديَ مَن هو في ضَلالٍ ظاهِرٍ عن طَريقِ الهُدى[(٢)].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ دعوةَ نبيِّه لا تؤثِّرُ في قلوبِهم؛ قال[(٣)]:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١﴾.

أي: فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِك -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترَى عذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم بعدَ فِراقِك لا مَحالةَ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قيل: المرادُ بالإذهابِ هنا: تَوَفِّيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العَذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم، فلن يُعجِزونا، أو يُفلِتوا مِنَّا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

= سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

وممَّن قال بهذا المعنى مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٩).

وقيل: المرادُ به: إخراجُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بيْنِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١).

وقال البِقاعي: (﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: مِن بيْنِ أظهُرِهم، بمَوتٍ أو غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨، ٢١٩).

قال القرطبي: (﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتِك، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قد أراه الله ذلك يومَ بدرٍ، وهو قولُ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّنا مُنتَقِمونَ منهم في الدُّنيا، سواءٌ كنتَ حَيًّا أو بعدَ مَوتِك، أي: فالانتِقامُ منهم مِن شأنِنا وليس مِن شأنِك؛ لأنَّه مِن أجْلِ إعراضِهم عن أمْرِنا ودينِنا، ولعَلَّه لِدَفعِ استِبطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو المُسلِمينَ تأخيرَ الانتقامِ مِن المشركينَ، ولأنَّ المُشرِكينَ كانوا يَتربَّصون بالنَّبيِّ الموتَ فيَستريحوا مِن دَعوتِه؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه لا يُفلِتُهم مِن الانتِقامِ على تقديرِ مَوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا رَدَّد اللهُ تعالى بيْنَ حياتِه ومَوتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أمَرَه بأن يَستَمسِكَ بما أَوحاه إليه[(١)].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُوجِبُ التَّسليةَ؛ أمَرَه أن يَتمَسَّكَ بما أمَرَه به[(٢)].

وأيضًا لَمَّا هَوَّن اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُلاقيه مِن شِدَّةِ الحِرصِ على إيمانِهم، ووَعَدَه النَّصرَ عليهم؛ فَرَّع على ذلك أنْ أمَرَه بالثَّباتِ على دينِه وكِتابِه، وألَّا يَخورَ عَزمُه في الدَّعوةِ؛ ضَجَرًا مِن تصَلُّبِهم في كُفرِهم، ونُفورِهم من الحَقِّ[(٣)].

وأيضًا قولُه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ مُرتَبِطٌ بقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ [الزخرف: ٤٠]، وبَيْنَهما مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا نَبَّهَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ جِدَّه واجتِهادَه في دُعاءِ قَومِه غَيرُ نافِعٍ، وأنَّهم صُمٌّ عُمْيٌ في ضَلالٍ مُبينٍ، لا يَرجِعُون ولا يَرعَوونَ، وبيَّن أنَّه لا بُدَّ من الهَلاكِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ فقَسَمَ الأمرَ بيْنَ أنْ يَنصُرَه عليهم في الدُّنيا ويَشفِيَ صُدورَ المُؤمنينَ، وبيْنَ أنْ يَنتقِمَ مِنهم في الآخِرةِ أشَدَّ الانتِقامِ؛ أرشَدَه إلى المُتارَكةِ والمُواعَدةِ، والاشتِغالِ بما يُهِمُّه مِن التَّمسُّكِ بالعُروةِ الوُثقَى، وهو هذا القُرآنُ الكَريمُ الَّذي لا يَأتيه الباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

أي: فتَمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بقُوَّةٍ بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك، واثبُتْ على العَمَلِ به[1].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المَقامُ -لِكَثرةِ المُخالِفِ- مُحتاجًا إلى تأكيدٍ يُطَيِّبُ خواطِرَ الأَتْباعِ، ويَحمِلُهم على حُسنِ الاتِّباعِ؛ عَلَّل ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ أي: طَريقٍ واسِعٍ واضِحٍ جِدًّا ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إلى المقصودِ، لا يَصِحُّ أصلًا أن يَلحَقَه شَيءٌ مِن عِوَجٍ؛ فإذا فَعَلْتَ ذلك لم يَضُرَّك شَيءٌ مِن نِقمَتِهم[2].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصلٍ إلى اللهِ تعالى ورِضوانِه وجَنَّتِه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٣، ٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى تأثيرَ التَّمَسُّكِ بهذا الدِّينِ في مَنافِعِ الآخرةِ؛ بَيَّن أيضًا تأثيرَه في مَنافِعِ الدُّنيا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، أي: إنَّه يُوجِبُ الشَّرَفَ العظيمَ لك ولِقَومِك[1]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك مِن قُرَيشٍ وسائِرِ العَرَبِ، وهو مَوعِظةٌ وتَذكيرٌ لكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٤٢ - ٤٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

قال ابن عطية: (يَحتمِلُ أن يُريدَ: وإنَّه لَشَرفٌ وحَمدٌ في الدُّنيا، والقَومُ على هذا: قُرَيشٌ ثمَّ العَرَبُ... ويحتمِلُ أن يريدَ: وإنَّه لَتذكِرةٌ ومَوعِظةٌ، فالقَومُ على هذا: أُمَّتُه بأجْمَعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ، وهو أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا: الشَّرفُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والقرطبيُّ، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩).

قال البِقاعي: (﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قُريشٍ خُصوصًا، والعَرَبِ عُمومًا، وسائِرِ مَنِ اتَّبَعك ولو كان مِن غَيرِهم؛ مِن جِهةِ نُزولِه على واحِدٍ منهم وبلِسانِهم؛ فكان سائرُ النَّاسِ تَبَعًا لهم، ومِن جِهةِ =

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: وسوفَ يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ[(١)].

= إيراثِه الطَّريقةَ الحُسنى، والعُلومَ الزَّاكيةَ الواسِعةَ، وتأثيرِه الظُّهورَ على جميعِ الطوائِفِ، والإمامةَ لقُريشٍ بالخُصوصِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ تيميَّة. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢-٤٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقَومُه قُرَيشٌ، ولا يَمنَعُ أنَّه ذِكرٌ لسائِرِ العَرَبِ، بل لسائِرِ النَّاسِ...، وهذا على أصَحِّ القولَينِ، وأنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أنَّه ذِكرٌ لهم يَذكُرونَه فيَهتَدونَ به. وقيل: إنَّ المرادَ أنَّه شَرَفٌ لهم. وليس بشَيءٍ؛ فإنَّ القُرآنَ هو شَرَفٌ لِمَنْ آمَنَ به مِن قَومِه وغَيرِهم، وليس شَرَفًا لجَميعِ قَومِه، بل مَن كَذَّب به منهم كان أحَقَّ بالذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، بخِلافِ كَونِه تَذكِرةً وذِكرى؛ فإنَّه تَذكِرةٌ لهم ولِغَيرِهم). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ -معنَى الشَّرَفِ، ومعنَى التَّذكيرِ والبيانِ والمَوعِظةِ- في الجُملة: البِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

وذكَرَ ابنُ عُثيمينَ أنَّه لا مانِعَ مِن أن يكونَ بمعنى الشَّرَفِ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا التَّذكيرُ، ثمَّ قال: (فإنْ قال قائِلٌ: يَرِدُ على هذا أنَّه تذكيرٌ لكُلِّ النَّاسِ. فالجَوابُ: أنَّ هذا كقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، مع أنَّه بُعِثَ لجَميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

وصرَّح بالجمعِ بيْنَ المعنَيَينِ في فوائِدِ الآيةِ، فقال: (الفائِدةُ الخامِسةُ: أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه ذِكرٌ للعَرَبِ، أي: شَرَفٌ لهم، وفيه تذكيرٌ لهم؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). =

عن أبي مالِكٍ الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((القُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك))(١).

= قيل: المعنى: تُسألون عن العَمَلِ بما فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

وقيل: المعنى: تُسأَلونَ عن شُكرِ الله على نِعمةِ القرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، والزجاج، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠).

قال القرطبي: (﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عن الشُّكرِ عليه، قاله مقاتلٌ والفَرَّاءُ. وقال ابنُ جُرَيج: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما أتاك. وقيل: تُسألون عمَّا عَمِلْتُم فيه. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: معناه: عن أوامِرِ القُرآنِ ونَواهيه. وقال الحسَنُ بنُ أبي الحسَنِ: معناه: عن شُكرِ النِّعمةِ فيه. واللَّفظُ يحتمِلُ هذا كلَّه ويَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وقال النَّسَفي: (﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه يومَ القيامةِ، وعن قيامِكم بحَقِّه، وعن تعظيمِكم له، وعن شُكرِكم هذه النِّعمةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٢).

وذهب البِقاعيُّ إلى أعَمَّ مِمَّا سَبَق، فقال: (تَصيرونَ في سائِرِ أنواعِ العِلمِ مَحَطَّ رِحالِ السَّائِلينَ دِينًا ودُنيا، بحيثُ يَسألُكم جميعُ أهلِ الأرضِ مِن أهلِ الكِتابِ ومِن غَيرِهم عمَّا يُهِمُّهم مِن أمرِ دينِهم ودُنياهم؛ لِما يَعتَقِدونَ مِن أنَّه لا يُوازيكم أحدٌ في العِلمِ، بعدَ أنْ كُنتُم عندَهم أحقَرَ الأُمَمِ ضَعفًا وجَهلًا! كما وقَعَ لبني إسرائيلَ حيثُ رَفَعهم اللهُ، وكان ذلك أبعَدَ الأشياءِ عندَ فِرعَونَ وآلِه؛ ولذلك كانوا يَتضاحَكونَ استِهزاءً بتلك الآياتِ، ويَنسُبونَ الآتيَ بها إلى ما لا يَليقُ بمَنصِبِه العالي مِنَ المُحالاتِ؛ وتُسأَلونَ عن حَقِّه وأداءِ شُكرِه، وكيف كُنتُم في العَمَلِ به والاستِجابةِ له). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٧).

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

أي: واسألْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

قال الماوَرْدي عن قولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾: (فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: يعني: الأنبياءَ الَّذين جُمِعوا له لَيلةَ الإسراءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. وكانوا سبعينَ نبيًّا؛ منهم: إبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليهم السَّلامُ، فلم يَسأَلْهم؛ لأنَّه كان أعلَمَ باللهِ منهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أهلُ الكِتابَينِ؛ التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله قَتادةُ والضَّحَّاكُ، ويكونُ تقديرُه: سَلْ أُمَمَ مَن أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. الثَّالثُ: جِبريلُ، ويكونُ تقديرُه: واسأَلْ عمَّا أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. حكاه النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأنبياءُ الَّذين لَقِيَهم لَيلةَ الإسراءِ: القُشَيْري، والقُرْطُبي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

قال العُلَيمي: (ومعنى السُّؤالِ: التَّقريرُ لِمُشركي مكَّةَ أنَّه لم يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَشُكَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يَسأَلْهم، وكان أثْبَتَ يقينًا مِن ذلك). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المراد: سَلْ مُؤمِني أهلِ الكتابِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٥).

قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ على القولَين: سؤالُهم هل أَذِنَ اللهُ بِعبادةِ الأوثانِ في مِلَّةٍ مِن المِلَلِ، وهل سَوَّغ ذلك لأحدٍ منهم؟! والمقصودُ تقريعُ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّ ما هم عليه لم يأتِ في شريعةٍ مِن الشَّرائعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨).

وقال ابن عاشور: (المعنى: استَقْرِ شرائعَ الرُّسُلِ وكُتُبَهم وأخبارَهم، هل تجِدُ فيها عبادةَ آلهةٍ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤).

وذَكرَ الرَّازيُّ أقوالًا في الآيةِ، ومنها: (أنَّ ذِكرَ السُّؤالِ في مَوضِعٍ لا يمكِنُ السُّؤالُ فيه يكونُ المرادُ منه النَّظَرَ والاستدلالَ؛ كقَولِ مَن قال: سَلِ الأرضَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؟ فإنَّها إنْ لم تُجبْك جوابًا، أجابَتْك اعتبارًا. فهاهنا سؤالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه =

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

أي: اسأَلْهم هل شرَعْنا وأمَرْنا بعبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ الرَّحمنِ[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: مُوصِلٍ إلى اللهِ وإلى دارِ كرامتِه، وهذا مِمَّا يُوجِبُ عليك زيادةَ التَّمَسُّكِ به والاهتِداءِ، إذا عَلِمتَ أنَّه حقٌّ وعَدلٌ وصِدقٌ تكونُ بانيًا على أصلٍ أصيلٍ إذا بنى غَيرُك على الشُّكوكِ والأوهامِ، والظُّلمِ والجَورِ[(٢)]. ففي الآيةِ حَثُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّمَسُّكِ بما أُوحيَ إليه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحَثُّ على ذلك فنحن مِن بابِ أَولى[(٣)]!

= وسلَّم الأنبياءَ الَّذين كانوا قبْلَه مُمتَنِعٌ؛ فكان المرادُ منه: انظُرْ في هذه المسألةِ بعَقلِك، وتدبَّرْ فيها بفَهمِك). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٥).

وقال ابن عثيمين: (المعنى: إنَّك إن تسألْ -على الفَرضِ والتَّخييرِ- فلن تجابَ بـ «نعم»، بل سيكونُ الجوابُ: «لا»؛ فهو مِن بابِ التحَدِّي للمُشرِكين الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم على حَقٍّ... يعني: أنَّ السُّؤالَ أُريدَ به إلزامُ قُريشٍ بأنَّه لم يأتِ أحَدٌ مِن الرُّسُلِ بإباحةِ عبادةِ غيرِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الخرف)) (ص: ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ يرغَبُ في الثَّناءِ الحسَنِ الجميلِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الذِّكر-، ولو لم يَكُنْ ذلك مرغوبًا فيه ما امتَنَّ به تعالَى على رسولِه فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، وقال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، والذِّكرُ الجَميلُ قائِمٌ مَقامَ الحياة، بل هو أفضَلُ مِن الحياة؛ لأنَّ أثَرَ الحياةِ لا يحصُلُ إلَّا في الحَيِّ، وأثَرَ الذِّكرِ الجَميلِ يَحصُلُ في كُلِّ مَكانٍ، وفي كُلِّ زَمانٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ وصْفُ اللهِ تبارك وتعالى بالانتقامِ كما وُصِفَ به في آياتٍ أخرى، ولكِنْ لا يُوصَفُ به على الإطلاقِ فيقالَ مَثلًا: «المنتَقِمُ»؛ لأنَّ كَلِمةَ «المُنتَقِم» ليست مدحًا في ذاتِها حتَّى تُقابَلَ بما يكونُ سببًا للانتقامِ، ومِن الغَلَطِ عَدُّها ضِمنَ أسماءِ اللهِ الحسنى؛ فإنَّ ذلك ليس مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذكُرْ ذلك مِن أسمائِه، وإنَّما ذَكَره مُقَيَّدًا بحالٍ مِن الأحوالِ، وهنا ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ مُقيَّدٌ بحالٍ من الأحوالِ، وهي تكذيبُ هؤلاء، وهو كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[٢] [السجدة: ٢٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ ﴾ أنَّ الوَعدَ يأتي في الشَّرِّ والعُقوبةِ، خلافًا لِمَن قال: الوَعدُ في الخيرِ، والإيعادُ في الشَّرِّ، وأنشَدوا على ذلك قولَ الشاعِرِ:

وإنِّي وإنْ أوعَدْتُه أو وَعَدْتُه ... لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي[٣]

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٣) البيتُ لعامرِ بنِ الطُّفَيلِ. يُنظر: ((ديوان عامر بن الطفيل)) (ص: ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٢٢٣).

فالصَّوابُ أنَّ لفظةَ الوعدِ تُطلَقُ على الخَيرِ والشَّرِّ، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾، وعلى قياسِ قولِ البيتِ يكونُ التَّعبيرُ: «الَّذي أوعَدْناهم»، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها جائزةٌ لهذا وهذا[١]، فالوَعدُ هنا بمَعنَى الوَعيدِ؛ بقَرينةِ قَولِه قَبْلَه: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وأمَّا الوَعيدُ فهو للشَّرِّ دائمًا[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ عبَّرَ عن الشَّرَفِ بالذِّكرِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ قيل: للتَّنبيهِ على أنَّ سَبَبَه الإقبالُ على الذِّكرِ وعلى ما بَيَّنه وشَرَعَه، والاستِمساكُ به، والاعتِناءُ بشَأنِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ خبرِ الواحِدِ الصَّادِقِ؛ فإنَّ أماراتِ النُّبُوَّةِ دليلٌ على صِدْقِهم، والحُجَّةُ واجبةٌ بإخبارِهم؛ لا بأماراتِهم[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ أمرُه بسؤالِ أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ- استُدِلَّ به على أنَّ خبرَ المَعيوبِ عليه في دِينِه -إذا عُرِفَ بالصِّدْقِ- مقبولٌ وإنْ أُنكِرَ حالُه؛ إذِ المرادُ مِن المُخبِرِ صِدْقُه لا غيرُه، وليس إلْمامُ المُذْنِبينَ -المعروفِين بالصِّدْقِ- بالذُّنوبِ، والمُتأوِّلِينَ أمورًا بأكثرَ مِن كُفْرِ الكافِرين[٥]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ أنَّ أصلَ دينِ النَّصارى ليس فيه شِركٌ؛ فإنَّ الله إنَّما بَعَث رُسُلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣٤).

بالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، فالمسيحُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه ومَن قبْلَه مِنَ الرُّسلِ إنَّما دَعَوْا إلى عبادةِ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ استِئنافٌ، مَسُوقٌ لتَسليَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، وعُميٌ فلا يُمكِنُك هِدايَتُهم(٢).

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ لأنَّ ذلك أفاد تَوَغُّلَهم في الضَّلالةِ، وعُسْرَ انفِكاكِهم عنها؛ لأنَّ مُقارَنةَ الشَّياطينِ لهم تَقتَضي ذلك؛ فانتَقَل منه إلى التَّهوينِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُلاقِيه مِن الكَدِّ والتَّحرُّقِ عليهم في تَصميمِهم على الكُفرِ والغَيِّ، وفيه إيماءٌ إلى تَأييسٍ مِن اهتِداءِ أكثَرِهم(٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لإنكارِ أنْ يَكونَ حِرصُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هُداهم ناجعًا فيهم إذا كان اللهُ قدَّرَ ضَلالَهم فأوجَدَ أسبابَه؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]. ولَمَّا كان حالُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مُعاوَدةِ دَعوتِهم كحالِ مَن يَظُنُّ أنَّه قادرٌ على إيصالِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

التَّذكيرِ إلى قُلوبِهم، نُزِّلَ مَنزِلةَ مَن يَظُنُّ ذلك؛ فخُوطِبَ باستِفهامِ الإنكارِ، وسُلِّطَ الاستِفهامُ على كَلامٍ فيه طَريقُ قَصرٍ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ، مع إيلاءِ الضَّميرِ حَرْفَ الإنكارِ، وهو قَصْرٌ مُؤَكَّدٌ وقَصْرُ قَلبٍ[١]، أي: أنت لا تُسمِعُهم ولا تَهدِيهم؛ بل اللهُ يُسمِعُهم ويَهدِيهم إنْ شاءَ[٢].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩-٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

- ومن بَديعِ مَعنَى قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ الآيةَ: أنَّ اللهَ وَصَف حالَ إعراضِهِم عن الذِّكرِ بالعَشَا، وهو النَّظَرُ الَّذي لا يَتبَيَّنُ شَبحَ الشَّيءِ المَنظورِ إليه، ثمَّ وَصَفهم هنا بالصُّمِّ العُمْيِ؛ إشارَةً إلى أنَّ التَّمحُّلَ(١) للضَّلالِ ومُحاوَلةَ تأييدِه، يَنقَلِبُ بصاحِبِه إلى أشدِّ الضَّلالِ؛ لِـ (أنَّ التَّخلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ)(٢)، والأحوالُ تَنقلِبُ مَلَكاتٍ. وإذ قد كان إعراضُهم انصِرافًا عن استِماعِ القُرآنِ، وعن النَّظَرِ في الآياتِ؛ كان حالُهُم يُشبِهُ حالَ الصُّمِّ العُمْيِ، كما مُهِّد لذلك بقَولِه: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ فظَهَرت المُناسَبةُ بيْنَ وَصْفِهم بالعَشَا وبيْن ما في هذا الانتِقالِ لِوَصْفِهم بالصُّمِّ العُمْيِ(٣).

- وقَولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ باعتِبارِ تَغايُرِ الوَصفَينِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ المُوجِبَ لذلك تَمكُّنُهم في ضَلالٍ لا يَخفى(٤).

- وأيضًا عَطْفُ ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فيه مَعنى التَّذييلِ؛ لأنَّه أعَمُّ مِن كلٍّ مِن الصُّمِّ والعُمْيِ باعتِبارِ انفِرادِهما، وباعتِبارِ أنَّ الصَّمَمَ والعَمَى قد يكونُ تَعلُّقُهما بالمَسموعِ والمُبصَرِ جُزئيًّا في حالةٍ خاصَّةٍ؛ فكان الوَصفُ بالكَونِ في الضَّلالِ المُبينِ تَنبيهًا على عُمومِ الأحوالِ(٥).

---

(١) التَّمَحُّلُ: أي: الاحتيالُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨١٧).

(٢) عَجُزُ بيتٍ يُنسَبُ لغيرِ واحدٍ؛ منهم: العَرْجيُّ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٣/ ٦٦)، ((الشعر والشعراء)) لابن قُتَيْبة (٢/ ٥٦١). ومنهم: سالمُ بنُ وابِصةَ. ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ١٩٧)، ((شرح ديوان الحماسة)) للمرزوقي (ص: ٧١٠). ومنهم: ذو الإصبَعِ العَدْوانيُّ. يُنظر: ((التذكرة الحمدونية)) (٧/ ٩٠)، ((الدر الفريد)) للمستعصمي (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦، ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لَمَّا كانَت حَواسُّهم لنْ يَنتَفِعوا بها الانتِفاعَ الَّذي يُجرِي خَلاصَهم مِن عَذابِ اللهِ، جُعِلوا صُمًّا عُمْيًا حَيارَى، ويُريدُ بهم قُرَيشًا؛ فهُم جامِعُو الأَوصافِ الثَّلاثةِ؛ ولذلك عادَ الضَّميرُ عليهم في قَولِه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، ولم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ إلَّا في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [الزخرف: ٤٠] الآيةَ[١].

- وقولُه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ...﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ...﴾ [الزخرف: ٤٠] إلى آخِرِها، المُتضَمِّنةِ إيماءً إلى التَّأييسِ مِن اهتِدائِهم، والصَّريحةِ في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شِدَّةِ الحِرصِ في دَعوتِهم؛ فجاء هنا تَحقيقُ وَعدٍ بالانتِقامِ منهم، ومعناه: الوَعدُ بإظهارِ الدِّينِ إنْ كان في حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، ووَعِيدُهم بالعِقابِ في الدُّنيا قبْلَ عِقابِ الآخِرةِ. ومِن أجْلِ الوَفاءِ بهَذَينِ الغَرَضَينِ ذُكِر في هذه الجُملةِ أمْرانِ: الانتِقامُ منهم لا مَحالةَ، وكَوْنُ ذلك واقِعًا في حَياةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، والمُفرَّعُ هو: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ وما ذُكِرَ معه؛ فمُرادٌ منه تَحقُّقُ ذلك على كلِّ تَقديرٍ[٢].

- والذَّهابُ به في قولِه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ...﴾ مُستعمَلٌ للتَّوفِّي -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ المَوتَ مُفارَقةٌ للأحياءِ؛ فالإماتةُ كالانتِقالِ به، أي: تَغْييبُه؛ ولذلك يُعبَّرُ عن المَوتِ بالانتِقالِ، والمعنى: فإمَّا نَتَوفَّيَنَّكَ فإنَّا مِنهم مُنتَقِمون بعْدَ وَفاتِكَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

- وفي قوله: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ جاءَ جوابُ الشَّرطِ مُقترِنًا بالفاءِ -وهو جُملةٌ اسميَّةٌ-؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الانتِقام ودَوامِه، وأمَّا جُملةُ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فهي دَليلُ جَوابِ جُملةِ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ المَعطُوفةِ على جُملةِ الشَّرطِ؛ لأنَّ اقتِدارَ الله عليهم لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ مُعَلَّقًا على إراءَتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الانتِقامَ منهم؛ فالجَوابُ مَحذوفٌ لا مَحالةَ؛ لقَصدِ التَّهويلِ، وتَقديرُه: أوْ إمَّا نُرِيَنَّكَ الَّذي وعَدْناهُم -وهو الانتِقامُ- تَرَ انتِقامًا لا يُفلِتون منه؛ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، أي: مُقتَدِرون الآنَ؛ فاسمُ الفاعِلِ مُستعمَلٌ في زَمانِ الحالِ وهو حَقيقتُه[(١)].

- وتَقديمُ المَجرُورَينِ ﴿مِنْهُم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتعَلَّقَيْهما؛ للاهتِمامِ بهم في التَّمكُّنِ بالانتِقامِ والاقتِدارِ عليهم[(٢)].

- قولُه: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدارُ: شِدَّةُ القُدرةِ، و(اقتَدَرَ) أبلَغُ من (قدَرَ)[(٣)].

- وقد اشتَمَل هَذانِ الشَّرطانِ وجَواباهُما ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ على خَمسَةِ مُؤَكِّداتٍ؛ وهي: (ما) الزَّائِدةُ في قولِه ﴿فَإِمَّا﴾، ونُونُ التَّوكيدِ، وحَرفُ (إنَّ) للتَّوكيدِ، والجُملةُ الاسميَّةُ، وتَقديمُ المَعمولِ على ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾[(٤)].

- وفائدةُ التَّرديدِ في هذا الشَّرطِ -قَولُه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وقولُه: ﴿أَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

نُرِيَنَّكَ﴾-: تَعميمُ الحالَينِ: حالِ حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحالِ وَفاتِه -على قولٍ في التَّفسيرِ بأنَّ المرادَ بالإذهابِ: تَوَفِّيه عليه السَّلامُ-، والمَقصودُ: وَقتُ ذَينِكَ الحالَينِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَوقيتُ الانتِقامِ منهم، ففي هذا الوَعيدِ إلْقاءُ الرُّعبِ في قُلوبِهم لِمَا يَسمَعونَه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ الاستِمساكُ: شِدَّةُ المَسكِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ، والأمرُ به مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ الأمرَ بفِعلٍ لِمَن هو مُتلبِّسٌ به لا يَكونُ لطَلَبِ الفِعلِ، بلْ لمَعنًى آخَرَ، وهو هنا: طَلَبُ الثَّباتِ على التَّمسُّكِ بما أُوحِيَ إليه؛ كما دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهذا كما يُدْعَى للعَزيزِ المُكرَمِ، فيُقالُ: أعَزَّكَ اللهُ وأكرَمَكَ، أي: أدامَ ذلك، وقَولُه: أَحياكَ اللهُ، أي: أطالَ حَياتَكَ[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تأييدٌ لطَلَبِ الاستِمساكِ بالَّذي أُوحِيَ إليه، وتَعليلٌ له، أو تَعليلٌ للأمْرِ به[٣].

- والصِّراطُ المُستَقيمُ: هو العَمَلُ بالَّذي أُوحِيَ إليه؛ فكَأنَّه قِيلَ: إنَّه صِراطٌ مُستَقيمٌ، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ راسِخٌ في الاهتِداءِ إلى مُرادِ اللهِ تعالى، كما يَتمَكَّنُ السَّائرُ مِن طَريقٍ مُستَقيمٍ لا يَشُوبُه في سَيرِه تَرَدُّدٌ في سُلوكِه، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٠).

خَشيةُ الضَّلالِ في بُنيَّاتِه، وحَرفُ (عَلَى) المُرادُ به التَّمكُّنُ، وهذا تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وثناءٌ عليه بأنَّه ما زاغَ قِيدَ أُنمُلَةٍ عمَّا بَعَثَه اللهُ به، ويَتْبَعُه تَثْبيتُ المُؤمنينَ على إيمانِهم، وهذا أيضًا ثَناءٌ على القُرآنِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ ذُكِرَ حظُّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الثَّناءِ والتَّأييدِ في قَولِه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزخرف: ٤٣] المَجعُولِ عِلَّةً للأمرِ بالثَّباتِ عليه، ثمَّ عُطِفَ عليه تَعليلٌ آخَرُ اشتَمَل على ذِكْرِ حَظِّ القُرآنِ مِن المَدحِ والنَّفعِ بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾، وتَشريفِه به بقَولِه: ﴿لَّكَ﴾، وأُتْبِعَ بحَظِّ التَّابِعينَ له ولكِتابِه مِنَ الاهتِداءِ والانتِفاعِ بقَولِه: ﴿وَلِقَوۡمِكَ﴾. وهذا أيضًا ثناءٌ على القُرآنِ[٢].

- وعرَّضَ اللهُ سُبحانَه بالمُعرِضينَ عن القُرآنِ وعن الرَّسولِ والمُجافِينَ لهما بقَولِه: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، مع التَّوجيهِ في معنَى كلمةِ (ذِكْرٌ) من إرادةِ أنَّ هذا الدِّينَ يَكسِبُه ويَكسِبُ قومَه حُسْنَ السُّمعةِ في الأُمَمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فمَنِ اتَّبَعه نالَ حَظَّه من ذلك، ومَن أعرَضَ عنه عُدَّ في عِدادِ الحَمقَى، مع الإشارةِ إلى انتِفاعِ المُتَّبِعينَ به في الآخِرةِ، واستِضرارِ المُعرِضينَ عنه فيها، وتَحقيقُ ذلك بحَرفِ الاستِقبالِ (سوف)[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قيل: المُرادُ بالسُّؤالِ تَمثيلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠).

لِشُهرةِ الخَبَرِ وتَحَقُّقِه؛ إذ لَمْ يكُنِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شَكٍّ حتَّى يَسألَ، وإلَّا فإنَّ سُؤالَه الرُّسلَ الَّذين مِن قبْلِه مُتعذِّرٌ على الحقيقةِ. والمعنى: استَقْرِ شَرائعَ الرُّسلِ وكُتبَهم وأخْبارَهم؛ هلْ تجِدُ فيها عِبادةَ آلهةٍ؟! فالمُرادُ الاستِشهادُ بإجماعِ الأنبياءِ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهُ على أنَّه ليسَ بِبِدْعٍ ابتَدَعه حتَّى يُكَذَّبَ ويُعادَى له؛ فإنَّه كان أقوَى ما حمَلَهم على التَّكذيبِ والمُخالَفةِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قَولُه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ الهَمزةُ في ﴿أَجَعَلْنَا﴾ للاستِفهامِ، وهو إنكاريٌّ، وهو المَقصودُ مِن الخَبَرِ، وهو رَدٌّ على المُشرِكين في قَولِهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: ليس آباؤُكُم بأَهدَى مِنَ الرُّسُلِ الأوَّلينَ إنْ كُنتُم تزعُمون تَكذيبَ رَسولِنا؛ لأنَّه أمَرَكُم بإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ السُّؤالُ عن شُهرةِ الخبَرِ، ومعنى الكلامِ: وإنَّا ما أمَرْنا بعِبادةِ آلهةٍ دُونَنا على لِسانِ أحَدٍ مِن رُسلِنا. وهذا رَدٌّ لِقَولِ المشركينَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[2] [الزخرف: ٢٠].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لتأكيدِ اتِّصالِ الظَّرفِ بعامِلِه، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾ بيانٌ لـ﴿قَبْلِكَ﴾؛ فمعنى ﴿أَجَعَلْنَا﴾: ما جعَلْنا ذلك، أي: جعْلَ التَّشريعِ والأمرِ، أي: ما أمَرْنا بأنْ تُعبَدَ آلهةٌ دُونَنا؛ فوصْفُ ﴿ءَالِهَةً﴾ بـ﴿يُعْبَدُونَ﴾ لِنَفْيِ أنْ يكونَ اللهُ يَرْضَى بعِبادةِ غَيرِه، فضْلًا عن أنْ يكونَ غيرُه إلهًا مِثلَه؛ وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَعبُدون الأصنامَ، وكانوا في عَقائدِهم

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

أشتاتًا؛ فمِنْهم مَن يَجعَلُ الأصنامَ آلهةً شُركاءَ للهِ، ومِنْهم مَن يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُهم لِيُقَرِّبُوه مِن اللهِ زُلْفى، ومنْهم مَن يَزعُمُهم شُفعاءَ لهم عندَ اللهِ. فلمَّا نفَى بهذه الآيةِ أنْ يكونَ جعَلَ آلهةً يُعبَدون، أبطَلَ جميعَ هذه التَّمحُّلاتِ[1].

- وأُجْرِيَ ﴿ءَالِهَةً﴾ مُجْرى العُقلاءِ؛ فوُصِفوا بصِيغةِ جمْعِ العُقلاءِ بقولِه: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾ -ومِثلُه كَثيرٌ في القُرآنِ- جَرْيًا على ما غلَبَ في لِسانِ العرَبِ؛ إذ اعتَقَدُوهم عُقلاءَ عالِمينَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَلَإِيْهِ﴾: الملأُ: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، والجماعةُ يَجتمِعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ العُيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤونَ، أي: يَتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ(١).

﴿يَنكُثُونَ﴾: يَنقُضونَ عَهدَهم، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ معَ فِرعونَ؛ مُثَبِّتًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ، فيقولُ: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

مُستَهزِئينَ! وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أكبَرُ مِن الَّتي قبْلَها، ومع ذلك كذَّبوا فأخَذْناهم بعَذابٍ شَديدٍ مِن قَحطٍ ونَقصٍ في الثَّمَراتِ وغيرِ ذلك؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ فيَرجِعونَ عن كُفرِهم.

وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لِموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك؛ لِيَكشِفَ عنَّا العذابَ، إنَّنا لَمُهتَدونَ ومُتَّبِعوك إنْ كشَفَه عنَّا. فلمَّا رفَعْنا عنهم العذابَ نَقَضوا عَهدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّم طَعنُ قُرَيشٍ على الرَّسولِ، واختيارُهم أن يُنَزَّلَ القُرآنُ على رجُلٍ مِن القَريتَينِ عَظيمٍ، أي: في الجاهِ والمالِ؛ ذكَرَ أنَّ مِثلَ ذلك سَبَقَهم إليه فِرعَونُ في قَولِه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] إلى آخِرِ الآيةِ، افتَخَرَ بالمُلْكِ والمالِ والجاهِ؛ ففِرْعَونُ قُدوتُهم في ذلك، ومع ذلك فصار فِرعَونُ مَقهورًا مع موسى مُنتَقَمًا منه، فكذلك قُرَيشٌ(١).

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ بيَّن تعالى حالَ موسى ودعوتِه، الَّتي هي أشهرُ ما يكونُ مِن دعواتِ الرُّسُلِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكثَرَ مِن ذِكرِها في كتابِه(٢).

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ؛ ذكَرَ قِصَّةَ موسى وعيسى، وهما أكبَرُ أتْباعًا مِمَّن سَبَقَهم من الأنبياءِ، وكُلٌّ جاء بالدُّعاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

إلى اللهِ، وإفرادِه بالعِبادةِ، فلم يكُنْ فيما جاءَا به إباحةُ اتِّخاذِ آلهةٍ مِن دونِ اللهِ، كما اتَّخذَت قُرَيشٌ؛ فناسَبَ ذِكرُ قِصَّتِهما؛ للآيةِ الَّتي قَبْلَها[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِنَ الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المدبِّرِ لجَميعِ العالَمينَ[3].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾.

أي: فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها؛ سُخْريةً واستِهزاءً[4]!

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾.

أي: وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أعظَمُ مِن الَّتي قَبْلَها، ومع ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

كذَّبوا بجَميعِ الآياتِ واستَخَفُّوا بها؛ استِكبارًا وعِنادًا[١]!

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: وابتَلَيْناهم بنِقَمٍ ومِحَنٍ -كالقَحطِ ونَقصِ الثَّمَراتِ-؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ، فيَرجِعونَ مِن كُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، إلى تَوحيدِه وطاعتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ[٣] ادعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

قال ابن جرير: (يقولُ: إلَّا الَّتي نُريه مِن ذلك أعظَمُ في الحُجَّةِ عليهم، وأوكَدُ من الَّتي مَضَت قَبْلَها مِن الآياتِ، وأدَلُّ على صِحَّةِ ما يأمُرُه به موسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨).

وقال ابن عطيَّة: (وَصَف تعالى صورةَ عَرضِ الآياتِ عليهم، وإنَّما كانت شَيئًا بعدَ شَيءٍ. وقَولُه: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارةٌ عن شِدَّةِ مَوقِعِها في نفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَ موسى، هي: العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقعُ فتَعظُمُ عندَهم لحِينِها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم قد كانوا أُنسُوا الَّتي قَبْلَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨).

وقال القرطبي: (أي: كانت آياتُ موسى مِن كِبارِ الآياتِ، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظَمَ مِمَّا قَبْلَها. وقيل: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ لأنَّ الأُولى تَقتَضي عِلمًا، والثَّانيةَ تَقتضي عِلمًا، فتُضَمُّ الثَّانيةُ إلى الأُولى فيَزدادُ الوُضوحُ. ومعنى الأُخُوَّةِ: المُشاكَلةُ والمُناسَبةُ، كما يُقالُ: هذه صاحِبةُ هذه، أي: هما قريبتانِ في المعنى). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٣) قيل: أرادوا بقَولِهم: يا أيُّها السَّاحِرُ: يا أيُّها العالِمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، =

لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك[1]؛ ....

= والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨) و(٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠).

قال الثعلبي: (وقالوا لَمَّا عايَنوا العَذابَ: ﴿يَتَأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يا أيُّها العالِمُ الكامِلُ الحاذِقُ، وإنَّما قالوا هذا؛ توقيرًا وتعظيمًا منهم؛ لأنَّ السِّحرَ كان عِندَهم عِلمًا عَظيمًا، وصِفةً مَمدوحةً). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨).

وقيل: قالوا ذلك على جِهةِ الاستِهزاءِ والتَّهَكُّم. وممَّن جَوَّز هذا المعنى: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: خاطَبوه بما تقدَّمَ عندَهم مِن تسميتِه بالسَّاحِرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(١) في معنى قَولِهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أقوالٌ؛ قال الزمخشري: (﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ، أو بعَهدِه عِندَك، وهو النُّبُوَّةُ، أو بما عَهِدَ عندَك فوَفَّيتَ به، وهو الإيمانُ والطَّاعةُ، أو بما عَهِدَ عِندَك مِن كَشفِ العذابِ عمَّنِ اهتدى). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: بعَهدِه الَّذي عَهِدَ إليك أنَّا إنْ آمَنَّا بك واتَّبَعْناك كشَفَ عنَّا العذابَ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنَّحَّاس، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩).

قال النَّحَّاسُ: (ويدُلُّ على صِحَّةِ هذا الجوابِ قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، أي: يَنقُضونَ العَهدَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ: النَّيسابوريُّ، والعُلَيمي، واقتصر عليه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١). =

لِيكشِفَ عنَّا العَذابَ[(١)].

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

أي: إنَّنا لَمُتَّبعوك -يا موسى- إنْ كَشَف رَبُّك عنَّا العذابَ، فنُؤمِنُ به ونُوَحِّدُه[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)﴾.

أي: فلمَّا رفَعْنا العذابَ عن فِرعَونَ وقَومِه؛ لِيَهتَدوا إلى الحَقِّ كما وَعَدوا موسى، نَكَثوا فنَقَضوا عَهْدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم وضَلالِهم[(٣)]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[الأعراف: ١٣٥].

= وقيل: المعنى: ادعُ رَبَّك بما خَصَّك اللهُ به وفَضَّلك به مِنَ الفَضائِلِ والمَناقِبِ: أن يَكشِفَ عنَّا العذابَ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: أرادوا: بما خَصَّك بعِلمِه دونَ غَيرِك مِمَّا استطَعْتَ به أن تأتيَ بخوارِقِ العادةِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لَمَّا كان الإحسانُ سببًا للإذعانِ قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: مالِكِهم ومُرَبِّيهم ومُدَبِّرِهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سَمَّوه بالسَّاحِرِ -الصَّريحِ في نسبتِه إلى الباطِلِ-، وهو مُنافٍ لِما بَعْدَه مِن طلبِ الدُّعاءِ منه، وقولِهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، وفيه إعلامٌ بأنَّه هادٍ مُهتَدٍ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم كانوا يقولونَ للعالِمِ الماهِرِ: (ساحِرٌ)؛ لأنَّهم كانوا يَستَعظِمونَ السِّحرَ، وكما يُقالُ في العامِلِ العَجيبِ الكامِلِ: إنَّه أتى بالسِّحرِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: يا أيُّها السَّاحِرُ في زَعمِ النَّاسِ ومُتعارَفِ قَومِ فِرعَونَ، كقَولِه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، أي: نُزِّلَ عليه الذِّكرُ في اعتِقادِه وزَعْمِه!

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ قولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وقد كانوا عازِمينَ على خِلافِه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾، فتَسميتُهم إيَّاه بالسِّحرِ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه لَمَّا كَشَف عنهم العذابَ نَكَثوا ذلك العَهدَ[٢].

الوجه الرَّابِعُ: أن ذلك جارٍ على مُقتضى ما جُبِلوا عليه مِن الشِّدَّةِ والحِدَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وعلى نَهجِ ما أَلِفوه مِن تحقيرِه؛ ولذا سَبَقَ لسانُهم له[١].

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّهم نادَوه بذلك في تلك الحالةِ؛ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وفَرطِ حَماقتِهم[٢].

الوَجهُ السَّادسُ: أنَّ هذا مِن بابِ التَّهكُّمِ به[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- ذكَرَ اللهُ في أوَّلِ السُّورةِ قولَه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦ - ٨]، وساق بعْدَ ذلك تَذكِرةً بإبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه، وما تَفرَّعَ على ذلك مِن أحوالِ أهْلِ الشِّركِ، فلمَّا تَقضَّى، أُتْبِعَ بتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع طُغاةِ قَومِه واستِهزائِهم، بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ ومَلئِه؛ فإنَّ للمُثُلِ والنَّظائرِ شَأنًا في إبرازِ الحَقائقِ وتَصويرِ الحالَينِ تَصويرًا يُفضِي إلى تَرقُّبِ ما كان لإحدَى الحالَتينِ مِن عَواقبَ أن تَلحَقَ أهلَ الحَالةِ الأُخرَى؛ فإنَّ فِرعونَ ومَلَأَهُ تَلَقَّوا موسى عليه السَّلامُ بالإسرافِ في الكُفرِ، وبالاستِهزاءِ به، وباستِضعافِه؛ إذ لم يَكُن ذا بَذَخةٍ[٤] ولا مُحَلًّى بحِلْيةِ الثَّراءِ، وكانتْ مُناسَبةُ قَولِه: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ، هيَّأَت المَقامَ لضَربِ المَثَلِ بحالِ بَعضِ

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٦-١٨٧).

(٤) بَذَخةٍ أي: عُلُوٍّ وعَظَمةٍ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨).

الرُّسُلِ الَّذِين جاؤُوا بشَريعةٍ عُظمَى قبْلَ الإسلامِ[(١)].

- والمُرادُ باقتِصاصِ قِصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُناقَضةُ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والاستِشهادُ بدَعوةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى التَّوحيدِ إثْرَ ما أُشيرَ إلى إجماعِ جَميعِ الرُّسُلِ -عليهم السَّلامُ- عليه؛ لِيَتأمَّلوا فيها[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لسُؤالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرُّسُلَ عن أمْرِ التَّوحيدِ؛ كانتِ الآياتُ كافِيَةً؛ فلمْ يَذكُرِ السُّلطانَ؛ لأنَّه للقَهرِ والغَلَبةِ[(٣)].

- وخصَّ الملأَ بالذِّكرِ -وهم الأشرافُ-؛ لأنَّ غَيرَهم مِن النَّاسِ تَبَعٌ لَهُم[(٤)].

- وما أجابُوه به عِندَ قَولِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قَولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ وهو مُطالَبَتُهم إيَّاهُ بإحضارِ البَيِّنَةِ على دَعواهُ، وإبرازِ الآيةِ[(٥)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (إذا) حَرفُ مُفاجَأةٍ، أي: يدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَه حَصَل عن غَيرِ تَرَقُّبٍ؛ فتُفتَتَحُ به الجُملةُ الَّتي يُفادُ منها حُصولُ حادِثٍ على وَجهِ المُفاجَأةِ[(٦)].

- والضَّحِكُ: قيل: هو كِنايةٌ عن الاستِخفافِ بالآياتِ والتَّكذيبِ؛ فلا يَتعَيَّنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

أنْ يَكونَ كلُّ الحاضِرينَ صَدَرَ منهم ضَحِكٌ، ولا أنَّ ذلك وَقَع عندَ رُؤيةِ آيةٍ؛ إذ لعَلَّ بَعضَها لا يَقتَضي الضَّحِكَ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ صَوغُ ﴿نُرِيهِم﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالَةِ(٢).

- والمُرادُ بقولِه: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أنَّها بالِغةٌ أقصَى دَرَجاتِ الإعجازِ؛ بحيثُ يَحسَبُ النَّاظِرُ فيها أنَّها أكبَرُ مِمَّا يُقاسُ إليها مِن الآياتِ. ووَصْفُ الآياتِ بأنَّ كلَّ واحِدةٍ أكبَرُ من أُختِها كَلامٌ جامِعٌ مانِعٌ؛ يَعني: أنَّهنَّ مَوصوفاتٌ بالكِبَرِ، لا يَكَدْنَ يَتفاوَتْنَ فيه، وكذلك العادةُ في الأشياءِ الَّتي تَتَلاقَى في الفَضلِ، وتَتَفاوَتُ مَنازِلُها فيه التُّفاوُتَ اليَسيرَ: أن تَختَلِفَ آراءُ النَّاسِ في تَفضيلِها؛ فيُفَضِّلُ بَعضُهم هذا، وبَعضُهم ذاك، فعلى ذلك بَنَى النَّاسُ كَلامَهم، فقالوا: رأيْتُ رِجالًا بَعضُهُم أفضَلُ مِن بَعضٍ، ورُبَّما اختَلَفت آراءُ الرَّجُلِ الواحِدِ فيها؛ فتارَةً يُفَضِّلُ هذا، وتارةً يُفضِّلُ ذاك. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ به: أنَّ كلَّ آيةٍ تأتي تكونُ أعظَمَ مِن الَّتي قَبْلَها؛ فيَكونَ هُنالِكَ صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: مِن أُختِها السَّابِقةِ، وهذا يَستَلزِمُ أن تكونَ الآياتُ مُتَرَتِّبةً في العِظَمِ بحَسَبِ تأخُّرِ أوقاتِ ظُهورِها؛ لأنَّ الإتيانَ بآيةٍ بعْدَ أُخرَى ناشِئٌ عن عَدَمِ الارتِداعِ مِن الآيةِ السَّابِقةِ(٣). وقيل: هذا عِبارةٌ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) =

شِدَّةِ مَوقِعِها في نُفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَها موسى هي العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقَعُ فيَعظُمُ عِندَهم مجيئُها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم كانوا أَنِسُوا الَّتي قَبْلَها، فهذا كما قال الشَّاعِرُ[1]:

علـــى أنَّها تَعفـــو الكُلـــومُ وإنَّما نُوَكَّلُ بالأدنَـى وإنْ جَلَّ ما يَمضي[2]

وقيل غيرُ ذلك[3].

- وعَطَف ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ على جُملةِ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأنَّ العَذابَ كان مِن الآياتِ. والأخْذُ بمعنى: الإصابةِ. والباءُ في ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ للاستِعانةِ، كما تقولُ: خُذِ الكِتابَ بقُوَّةٍ، أي: ابتَدَأْناهُم بالعَذابِ قبْلَ الاستِئصالِ؛ لَعَلَّ ذلك يُفيقُهم مِن غَفلَتِهم، وفي هذا تَعريضٌ بأهلِ مَكَّةَ؛ إذ أُصيبُوا بسِني القَحطِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

- مُخاطَبتُهم مُوسى عليه السَّلامُ بوَصْفِ السَّاحرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قيل: هي مُخاطَبةُ تَعظيمٍ؛ تَزَلُّفًا إليه. وقيل: بلْ خِطابُ استِهزاءٍ وانتِقاصٍ[5].

= (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٦).

(١) هو أبو خِراشٍ الهُذَليُّ. وقولُه فيه: (تَعفو الكُلُومُ) أي: تَبرأُ وتَستوي. وقولُه: (نُوَكَّلُ بالأدنى) أي: إنَّما نحنُ نَحزَنُ على الأقرَبِ فالأقرَبِ، ومَن مضى نَنْساهُ وإنْ عَظُم. يُنظر: ((ديوان الهذليين)) (٢/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

- قولُهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ العهدُ: هو الائتِمانُ على أمْرٍ مُهِمٍّ، قيل: وليس مُرادُهم به النُّبوَّةَ؛ لأنَّهم لم يُؤمِنوا به، وإذ لم يَعرِفوا كُنْهَ العَهدِ عَبَّروا عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه، والباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ مُتَعَلِّقةٌ بـ ﴿ٱدْعُ﴾، وهي للاستِعانةِ، ولَمَّا رَأَوُا الآياتِ عَلِموا أنَّ رَبَّ موسى قادِرٌ، وأنَّ بيْنَه وبيْن مُوسَى عَهدًا يَقتَضِي استِجابةَ سُؤلِه[1].

- قَولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لا يُنافي ما في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ لأنَّ الخِطابَ خِطابُ إلحاحٍ، فهو يتَكَرَّرُ ويُعادُ بطُرُقٍ مُختلِفةٍ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ جَوابٌ لِكلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: فإنْ دَعَوْتَ لنا وكشفْتَ عنَّا العذابَ لَنُؤمِنَنَّ لك، كما في آيةِ (الأعرافِ) [١٣٤]: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الآيةَ. فـ(مُهْتَدون) اسمُ فاعلٍ مُستعمَلٌ في معنى الوعْدِ، وهو مُنصرِفٌ للمُستقبَلِ بالقرينةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿يَنكُثُونَ﴾[3] [الزخرف: ٥٠].

- وسَمَّوا تَصديقَهم إيَّاهُ اهتِداءً؛ لأنَّ مُوسى سمَّى ما دَعاهم إليه هدْيًا، كما في آيةِ (النَّازعاتِ): ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[4] [النازعات: ١٩].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي
مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ
أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهِينٌ﴾: أي: ضَعيفٌ ذَليلٌ، وأصلُ (هون) هنا: يدُلُّ على احتقارٍ[(١)].

﴿أَسْوِرَةٌ﴾: جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: حَلْقةٌ عريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسغِ، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ[(٢)].

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: أي: مُتَتابِعينَ، يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا، يَشهَدونَ له بصِدقِه، ويُعينونَه على أمْرِه، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٣)].

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: أي: أزعَجَهم، وحَمَلهم على الخِفَّةِ والجَهلِ بكَيدِه وغُرورِه، يقالُ: استخَفَّه عن رأيِه: إذا حمَلَه على الجَهلِ، وأزاله عن الصَّوابِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤).

وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ[١].

﴿ءَاسَفُونَا﴾: أي أغضَبونا، والأَسَفُ يكونُ على وَجهَينِ: الغَضَبِ، والحُزنِ، وأصلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أشْبَهَ ذلك[٢].

﴿سَلَفًا﴾: أي: مُتَقَدِّمينَ لِيَتَّعِظَ بهم الآخِرونَ، جَمعُ سالفٍ، مِثلُ: حارِسٍ وحَرَسٍ، يُقالُ: سَلَف يَسلُفُ: إذا تقَدَّم ومَضى، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ وسَبْقٍ[٣].

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: عِبرةً وعِظةً تجري مَجرى المَثَلِ لِمَن بَقِيَ بَعْدَهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]

في ﴿أَمۡ﴾ هنا أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها «أم» المُنقَطِعةُ المقدَّرةُ بـ«بل» للإضرابِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

الانتِقاليِّ، والهَمزةِ الَّتي للإنكارِ أو للتَّقريرِ، أي: بل أأنا خَيرٌ. الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» فقط، أي: بلْ أنا خيرٌ، فيكونُ قد انتَقَل مِن ذلك الكَلامِ إلى إخبارِه بأنَّه خَيرٌ. الثَّالثُ: أنَّها مُتَّصِلةٌ، والمُعادِلُ محذوفٌ تقديرُه: «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَوضِعَ «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهم عندَه بُصَراءُ، وهذا مِن إنزالِ السَّبَبِ مَنزِلةَ المُسَبَّبِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن طُغيانِ فِرعونَ وغُرورِه وعِنادِه، واستِخفافِه بعقولِ قَومِه، فيقولُ: ونادى فِرعَونُ في قَومِه فقال: يا قَومِ أليس لي مُلكُ مِصرَ، وهذه الأنهارُ تجري بيْنَ يَدَيَّ في بَساتيني وقُصوري، أفلا تُبصِرونَ؟! بل أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذليلٌ، ولا يَكادُ يُفهَمُ كلامُه؛ لقِلَّةِ فَصاحتِه! فهلَّا أُلقِيَت عليه أساوِرُ مِن ذَهَبٍ، أو جاء معه الملائكةُ مُؤيِّدينَ له!

فحَمَل فِرعَونُ قَومَه على الخِفَّةِ والجَهلِ، فصَدَّقوه وأطاعوه؛ لأنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ باللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبَتِهم: فلمَّا أغضَبونا انتَقَمْنا منهم، فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٩).

﴿تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كُشِفَ عنهم العَذابُ بدَعوةِ موسى، وأضمَرَ فِرعَونُ ومَلَؤُه نَكْثَ الوَعدِ الَّذي وَعَدوه مُوسى بأنَّهم يَهتَدون؛ خَشِيَ فِرعَونُ أنْ يَتَّبِعَ قَومُه دَعوةَ مُوسَى ويُؤمِنوا برِسالَتِه، فأعلَن في قَومِه تَذكيرَهم بعَظَمةِ نَفْسِه؛ لِيُثَبِّتَهم على طاعتِه، ولِئَلَّا يُنقَلَ إليهم ما سأَله مِن مُوسى، وما حَصَل مِن دَعوتِه بكَشفِ العَذابِ، ولِيَحسَبوا أنَّ ارتِفاعَ العَذابِ أمْرٌ اتِّفاقيٌّ؛ إذ قَومُه لم يَطَّلِعوا على ما دار بيْنَه وبيْنَ مُوسَى مِن سُؤالِ كَشْفِ العَذابِ[١].

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾.

أي: ونادى فِرعَونُ في قَومِه القِبطِ مُفتَخِرًا مُتبَجِّحًا، فقال: يا قَومِ أليس لي وَحْدي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، لا يُنازِعُني أحَدٌ في التَّصرُّفِ فيها[٢]؟!

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾.

أي: وهذه الأنهارُ المتفَرِّعةُ مِن نَهرِ النِّيلِ تَجري بيْنَ يَدَيَّ في البَساتينِ والقُصورِ وغَيرِها[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابنُ عطية: (نِداءُ فِرعَونَ يحتمِلُ أن يكونَ بلِسانِه في ناديه، ويحتمِلُ أن يكونَ بأنْ أمَرَ مَن يُنادي في النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩).

وقال البقاعي: (﴿قَالَ﴾ أي: خَوفًا من إيمانِ القِبطِ لَمَّا رأى من أنَّ ما شاهَدوا من باهِرِ الآياتِ مِثلُه يُزلزِلُ ويأخُذُ بالقُلوبِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تُبصِرونَ -يا قَومِ- ما أنا فيه مِنَ المُلْكِ والعَظَمةِ، والقُوَّةِ والنَّعيمِ(١)؟!

﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ تَصغيرَ شَأنِ موسَى في نُفوسِهم بأشياءَ هي عَوارِضُ ليست مُؤثِّرةً؛ انتَقَل فِرعَونُ مِن تَعظيمِ شأنِ نَفْسِه إلى إظهارِ البَونِ بيْنَه وبيْنَ موسى الَّذي جاء يحَقِّرُ دينَه وعِبادةَ قَومِه إيَّاه، فقال(٢):

﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾.

أي: بل أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذَليلٌ(٣).

= (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(قال الخازن: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ يعني أنهارَ النِّيلِ الكبارَ، وكانت تَجْري تحتَ قصرِه، وقيل: معناه: تَجْري بينَ يديْ جِناني وبَساتيني، وقيل: تجري بأمري). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١ - ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

ممَّن اختار أنَّ (أمْ) هنا بمعنى (بلْ): ابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي -ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والرَّسْعَنيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠). =

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

أي: ولا يَكادُ يُعرِبُ عمَّا يُريدُ بوُضوحٍ؛ لِعِيِّ مَنطِقِه، وقِلَّةِ فَصاحتِه[(١)]!

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تضمَّن وصْفُ فِرعونَ لِموسى بـ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أنَّه مُكَذِّبٌ له

= قال ابن عاشور: (﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ بمعنَى «بل» لِلإضرابِ الانتِقاليِّ، والتَّقديرُ: بل أأنا خَيرٌ، والاستِفهامُ اللَّازِمُ تقديرُه بعدَها تقريريٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّه لَمَّا عَدَّد عليهم أسبابَ فَضلِه قال: قد تقرَّر عِندَكم أنِّي أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ... وقيل: هي متَّصِلةٌ؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَوضِعَ «تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهُم عِندَه بُصَراءُ. وهذا الوَجهُ حكاه الزَّجَّاجُ عن الخَليلِ وسِيبَوَيْهِ. وقال الفَرَّاءُ وجماعةٌ مِن أهلِ المعاني: الوَقفُ على قَولِه: ﴿أَمْ﴾، وفيه إضمارٌ مَجازُه: أفلا تُبصِرونَ أمْ تُبصِرونَ؟! ثمَّ ابتدأ فقال: «أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ»). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢).

قيل: عنى بقَولِه: ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ من هذا الَّذي هو ضَعيفٌ؛ لقِلَّةِ مالِه، وأنَّه ليس له مِنَ المُلكِ والسُّلطانِ مِثلُ ما له. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٣).

وقيل: أراد أنَّه غَريبٌ ليس مِن أهلِ بُيوتِ الشَّرَفِ في مِصرَ، وليس له أهلٌ يَعتَزُّ بهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١، ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أشار إلى عُقدةِ لِسانِه الَّتي كانت به ثمَّ أذهَبَها اللهُ عنه، فكأنَّه عيَّرَه بشَيءٍ قد كان وزال، ويدُلُّ على زوالِه قَولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وكان في سؤالِه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٠).

وقال ابنُ جُزَي: (وقَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَقتَضي أنَّه كان يُبِينُ؛ لأنَّ كاد إذا نُفِيَت تَقتضي الإثباتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

دَعواه الرِّسالةَ عن اللهِ؛ فرَّعَ عليه قولَه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؛ ترَقِّيًا في إحالةِ كَونِه رَسولًا مِن اللهِ، يُخَيِّلُ لِقَومِه -جَهلًا أو تَجاهُلًا- أنَّ للرِّسالةِ شِعارًا كشِعارِ المُلوكِ[١]!

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾.

أي: فهَلَّا أُلقِيَت على موسى -إن كان رَسولًا مِن رَبِّ العالَمينَ كما يَزعُمُ- أساوِرُ مِن ذَهَبٍ يَتحَلَّى بلُبسِها في يَدَيه[٢]!

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

أي: أو هلَّا جاء الملائِكةُ مُتتابِعينَ قد اقتَرن بعضُهم ببعضٍ، يَشهَدون لموسَى بصِدقِه، ويُعِينونَه على أمرِه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (لِيَكونَ ذلك أمارةً على صِدقِ صِحَّةِ دَعواه، كما نَفعلُ نحن عندَ إنعامِنا على أحدٍ من عَبيدِنا بالإرسالِ إلى ناحيةٍ مِن النَّواحي لِمُهِمٍّ مِن المهِمَّاتِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩).

وقال الثعلبي: (قال مجاهدٌ: كانوا إذا سَوَّدوا رَجُلًا سَوَّروه بسِوارٍ، وطَوَّقوه بطَوقٍ مِن ذَهَبٍ؛ يكونُ ذلك دَلالةً لسيادتِه، وعلامةً لرئاستِه). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (السِّوارُ: حَلْقةٌ عَريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسْغِ، هو عندَ مُعظَمِ الأُمَمِ مِن حِليةِ النِّساءِ الحرائِرِ... وكان السِّوارُ مِن شِعارِ الملوكِ بفارِسَ ومِصرَ، يَلبَسُ المَلِكُ سِوارَينِ، وقد كان مِن شِعارِ الفراعنةِ لُبسُ سِوارَينِ أو أَسورةٍ مِن ذَهَبٍ، ورُبَّما جَعَلوا سِوارَينِ على الرُّسغَينِ، وآخَرَينِ على العَضُدَينِ، فلمَّا تخيَّلَ فِرعَونُ أنَّ رُتبةَ الرِّسالةِ مِثلُ المُلْكِ، حَسِبَ افتقادَها -وهو مِن شِعارِ الملوكِ عِندَهم- أمارةً على انتِفاءِ الرِّسالةِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). =

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾.

= قال الماوَرْدي: (﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: مُتتابِعينَ، قاله قَتادةُ. الثَّاني: يُقارِنُ بعضُهم بعضًا في المَعونةِ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشُون معًا، قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣١)

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: مُتتابِعينَ يَتْلو بعضُهم بعضًا: الهَرَوي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: مُتتابِعينَ، يُقارِنُ بعضُهم بعضًا، يُعِينوه على أمرِه الَّذي بُعِث له، ويَشْهَدون له بِصِدْقِه: ابنُ جرير، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤١).

وقال الزَّجَّاج: (﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشون معه فيَدُلُّونَ على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١٥).

قال الواحدي معقِّبًا على قولِ الزَّجاجِ: (وقد جمَع بيْن هذه الأقوالِ كلِّها؛ لأنَّه فسَّر الاقتِرانَ ومُوجبَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٦٠).

وقال البقاعي: (﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا بحيثُ يَملؤونَ الفَضاءَ، ويكونونَ في غايةِ القُربِ منه، بحيث يكونُ مُقارِنًا لهم؛ لِيُجابَ إلى هذا الأمرِ الَّذي جاء يَطلُبُه، كما نفعلُ نحن إذا أرسَلْنا رَسولًا إلى أمرٍ يَحتاجُ إلى دِفاعٍ وخِصامٍ ونِزاعٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩، ٤٥٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: مُقتَرِنينَ به لا يُفارِقونَه، أو مُتقارِنينَ بعضُهم مع بعضٍ؛ لِيَشهَدوا له، ويُقيموا الحُجَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال القرطبي: (المعنى: هلَّا ضَمَّ إليه الملائِكةَ الَّتي يزعُمُ أنَّها عندَ رَبِّه؛ حتَّى يَتكثَّرَ بهم، ويُصَرِّفَهم على أمرِه ونَهْيِه، فيَكونَ ذلك أهْيَبَ في القُلوبِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠).

وقال ابن عاشور: (﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، أي: مُقترِنينَ معه؛ فهذه الحالُ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى ﴿مَعَهُ﴾؛ لئلَّا يُحمَلَ معنى المعيَّةِ على إرادةِ أنَّ الملائكةَ تُؤيِّدُه بالقولِ، مِن قولِهم: قَرَنْتُه به فاقتَرَنَ، أي: مُقترِنينَ بمُوسى، وهو اقتِرانُ النَّصيرِ لِنَصيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣).

أي: فاستَخَفَّ فِرعَونُ عُقولَ قَومِه، فصدَّقوا باطِلَه وشُبَهَه، واستَجابوا له[(١)]!

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

أي: لأنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ باللهِ تعالى، خارِجينَ عن طاعتِه، خَذَلهم اللهُ فأطاعوا فِرعَونَ حيثُ زَيَّن لهم الشَّرَّ[(٢)].

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عقَّب ما مضَى مِن القِصَّةِ بالمقصودِ، وهو هذه الأمورُ الثَّلاثةُ المترتِّبةُ المتفرِّعُ بَعضُها على بَعضٍ؛ وهي: الانتِقامُ، فالإغراقُ، فالاعتِبارُ بهم في الأُمَمِ بَعْدَهم[(٣)].

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابن عطيَّة: (أخبر تعالى عن فِرعَونَ أنَّه استخفَّ قَومَه بهذه المَقالةِ، أي: طلَب خِفَّتَهم وإجابتَهم إلى غرَضِه، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفرِ؛ لِفِسْقِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استَخَفَّ عُقولَهم بما أبدى لهم مِن هذه الشُّبَهِ الَّتي لا تُسمِنُ ولا تُغْني مِن جوعٍ، ولا حقيقةَ تحتَها، وليست دليلًا على حَقٍّ ولا على باطِلٍ، ولا تَرُوجُ إلَّا على ضُعَفاءِ العُقولِ! فأيُّ دَليلٍ يدُلُّ على أنَّ فِرعَونَ مُحِقٌّ لِكَونِ مُلكِ مِصرَ له، وأنهارِه تجري مِن تحتِه؟! وأيُّ دليلٍ يدُلُّ على بُطلانِ ما جاء به موسى لقِلَّةِ أتْباعِه، وثِقلِ لِسانِه، وعدَمِ تَحليةِ الله له؟! ولكِنَّه لَقِيَ مَلأً لا عُقُولَ عندَهم، فمهما قال اتَّبَعوه؛ مِن حَقٍّ وباطلٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

أي: فلمَّا أغضَبَنا فِرعَونُ وقومُه أوقَعْنا بهم عُقوبَتَنا العاجِلةَ في الدُّنيا[(١)].

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فلم نُنجِ منهم أحَدًا[(٢)].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان إهلاكُهم بسَبَبِ إغضابِهم الله تعالى، وبالكِبْرِ على رُسُلِه؛ كانوا سَبَبًا لِأنْ يَتَّعِظَ بحالِهم مَن يأتي بَعْدَهم[(٣)].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ، قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمِثلِ عمَلِهم جُوزيَ بجزائِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٢).

قال ابن عطية: (﴿ءَاسَفُونَا﴾ معناه: أغضَبونا، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

قال النَّحَّاسُ: (وقولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ قال لاحِقُ بنُ حُمَيْدٍ: أي: جعَلْناهم سَلَفًا لِمَن عَمِل بعمَلِهم، ومَثَلًا لِمَن لم يَعمَلْ بعمَلِهم. وقال مجاهِدٌ: هم قومُ فِرعونَ، =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تعزَّز فِرعونُ بمُلكِ مِصرَ، وجَرْيِ النِّيلِ بأمْرِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكان في ذلك هَلاكُه؛ لِيُعلَمَ أنَّه قد يَتعزَّزُ المرءُ بشَيءٍ مِن دُونِ اللهِ فيَكونُ حَتْفُه وهلاكُه في ذلك الشَّيءِ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ استصغَرَ فِرعَونُ موسى

= سلَفٌ لِكُفَّارِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِبرةً. وقال قَتادةُ: ﴿سَلَفًا﴾ إلى النَّارِ ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِظَةً... قال أبو جعفرٍ [النَّحَّاسُ]: هذه الأقوالُ مُتقارِبةٌ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَمَثَلًا﴾ عِبرةً لهم. وقيل: «مَثَلًا»: حديثًا عجيبَ الشأنِ، يَجري فيهم مَجرَى المثَلِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ (مَثَلًا) أي: عِبرةً وعِظةً: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أي: حديثًا عجيبَ الشَّأنِ، يَجري فيهم مجرَى المثَلِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ البقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠).

وحديثَه، وعابه بالفَقرِ والعِيِّ؛ فسَلَّطَه الله عليه، وكان هَلاكُه بيَدَيه، فلا يَستصغِرْ أحدٌ أحدًا فيُسَلِّطَه اللهُ عليه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس أنَّ موسى عليه السَّلامُ سأل اللهَ تعالى أن يُزيلَ الرُّتَّةَ(٢) عن لِسانِه، بقَولِه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، فأعطاه اللهُ تعالى ذلك، بقَولِه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، فكيف عابَه فِرعَونُ بتلك الرُّتَّةِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ فِرعَونُ أراد بقَولِه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: حُجَّتَه الَّتي تدُلُّ على صِدقِه فيما يَدَّعي، ولم يُرِدْ أنَّه لا قُدرةَ له على الكلامِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه عابَه بما كان عليه أوَّلًا؛ وذلك أنَّ موسى كان عندَ فِرعَونَ زَمانًا طَويلًا، وفي لِسانِه حُبْسةٌ، فنَسَبَه فِرعَونُ إلى ما عَهِدَه عليه مِنَ الرُّتَّةِ؛ لأنَّه لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى أزال ذلك العَيبَ عنه(٣).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ فِرعَونَ قد كَذَب في جميعِ قَولِه؛ فقد كان موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبلَغَ أهلِ زَمانِه قَولًا وفِعلًا، ولكِنَّ الخَبيثَ أسنَدَ هذا إلى ما بَقِيَ في لسانِه مِن الحُبْسةِ؛ تَخييلًا لأتْباعِه؛ لأنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما دعا بإزالةِ حُبْستِه، بل بعُقدةٍ منها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٨).

(٢) الرُّتَّةُ: حُبْسةٌ وعُقدةٌ في اللِّسانِ، مع عَجَلةٍ في الكلامِ وقِلَّةِ أناةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ فيما يَنفُونَ عن اللهِ تعالى مِن كُلِّ صِفةٍ يُشارِكُه فيها خَلْقُه؛ إذ قد أخبَرَ تعالى عن نَفْسِه أنَّهم قد أغضَبوه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الغَضَبِ بالانتِقامِ؛ فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا ﴾: أغضَبونا، فجَعَلَ الانتِقامَ غيرَ الغَضَبِ، فقال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا ﴾، جعَلَ الانتِقامَ أثرًا مُتَرَتِّبًا على الغَضَبِ؛ فدلَّ هذا على بُطلانِ تفسيرِ الغَضَبِ بالانتِقامِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ إثباتُ الأسبابِ(٣).

٥- المَقصودُ مِن قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلامُ هو قَولُه فيها: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ * فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾[الزخرف: ٥٥، ٥٦]؛ فإنَّ المُرادَ بـ(الآخِرين): المُكَذِّبون صَناديدُ قُرَيشٍ، و(مِن) المَقصودُ منها بالخُصوصِ هنا قَولُه: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [الزخرف: ٤٦]، أي: عُظماءِ قَومِه؛ فإنَّ ذلك شَبيهٌ بحَالِ أبي جَهلٍ وأضرابِه، وقَولُه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ لأنَّ حالَهُم في ذلك مُشابِهٌ لحالِ قُرَيشٍ، وقَولُه بعْدَ ذلك: ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ لأنَّهم أشبَهُوا بذلك حالَ أبي جَهلٍ ونَحوِه في قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ إلَّا أنَّ كَلِمةَ سادةِ قُرَيشٍ كانتْ أقرَبَ إلى الأدَبِ مِن كَلِمةِ فِرعَونَ؛ لأنَّ هَؤلاءِ كان رَسولُهم مِن قَومِهم، فلم يَترُكوا جانِبَ الحَياءِ بالمَرَّةِ، وفِرعَونُ كان رَسولُه غَريبًا عنهم، وقَولُه: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]؛ لأنَّه مُشابهٌ لِمَا تَضَمَّنَه قولُ صَناديدِ قُرَيشٍ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ عَظَمةَ ذَيْنِك الرَّجُلَين كانتْ بوَفرةِ المالِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ مِثلُه في غَيرِ هذه القِصَّةِ مِن قَصَصِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ، وقولُهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهو مُضاهٍ لقَولِه في قُرَيشٍ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، وقولُه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] الدَّالُّ على أنَّ اللهَ أهلَكَهم كُلَّهُم، وذلك إنذارٌ بما حَصَل مِن استِئصالِ صَناديدِ قُرَيشٍ يومَ بَدرٍ؛ فحَصَل مِن العِبرةِ في هذه القِصَّةِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الكُفَّارَ والجَهَلةَ يَتمسَّكُون بمِثلِ هذه الشُّبهةِ في ردِّ فَضلِ الفُضَلاءِ؛ فيَتمسَّكون بخُيوطِ العَنكَبوتِ مِن الأُمورِ العَرَضيَّةِ الَّتي لا أثَرَ لها في قِيمةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ. وثانيهما: أنَّ فِرعَونَ صاحِبَ العَظَمةِ الدُّنيَويَّةِ المَحضَةِ صار مَقهورًا مَغلوبًا، انتَصَر عليه الَّذي استَضْعَفَه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ جَعَلهم مَحِلًّا لِنِدائِه ومَوقِعًا له، والمَعنَى: أنَّه أمَرَ بالنِّداءِ في مَجامِعِهم وأماكِنِهم مَن نَادَى فيها بذلك؛ فأُسنِدَ النِّداءُ إليه؛ كقَولِكَ: قَطَعَ الأميرُ اللِّصَّ؛ إذا أمَر بقَطعِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عِندَه عُظَماءُ القِبطِ، فيَرفَعُ صَوتَه بذلك فيما بيْنَهم، ثمَّ يُنشَرُ عنه في جُموعِ القِبطِ، فكأنَّه نُودِيَ به بيْنَهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٤، ٩٦).

- قولُه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الإشارةُ إلى جَداولِ النِّيلِ وفُروعِه المشهورةِ بيْنَ أهلِ المدينةِ؛ كأنَّها مُشاهَدةٌ لِعُيونِهم[1].

- ومعنى قَولِه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يَحتَمِلُ أنَّ الأنهارَ كانت تَجري تَحتَ قَصرِه. ويحتمِلُ أنْ يَكونَ ادَّعى أنَّ النِّيلَ يَجري بأمْرِه؛ فيَكونَ ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ كِنايةً عن التَّسخيرِ. ويحتمِلُ أنَّه أراد أنَّ النِّيلَ يَجري في مَملَكَتِه مِن بِلادِ أُسوانَ إلى البَحرِ؛ فيَكونَ المرادُ التَّمَكُّنَ مِن تَصاريفِ النِّيلِ، وكان مِثلُ هذا الكَلامِ يَروجُ على الدَّهماءِ؛ لِسَذاجةِ عُقولِهم. ويَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ بالأنهارِ مَصَبَّ المِياهِ الَّتي كانت تَسقِي المَدينةَ والبَساتينَ الَّتي حَوْلَها، وأنَّ تَوزيعَ المِياهِ كان بأمْرِه في سِدَادٍ وخَزَّاناتٍ؛ فهو يُهَوِّلُ عليهم بأنَّه إذا شاء قَطَع عنهم الماءَ، فيَكونَ معنى ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾: مِن تَحتِ أَمرِي، أي: لا تَجرِي إلَّا بأَمرِي[2].

- والاستِفهامُ في ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَقريريٌّ؛ جاء التَّقريرُ على النَّفيِ؛ تَحقيقًا لإقرارِهِم حتَّى أنَّ المُقرِّرَ يَفرِضُ لهم الإنكارَ؛ فلا يُنكِرون، وهو يُريدُ بذلك استِعظامَ مُلكِه[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ قال فِرعونُ ذلك تَعريضًا بمُوسى عليه السَّلامُ، ومُبالَغةً في التَّعبيرِ بأنَّه ليس معه مِن العُدَدِ وآلاتِ المُلكِ والسِّياسةِ ما يَعتَضِدُ به[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي =

- والإشارَةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ للتَّحقيرِ(١).

- وجاء بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لادِّعاءِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ شَيءٌ عُرِفَ به مُوسَى(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

- لَمَّا وَصَف نَفْسَه بالعِزَّةِ والمُلكِ، ووازَنَ بيْنَه وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ؛ فوَصَفَه بالضَّعفِ وقِلَّةِ الأَعضادِ مِن المَلائكةِ؛ اعترَض فقال: هَلَّا إنْ كان صادِقًا مَلَّكَه رَبُّه وسَوَّدَه وسَوَّرَه، وجَعَلَ المَلائكةَ أَعضادَهُ وأنصارَه(٣)!

- و(لَولَا) حَرفُ تَحضيضٍ مُستَعمَلٌ في التَّعجيزِ(٤).

- قَولُه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ﴾ الإلقاءُ: الرَّميُ، وهو مُستَعمَلٌ هنا في الإنزالِ، أي: هلَّا أُلقِيَ عليه مِن السَّماءِ أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، أي: سَوَّرَه الرَّبُّ بها؛ لِيَجعلَه مَلِكًا على الأُمَّةِ(٥).

- قولُه: ﴿أَوْ جَآءَ﴾ حَرفُ (أو) للتَّرديدِ، أي: إنْ لم تُلْقَ عليه أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، فلْتَجِئْ معه طَوائِفُ مِن المَلائكةِ شاهِدِينَ له بالرِّسالةِ، ولَعَلَّ فِرعَونَ ذَكَرَ المَلائكةَ مُجاراةً لمُوسى عليه السَّلامُ؛ إذ لَعَلَّه سَمِعَ منه أنَّ لِلَّهِ مَلائكةً أو نحوَ ذلك في مَقامِ الدَّعوةِ؛ فأراد إفحامَه بأنْ يأتيَ معه بالملائكةِ الَّذين

= حيان)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَظهَرون له[1]. ولا مانعَ أن يكونَ ذلك معلومًا عندَهم، كما قال مَن قبْلَهم مِن نساءِ القِبطِ في يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: فتَفَرَّعَ عن نِداءِ فِرعَونَ قَومَه أنْ أَثَّرَ بتَمويهِه في نُفوسِ مَلَئِه؛ فعَجَّلوا بطاعَتِه بعْدَ أنْ كانوا مُتَهَيِّئِينَ لاتِّباعِ مُوسَى لَمَّا رَأَوُا الآياتِ؛ فالخِفَّةُ مُعَبَّرٌ بها هنا عن الانتِقالِ مِن حالةِ التَّأمُّلِ في خَلْعِ طاعةِ فِرعَونَ، والتَّثاقُلِ في اتِّباعِه، إلى التَّعجيلِ بالامتِثالِ له، كما يَخِفُّ الشَّيءُ بعدَ التَّثاقُلِ، والمعنَى يَرجِعُ إلى أنَّه استَخَفَّ عُقولَهم، فأسرَعوا إلى التَّصديقِ بما قالَه بعْدَ أنْ صدَّقُوا موسى في نُفوسِهم لَمَّا رَأَوْا آياتِه نُزولًا ورَفْعًا[2].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ للمُبالَغةِ في (أَخَفَّ)، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[3] [آل عمران: ١٥٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾؛ فإنَّ كَونَهم قد كانوا فاسِقينَ أمْرٌ بَيِّنٌ؛ ضَرورةَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ جاءَهم فدَعاهُم إلى تَركِ ما كانوا عليه مِن عِبادةِ الأصنامِ، فلا يَقتَضي في المَقامِ تأكيدُ كَونِهم فاسِقينَ، أي: كافِرين. والمعنَى: أنَّهم إنَّما خَفُّوا لِطاعةِ رَأسِ الكُفرِ؛ لِقُربِ عَهدِهم بالكُفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُؤَلِّهُون فِرعَونَ، فلمَّا حَصَل لهم تَرَدُّدٌ في شأنِه ببَعثةِ موسى عليه السَّلامُ، لم يَلبَثُوا أنْ رَجَعوا إلى طاعةِ فِرعَونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأدنَى سَبَبٍ[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ إيجازٌ؛ لأنَّ كَونَهُم مُؤسِفينَ لم يَتقَدَّمْ له ذِكرٌ حتَّى يُبنَى أنَّه كان سببًا للانتِقامِ منهم؛ فدلَّ إِناطةُ أداةِ التَّوقيتِ به على أنَّه قد حَصَل، والتَّقديرُ: فآسَفُونا، فلمَّا آسَفُونا انتَقَمْنا منهم[(٢)].

- وإنَّما عُطِفَ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ على ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، مع أنَّ إغراقَهم هو عَينُ الانتِقامِ منهم؛ إمَّا لأنَّ فِعلَ (انتَقَمْنا) مُؤَوَّلٌ بـ: قدَّرْنا الانتِقامَ منهم؛ فيَكون عَطفُ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ كالعَطفِ في قَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وإمَّا أن تُجعلَ الفاءُ زائِدةً؛ لتأكيدِ تَسبُّبِ ﴿ءَاسَفُونَا ﴾ في الإغراقِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ المَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِهُ، وأُطلِقَ المَثَلُ على لازِمِه على سَبيلِ الكِنايةِ، أي: جَعَلْناهُم عِبرةً للآخِرينَ؛ يَعلَمون أنَّهُم إنْ عَمِلوا مِثلَ عَمَلِهم أصابَهم مِثلُ ما أصابَهُم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَثَلُ هنا بمَعنَى الحَديثِ العَجيبِ الشَّأنِ الَّذي يَسيرُ بيْنَ النَّاسِ مَسِيرَ الأَمثالِ، أي: جَعَلْناهُم للآخِرينَ حَديثًا يَتحَدَّثون به، ويَعِظُهُم به مُحَدِّثُهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٥٤-٦٧).

الآيات (٥٧-٦٥)

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ
وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠
وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ
يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصِدُّونَ﴾: أي: يَضِجُّونَ، وقيل: يَضْحَكون، يُقالُ: صَدَّ يَصِدُّ، وذلك إذا ضَجَّ[1].

﴿خَصِمُونَ﴾: أي: شَديدو الخُصومةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[2].

﴿يَخۡلُفُونَ﴾: أي: يَخلُفُ بَعضُهم بعضًا، ويَعمُرونَ الأرضَ بدَلًا منكم، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((البسيط)) =

﴿لَعِلْمٌ﴾: أي: لَعَلامةٌ ودَليلٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتمَيَّزُ به عن غَيرِه[١].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: أي: لا تُكَذِّبوا بها، ولا تَشُكُّوا فيها، مِن المِرْيةِ: وهي التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُه مِن: مَرَيْتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرعَها للحَلبِ[٢].

﴿الْأَحْزَابُ﴾: أي: الطَّوائِفُ والفِرَقُ، والحِزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن تَعَنُّتِ المشركينَ، وتَعَمُّدِهم العِنادَ والجدلَ: ولَمَّا ضَرَب المُشرِكونَ عيسى ابنَ مريمَ مَثَلًا لآلهتِهم الَّتي يَعبُدونَها من دونِ اللهِ تعالى، وجادَلوا بعبادةِ النَّصارى إيَّاه؛ إذا قَومُك -يا مُحمَّدُ- تَرتَفِعُ لهم جَلَبةٌ وضَجيجٌ؛ فَرَحًا وضَحِكًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ! وقالوا: لقد أخبَرْتَنا بأنَّ عيسى بنَ مَريمَ رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ، وأنَّه خَيرٌ مِن آلهتِنا، فإنْ كان في النَّارِ يومَ القيامةِ؛ لِما تَتْلوه علينا مِن قَولِ رَبِّك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

= للواحدي (٢٠/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠،١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا في النَّارِ معه!

فلا تهتَمَّ -يا مُحمَّدُ- بما قالوه؛ فما ضَرَبوا لك هذا المَثَلَ بعيسى إلَّا مِن أجْلِ مُجادَلتِك بالباطِلِ، بل هم قَومٌ شَدِيدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، لا يُريدون الحَقَّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حقيقةَ عيسى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بنِعمةِ النُّبُوَّةِ، وجعَلْناه آيةً عَجيبةً لبني إسرائيلَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قدرتِه: ولو نشاءُ لَجعَلْنا منكم مَلائِكةً يَخلُفُونَ فيها، وإنَّ نُزولَ عيسى ابنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ؛ فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ، وأطيعوني؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى الحَقِّ، ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

ثمَّ يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ معَ قَومِه، فيقولُ: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ على صِدقِه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ، ولِأُبَيِّنَ لكم بعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه، فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، هذا طَريقٌ مُستَقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ أهلِ الكتابِ مِن دعوةِ عيسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يَومِ القيامةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا كثيرةً مِن كُفْريَّاتِ المُشرِكينَ في هذه السُّورةِ، وأجاب عنها بالوُجوهِ الكَثيرةِ؛ فأوَّلُها: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، وثانيها: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وثالثُها: قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ورابِعُها: قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وخامِسُها: هذه الآيةُ هنا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طَرَفًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ذَكَرَ طَرَفًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[٢].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِقُرَيشٍ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّه ليس أحَدٌ يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فيه خَيرٌ -وقد عَلِمَتْ قُرَيشٌ أنَّ النَّصارى تَعبُدُ عيسى بنَ مَريمَ، وما تَقولُ في مُحمَّدٍ[٣]-، فقالوا: يا محمَّدُ، ألَسْتَ تَزعُمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعَبدًا من عِبادِ اللهِ صالِحًا؟! فلَئِنْ كُنتَ صادِقًا فإنَّ آلِهتَهم لَكَما تقولونَ! قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤).

(٣) أي: وما تقولُ النَّصارى في محمَّدٍ مِن عدَمِ تصديقِهم بنُبوَّتِه. يُنظر: ((الفتح الرباني)) للساعاتي (١٨/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٩١٨) واللَّفظُ له، والطحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٩٨٧)، والطبراني (١٢/ ١٥٤) (١٢٧٤٠).
=

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا مُحمَّدُ، تَزعُمُ أنَّ اللهَ أنزل عليك هذه الآيةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقد عُبِدَت الشَّمسُ والقَمَرُ، والملائكةُ وعُزَيرٌ وعيسى صلواتُ اللهِ عليهم، أوَكُلُّ هؤلاء في النَّارِ مع آلهتِنا؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ونَزَلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾))[(١)].

= صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٣٢٩)، وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٠٨)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٨٦).

(١) أخرجه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨) واللَّفظ له، والطبراني (١٢/ ١٥٣) (١٢٧٣٩)، والحاكم (٣٤٤٩).

صَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وابنُ القَيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ١٢٣)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (٢/ ١٧٣)، وقوَّى إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨).

قال ابنُ عاشور: (لا يُناكِدُ هذا الوَجهَ إلَّا ما جرى عليه عَدُّ السُّوَرِ في ترتيبِ النُّزولِ مِن عَدِّ سورةِ الأنبياءِ -الَّتي كانت آيتُها سَبَبَ المُجادَلةِ- مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُف، ولعَلَّ تصحيحَ هذا الوَجهِ عِندَهم يَكُرُّ بالإبطالِ على مَن جَعَل سورةَ الأنبياءِ مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، بل يَجِبُ أن تكونَ سابِقةً؛ حتَّى تكونَ هذه الآيةُ مُذَكِّرةً بالقِصَّةِ الَّتي كانت سَبَبَ نُزولِ سورةِ الأنبياءِ، وليس ترتيبُ النُّزولِ بُمتَّفَقٍ عليه، ولا بمُحَقَّقِ السَّنَدِ، فهو يُقبَلُ منه ما لا مُعارِضَ له، على أنَّه قد تَنزِلُ الآيةُ ثمَّ تُلحَقُ بسُورةٍ نَزَلت قبْلَها، فإذا رُجِّحَ أن تكونَ سورةُ الأنبياءِ نَزَلَت قبْلَ سُورةِ الزُّخرف كان الجَوابُ القاطِعُ لابنِ الزِّبَعْرَى في قَولِه تعالى فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأنَّه يعني أنَّ عَدَمَ شُمولِ قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لعيسى معلومٌ لِكُلِّ مَن له نظَرٌ وإنصافٌ؛ لأنَّ الحُكمَ فيها إنَّما أُسنِدَ إلى مَعبوداتِ المُشرِكينَ لا إلى معبودِ النَّصارى... ويكونُ الجوابُ المذكورُ هنا في سُورةِ الزُّخرُفِ بقَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ جوابًا =

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكَسرِ الصَّادِ، قيل معناها: يَضِجُّونَ ويَصيحون فَرَحًا. وقيل: يَضحَكونَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضَمِّ الصَّادِ، قيل معناها: يُعرِضونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو: يَضِجُّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنى يَضحَكونَ[٢].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

أي: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى بنَ مَريمَ مَثَلًا للآلهةِ الَّتي تُعبَدُ مِن دُونِ

= إجماليًّا، أي: ما أرادوا به إلَّا التَّمويهَ؛ لأنَّهم لا يخفى عليهم أنَّ آيةَ سُورةِ الأنبياءِ تُفيدُ أنَّ عيسى ليس حَصَبَ جَهنَّمَ، والمقامُ هنا مقامُ إجمالٍ؛ لأنَّ هذه الآيةَ إشارةٌ وتذكيرٌ إلى ما سَبَق مِنَ الحادثةِ حينَ نُزولِ آيةِ سُورةِ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وعاصمٌ، وحمزةُ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢).

قال ابن قتيبة: (﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّون، يُقالُ: صَدَدتُ أصِدُّ صَدًّا: إذا ضَجَجْتَ. و«التَّصدِيةُ» منه، وهو: التَّصفيقُ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٠٠).

وقال ابن كثير: (قال غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: يَضحَكونَ، أي: أُعجِبوا بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ٤١٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣).

اللهِ تعالى -حيثُ عَبَده النَّصارى-؛ لِيُحاجُّوا به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الَّذي أخبَرَهم بأنَّ كُلَّ ما عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ فمآلُه النَّارُ: إذا قَومُك -يا محمَّدُ- قد أحدَثوا جَلَبةً وضَجيجًا وضَحِكًا؛ فَرَحًا وسُرورًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد أفحَموك بتلك الشُّبهةِ الباطِلةِ، وأنَّهم ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ[1]!

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾.

أي: وقال أولئك المُشرِكونَ: أآلهتُنا خيرٌ أمْ عيسَى، فإن كان عيسَى يَدخُلُ النَّارَ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه؛ لأنَّه خيرٌ مِن آلهتِنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦-٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في مُجادَلةِ ابنِ الزِّبَعْرى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا نزَل قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٧٨).

وقال الشنقيطي: (قال جمهورُ المفَسِّرينَ: هو عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْميُّ قبْلَ إسلامِه. أي: ولَمَّا ضَرَب ابنُ الزِّبَعْرَى المذكورُ عيسى بنَ مريمَ، فاجأَك قومُك بالضَّجيجِ والصِّياحِ والضَّحِكِ؛ فَرَحًا منهم، وزعمًا منهم أنَّ ابنَ الزِّبَعْرَى خَصَمَك، أو فاجأَك صُدودُهم عن الإيمانِ؛ بسَبَبِ ذلك المَثَلِ. والظَّاهِرُ أنَّ لَفظةَ ﴿مِنۡ﴾ هنا سَبَبِيَّةٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣).

قال السمعاني: (وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: وهو أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكَرَ حديثَ عيسى لقُرَيش، وأنَّه خلَقَه اللهُ تعالى من غيرِ أبٍ، كما خلَقَ آدمَ مِن غيرِ أبٍ، وذكَرَ ما أظهَرَ اللهُ على يَدِه من الآياتِ- جَعَلَت قُرَيشٌ يَضحَكونَ، وقالوا: ما يُريدُ محمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَت النَّصارى عيسى! وهذا قَولُ مجاهِدٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣). =

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

أي: ما ذَكَر لك كُفَّارُ قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- هذا المَثَلَ بِعيسى وتَشبيهَه بآلهتِهم إلَّا مِن بابِ المُغالَطةِ بالباطِلِ؛ لِقَصدِ مُغالَبتِك[1].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

أي: هم لا يُريدونَ بجِدالِهم مَعرِفةَ الحَقِّ واتِّباعَه، وإنَّما هم قَومٌ شَديدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، فيَرُدُّونَ الحَقَّ مع ظُهورِه لهم، ومَعرِفتِهم بأنَّ ما

= قال الشنقيطي: (زَعَم ابنُ الزِّبَعْرَى أنَّ كَلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا اقتضى مُساواةَ الأصنامِ مع عيسى في دُخولِ النَّارِ، مع أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعترِفُ بأنَّ عيسى رسولُ الله، وأنَّه ليس في النَّارِ؛ دَلَّ ذلك على بُطلانِ كَلامِه عندَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿هُوَ﴾ راجِعٌ إلى عيسى لا إلى محمَّدٍ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. قال بعضُ العلماءِ: ومُرادُهم بالاستفهامِ تَفضيلُ مَعبوداتِهم على عيسى. قيل: لأنَّهم يتَّخذونَ الملائكةَ آلهةً، والملائكةُ أفضَلُ عِندَهم مِن عيسى، وعلى هذا فمُرادُهم أنَّ عيسى عُبِدَ مِن دونِ الله، ولم يكُنْ ذلك سببًا لِكَونِه في النَّارِ، ومَعبوداتُنا خَيرٌ مِن عيسى، فكيف تَزعُمُ أنَّهم في النَّارِ؟! وقال بعضُ العلماءِ: أرادوا تفضيلَ عيسى على آلهتِهم. والمعنى على هذا: أنَّهم يقولون: عيسى خيرٌ مِن آلهتِنا -أي: في زَعمِك- وأنت تَزعُمُ أنَّه في النَّارِ بمقتضى عُمومِ ما تَتْلوه مِن قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وعيسى عَبَدَه النَّصارى مِن دونِ اللهِ؛ فدَلالةُ قَولِك على أنَّ عيسى في النَّارِ مع اعترافِك بخِلافِ ذلك يدُلُّ على أنَّ ما تقولُه مِن أنَّا وآلِهَتَنا في النَّارِ: ليس بحَقٍّ أيضًا!). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٦، ١٢٧).

وقيل -بِناءً على القولِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكر حديثَ عيسى قالوا: ما يُريدُ مُحمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَتِ النَّصارَى عيسى- قيل: إنَّ معنى ﴿ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: مُحمَّدٌ، فإذا كان مُحمَّدٌ يَطلُبُ أن نَعبُدَه فنحنُ نَعبُدُ آلِهَتَنا. فهو سؤالُ تقريرٍ أنَّ آلهتَهم خَيرٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤).

يُظهِرونَه مِن حُجَجٍ مُجَرَّدُ شُبَهٍ باطِلةٍ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ[٢]))[٣].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾.

أي: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بالإيمانِ، والنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، وتأييدِه بالمُعجِزاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧).

(٢) الألَدُّ الخَصِمُ: أي: الشَّديدُ الخُصومةِ، المُولَعُ بها. الألَدُّ: مأخوذٌ مِن لَدِيدَيِ الوادي، وهما جانِباه؛ لأنَّه كلَّما احتُجَّ عليه بحُجَّةٍ أخَذ في جانبٍ آخَرَ. والخَصِمُ: هو الحاذِقُ بالخُصومةِ، والمذمومُ هو الخُصومةُ بالباطِلِ، في رفعِ حقٍّ، أو إثباتِ باطِلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٤٢).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧، ١٢٨).

سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: وجعَلْنا عيسى آيةً ودَلالةً وحُجَّةً لِبَني إسرائيلَ، يَستدِلُّونَ بخَلْقِه مِن غَيرِ أبٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى على خَلْقِ ما يَشاءُ، وليس هو ابنًا للهِ كما تَزعُمُ النَّصارى[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أشارت الآيةُ السَّابقةُ إلى إبطالِ ضَلالةِ الَّذين زَعَموا عيسى -عليه السَّلامُ- ابنًا لله تعالى، مِن قَصْرِه على كَونِه عَبدًا لله أنعَمَ اللهُ عليه بالرِّسالةِ، وأنَّه عِبرةٌ لِبَني إسرائيلَ؛ عُقِّب ذلك بإبطالِ ما يُماثِلُ تلك الضَّلالةَ، وهي ضَلالةُ بَعضِ المُشرِكينَ في ادِّعاءِ بُنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى، المتقَدِّمُ حِكايتُها في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا ﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، فأُشيرَ إلى أنَّ الملائِكةَ عِبادٌ لله تعالى، جَعَل مكانَهم العَوالِمَ العُليا، وأنَّه لو شاء لَجعَلَهم مِن سُكَّانِ الأرضِ بَدَلًا عن النَّاسِ[(٢)].

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لَجعَلْنا بدَلًا مِنكم ملائِكةً يَسكُنونَ في الأرضِ، فيَخلُفونَ فيها[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾.

أي: وإنَّ نُزولَ عيسى بنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ، فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ؛ فإنَّها آتيةٌ لا مَحالةَ(١).

= قال ابن جُزَي: (في معناها قولانِ؛ أحَدُهما: لو نَشاءُ لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً يَسكُنونَ الأرضَ ويَخلُفونَ فيها بني آدَمَ، فقَولُه: ﴿مِنكُم﴾ يتعَلَّقُ بـ«بَدَل» المحذوفِ، أو بـ﴿يَخْلُفُونَ﴾. والآخَرُ: لو نشاءُ لجعَلْنا منكم، أي: لوَلَّدْنا منكم أولادًا مَلائِكةً يَخلُفونَكم في الأرضِ، كما يَخلُفُكم أولادُكم؛ فإنَّا قادِرونَ على أن نَخلُقَ مِن أولادِ النَّاسِ مَلائِكةً، فلا تُنكِروا أنْ خَلَقْنا عيسى مِن غيرِ والدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ ونسَبَه لعامَّةِ المفَسِّرينَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لَجعَلْنا -أيُّها الإنسُ- ملائكةً يتولَّدون منكم: الزمخشري، واستحسنه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦).

قال ابنُ كثير: (﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال السُّدِّيُّ: يَخلُفونَك فيها. وقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يَخلُفُ بعضُهم بعضًا، كما يَخلُفُ بعضُكم بعضًا. وهذا القَولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ. وقال مجاهدٌ: يَعمُرونَ الأرضَ بَدَلَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: نُزولُ عيسى عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، وأبو العاليةِ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

= قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفَسِّرون: يعني: نُزولَ عيسى مِن السَّماءِ مِن أشراطِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويكونُ التَّقديرُ على هذا: ظُهورَه أو نُزولَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّ القُرآنَ عِلْمُ السَّاعةِ؛ لِما فيه مِن البَعثِ والجزاءِ. قاله الحَسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْر. الثَّاني: أنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على السَّاعةِ وبَعثِ الموتى. قاله ابنُ إسحاقَ. الثَّالثُ: أنَّ خُروجَ عيسى عِلْمُ السَّاعةِ؛ لأنَّه مِن علامةِ القيامةِ وشُروطِ السَّاعةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٥).

وقال ابن جرير: (وقال آخَرون: الهاءُ الَّتي في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مِن ذِكرِ القرآنِ، وقالوا: معنَى الكلامِ: وإنَّ هذا القرآنَ لَعَلَمٌ للسَّاعةِ؛ يُعلِمُكم بقيامِها، ويُخبِرُكم عنها وعن أهوالِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٣).

وقيل: الإشارةُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذكر هذا القولَ: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (فأمَّا على القَولِ بأنَّه لعيسى أو لمحمَّدٍ فالمعنى أنَّه شَرَطٌ مِن أشراطِ السَّاعةِ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فسُمِّيَ الشَّرَطُ عِلْمًا لحُصولِ العِلمِ به؛ ولذلك قرأ ابنُ عبَّاسٍ: لَعَلَمٌ -بفَتحِ العَينِ واللَّامِ، أي: عَلامةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٣).

وذكر السعدي احتمالًا قدَّمه في تفسيرِ الآيةِ، وهو أنَّ عيسى عليه السَّلامُ دليلٌ على السَّاعةِ؛ لأنَّ القادرَ على إيجادِه مِن أُمٍّ بلا أبٍ قادِرٌ على بعثِ الموتى مِن قبورِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: لا تَشُكُّوا فيها، يعني: السَّاعةَ. قاله يحيى بنُ سلَّام. الثَّاني: فلا تُكَذِّبوا بها؛ قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ونقَل الواحديُّ عن ابنِ عبَّاسٍ المعنى الثَّانيَ، ثمَّ قال: (وقَولُ ابنِ عبَّاسٍ جَيِّدٌ؛ لأنَّ الامتراءَ يُوصَلُ بـ «في»، يُقالُ: امترَى فيه، كقَولِه: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، وهاهنا وُصِلَ بالباءِ؛ لأنَّه بمعنى التَّكذيبِ، ومَن شَكَّ في شَيءٍ فقد كَذَّب به). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ معنى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تَشُكُّوا في مجيئِها، فجعَل المِرْيةَ بمعنى الشَّكِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٨، ١٥٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مَريمَ حَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ، ويَفيضَ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحَدٌ))(١).

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أي: وأطيعُوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى الحَقِّ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخِرةِ(٢).

= وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾ أي: تَشُكُّوا أدنى شكٍّ، وتَضطَرِبوا أدنى اضطرابٍ، وتَجحَدوا أدنى جحدٍ، وتُجادِلوا أدنى جدَلٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦١).

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

قال الزمخشري: (﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ واتَّبعوا هُداي وشَرعي أو رَسولي. وقيل: هذا أمرٌ لرسولِ الله أن يَقولَه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا أمرٌ من الله باتِّباعِه، بامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه: ابنُ جرير -كما هو ظاهرُ كلامِه- والزمخشريُّ، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ من الله لرسولِه بأن يأمُرَ النَّاسَ باتِّباعِه: الواحديُّ، والقرطبيُّ كما هو ظاهرُ كلامِهما. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧).

قال الزمخشري: (﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: هذا الَّذي أدعوكم إليه. أو: هذا القرآنُ إن جُعِلَ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للقرآنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُبلِغَت أسماعُهم أفانينَ المَواعِظِ والأوامِرِ والنَّواهِي، وجَرَى في خِلالِ ذلك تَحذيرُهم مِن الإصرارِ على الإعراضِ عن القُرآنِ، وإعلامُهم بأنَّ ذلك يُفضي بهم إلى مُقارَنةِ الشَّيطانِ، وأخَذَ ذلك حَظَّه مِن البَيانِ؛ انتَقَلَ الكَلامُ إلى نَهيِهم عن أن يَحصُلَ صَدُّ الشَّيطانِ إيَّاهم عن هذا الدِّينِ والقُرآنِ الَّذي دُعُوا إلى اتِّباعِه بقَولِه: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]؛ تَنبيهًا على أنَّ الصُّدودَ عن هذا الدِّينِ مِن وَسْوَسةِ الشَّيطانِ، وتَذكيرًا بعَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ عَداوةً قَويَّةً، لا يُفارِقُها الدَّفعُ بالنَّاسِ إلى مَساوِي الأعمالِ؛ ليُوقِعَهم في العَذابِ تَشَفِّيًا لعَداوَتِه[(١)].

وأيضًا لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على السُّلوكِ لصِراطِ الوَليِّ الحَميدِ؛ حذَّرَهم مِنَ العَدُوِّ البَعيدِ المُحتَرِقِ الطَّريدِ، فقال[(٢)]:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ فتَضِلُّوا عن الحَقِّ[(٣)].

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، حَريصٌ على إضلالِكم، وباذِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

جُهدَه في إهلاكِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾.

أي: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِه، قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: بالنُّبُوَّة. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: بعِلمِ ما يُؤدِّي إلى الجَميلِ، ويَكُفُّ عن القَبيحِ. قاله ابنُ عيسى. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّ الحِكمةَ الإنجيلُ الَّذي أُنزِلَ عليه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦). =

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

أي: وجِئتُكم لِأُبيِّنَ لكم بَعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه مِن أُمورِكم، فأُوَضِّحَ لكم الصَّوابَ، وأُجَلِّيَ لكم ما خَفِيَ[1].

= قال البِقاعي: (﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الأمرِ المُحكَمِ، الَّذي لا يُستطاعُ نَقضُه، ولا يُدفَعُ إلَّا بالمُعانَدةِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦٢).

وقيل: الحِكمةُ: هي العِلمُ والعَمَلُ، فلا يُسمَّى الرَّجُلُ حَكيمًا حتَّى يَجمَعَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ قُتيبةَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٢، ٢٣)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٢٤)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٥).

وقال السعدي: (﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ النُّبُوَّةِ والعِلمِ، بما يَنبغي، على الوَجهِ الَّذي يَنبغي). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحِكمةِ: الإنجيلُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣١).

واختار الزمخشري وتَبِعَه النَّسَفيُّ أنَّ المرادَ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: الإنجيلُ والشَّرائعُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٩).

واختار جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ أنَّ المرادَ: النُّبُوَّةُ وشرائعُ الإنجيلِ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦، ٦٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

قال ابنُ عطية: (المعنى الَّذي ذهبَ إليه الجُمهورُ: أنَّ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ هو في أمورٍ كَثيرةٍ لا تُحصى عددًا؛ منها أمورٌ أُخرَويَّةٌ ودينيَّةٌ، ومنها ما لا مَدخَلَ له في الدِّينِ؛ فكُلُّ نَبيٍّ فإنَّما يُبعَثُ لِيُبيِّنَ أمرَ الأديانِ والآخِرةِ، فذلك بعضُ ما يُختَلَفُ فيه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِن أحكامِ التَّوراةِ. وقال قَتادةُ: يعني: اختلافَ الفِرَقِ الَّذين تحزَّبوا في أمرِ عيسى. قال الزَّجَّاجُ: الَّذي جاء به عيسى في الإنجيلِ إنَّما هو بَعضُ الَّذي اختَلَفوا فيه؛ فبُيِّنَ لهم في غيرِ الإنجيلِ ما احتاجوا إليه. وقيل: إنَّ بني إسرائيلَ =

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما يأمُرُكم به، واجتِنابِ ما يَنهاكم عنه[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أي: قال عيسى: إنَّ اللهَ الَّذي ينبغي إفرادُه بالعِبادةِ والطَّاعةِ هو رَبِّي ورَبُّكم؛ فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه، وأنا وأنتم مُشتَرِكونَ في وُجوبِ ذلك علينا[2].

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

أي: عِبادةُ اللهِ وَحْدَه وطاعتُه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى اللهِ، وإلى رِضوانِه وجَنَّتِه[3].

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

= اختَلَفوا بعدَ موتِ موسى في أشياءَ مِن أمرِ دينِهم. وقال أبو عُبَيدةَ: إنَّ البَعضَ هنا بمعنى الكُلِّ، كما في قَولِه: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وقال مُقاتِلٌ: هو كقَولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني: ما أُحِلَّ في الإنجيلِ مِمَّا كان مُحَرَّمًا في التَّوراةِ؛ كلَحمِ الإبِلِ، والشَّحمِ مِن كُلِّ حيوانٍ، وصَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ. واللَّامُ في: ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقَدَّرٍ، كأنَّه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ لِأُعَلِّمَكم إيَّاها ولِأُبَيِّنَ لكم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧، ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾.

أي: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فزَعَم بَعضُهم أنَّه ابنُ اللهِ تعالى، وزَعَم بَعضُهم أنَّه اللهُ تعالى، وزَعَم آخَرونَ منهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وعن مُعاوِيةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ألَا إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام فينا فقال: ألَا إنَّ مَن قَبْلَكم مِن أهلِ الكِتابِ افتَرَقوا على ثِنْتَينِ وسَبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّةَ ستَفترِقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثِنتانِ وسَبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، وهي الجَماعةُ))[٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).
قال ابن تيميَّة: (اختَلَف اليهودُ والنَّصارى فيه، ثمَّ اختَلَفَت النَّصارى فيه وصاروا أحزابًا كثيرةً جِدًّا... فإنَّه ليس في الأُمَمِ أكثَرُ اختِلافًا في رَبِّ العالَمينَ منهم!). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٣٧).
حَسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٥٩٧)، وحسَّنه لغيره الوادعيُّ في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٧٧).
وحديثُ الافتِراقِ رُويَ بألفاظٍ مُختلِفةٍ: ذكر الحاكمُ بعضَ طُرُقِه ثمَّ قال: (هذه أسانيدُ تُقامُ بها الحجَّةُ في تصحيح هذا الحديث). ((المستدرك)) (١/ ٢١٨). وقال العِراقي: (حديث افتِراقِ الأمَّة... أسانيدُها جِيادٌ). ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٢٣٠).

أي: فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يومِ القيامةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ فيه ذَمُّ الجَدَلِ والمِراءِ(٢)، والجدَلُ المذمومُ هو الجدلُ الَّذي يُوجِبُ تقريرَ الباطِلِ(٣)، أو ردَّ الحقِّ ودفْعَه، أو لِمُجرَّدِ الجدَلِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ عَبَّرَ بصيغةِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾، مع أنَّ ضارِبَ المَثَلِ واحِدٌ، وهو ابنُ الزِّبَعْرَى؛ لِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ إسنادَ فِعلِ الرَّجُلِ الواحِدِ مِن القبيلةِ إلى جميعِ القَبيلةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ جميعَ كُفَّارِ قُرَيشٍ صَوَّبوا ضَرْبَ ابنِ الزِّبَعْرَى عيسى مَثَلًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨).

قال ابن جرير: (يقولُ: مِن عذابِ يومِ أليمٍ عذابُه، ووَصَفَ اليومَ بالإيلامِ؛ إذ كان العَذابُ الَّذي يُؤلِمُهم فيه، وذلك يومُ القيامة). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٨).

وقال البِقاعي: (وإذا كان اليومُ مُؤلِمًا، فما الظَّنُّ بعَذابِه؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٠). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩-١٧٤).

وفَرِحوا بذلك، ووافَقوه عليه؛ فصاروا كالمُتمالِئينَ عليه.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الفاعِلَ المحذوفَ في قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ هو عامَّةُ قُرَيشٍ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عيسى لم يُبعَثْ إلَّا إلى بَني إسرائيلَ، وأنَّه لم يَدْعُ غيرَ بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِ دِينِه، ومَنِ اتَّبعُوه مِن غَيرِ بَني إسرائيلَ في عُصورِ الكُفرِ والشِّركِ فإنَّما تَقَلَّدوا دَعوَتَه؛ لأنَّها تُنقِذُهم مِن ظُلُماتِ الشِّركِ والوَثَنيَّةِ والتَّعطيلِ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه نزولُ عيسَى عليه السَّلامُ قُرْبَ السَّاعةِ[(٣)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يُبَيِّنْ لهم كُلَّ الَّذي يَختَلِفونَ فيه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لأنَّ النَّاسَ قد يَختَلِفونَ في أشياءَ لا حاجةَ بهم إلى مَعرفتِها؛ فلا يَجِبُ على الرَّسولِ بَيانُها[(٤)].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ هذا البَعضَ الظاهِرَ -بما يُرشِدُ إليه خِتامُ الآيةِ- أنَّه المُتشابِهُ الَّذي كَفَروا بسَبَبِه، بيَّنَه بيانًا يَرُدُّه إلى المُحكَمِ، ويَحتمِلُ أن يكونَ بَعضَ المُتشابِه،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

وهو ما يكونُ بَيانُه كافيًا في رَدِّ بقيَّةِ المُتشابِهِ إلى المحكَمِ بالقياسِ عليه؛ فإنَّ الشَّأنَ في كُلِّ كِتابٍ أنْ يَجمَعَ المُحكَمَ والمُتشابِهَ، فالمُحكَمُ ما لا لَبْسَ فيه، والمُتشابِهُ ما يكونُ مُلْبِسًا، وفيه ما يَرُدُّه إلى المحكَمِ لكِنْ على طريقِ الرَّمزِ والإشارةِ الَّتي لا يَذوقُها إلَّا أهلُ البَصائرِ؛ لِيَتبيَّنَ بذلك الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، فالصَّادِقُ الَّذي رَسَخ عِلمًا وإيمانًا يَرُدُّ المُتشابِهَ منه إلى المُحكَمِ، أو يَعجِزُ فيَقولُ: اللهُ أعلَمُ[١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ اللهَ تعالى أعلَمَه بأنَّ المَصلَحةَ لم تتعَلَّقْ ببيانِ كلِّ ما اختَلَفوا فيه، بل يُقتَصَرُ على البَعضِ، ثمَّ يُكمَّلُ بيانُ الباقي على لِسانِ رَسولٍ يأتي مِن بَعدِه يُبيِّنُ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ ما أُوحِيَ إليه مِن البَيانِ غيرُ شامِلٍ لجَميعِ ما هم مُختَلِفونَ في حُكمِه، وهو يَنتَظِرُ بَيانَه مِن بعدُ؛ تَدريجًا في التَّشريعِ، كما وَقَع في تَدريجِ تَحريمِ الخَمرِ في الإسلامِ.

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّ المرادَ بـ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾: ما كان الاختلافُ فيه راجعًا إلى أحكامِ الدِّينِ، دونَ ما كان مِن الاختلافِ في أُمورِ الدُّنيا[٢].

الوَجهُ السَّادِسُ: أنَّ المرادَ بالبَعضِ: الكُلُّ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ﴾، يدُلُّ على جوازِ تأخيرِ البيانِ فيما له ظاهِرٌ، وفي ما يرجِعُ إلى البيانِ بالنَّسخِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ بأنَّ اللهَ هو المُرَبِّي جَميعَ خَلْقِه بأنواعِ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، والإقرارُ بتوحيدِ العُبوديَّةِ بالأمرِ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وإخبارِ عيسى عليه السَّلامُ أنَّه عَبدٌ مِن عِبادِ اللهِ، ليس كما قال فيه النَّصارى: (إنَّه ابنُ اللهِ أو ثالِثُ ثلاثةٍ!)، والإخبارُ بأنَّ هذا المذكورَ: صِراطٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى اللهِ تعالى وإلى جَنَّتِه(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أنَّ الصِّراطَ المُستقيمَ عبادةُ اللهِ، ولا شَكَّ أنَّ أهدى السُّبُلِ وأقْوَمَها عِبادةُ اللهِ، وعِبادةُ اللهِ هي اتِّباعُ شَرْعِه المُرسَلِ منه سُبحانَه وتعالى(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ في قِصَّةِ عيسى مع قَومِه تَنبيهٌ على أنَّ الإشراكَ مِن عَوارِضِ أهلِ الضَّلالةِ لا يَلبَثُ أن يُخامِرَ نُفوسَهم، وإن لم يكُنْ عالِقًا بها مِن قَبْلُ؛ فإنَّ عيسى بُعِثَ إلى قَومٍ لم يَكونوا يَدينونَ بالشِّركِ؛ إذ هو قد بُعِثَ لبني إسرائيلَ وكُلُّهم مُوَحِّدونَ، فلمَّا اختَلَفَ أتْباعُه بيْنَهم، وكَذَّبَت به فِرَقٌ، وصَدَّقه فَريقٌ، ثمَّ لم يتَّبِعوا ما أمَرَهم به- لم يَلبَثوا أنْ حَدَثَت فيهم نِحلةُ الإشراكِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ كَلامٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٦).

مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لبيانِ نَوعٍ آخَرَ مِن لَجاجِهم وإمعانِهم في المُكابَرةِ[1]. أو عَطفُ قِصَّةٍ مِن أقاصيصِ كُفرِهم وعِنادِهم على ما مَضَى مِن حِكايةِ أقاويلِهم، جَرَت في مُجادَلةٍ منهم مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو تَصديرٌ وتَمهيدٌ بيْنَ يَدَيْ قَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ [الزخرف: ٦٣] الآياتِ، الَّذي هو المَقصودُ مِن عَطفِ هذا الكَلامِ على ذِكْرِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[2].

- واقتِرانُ الكَلامِ بـ(لَمَّا) المُفيدةِ وُجودَ جَوابِها عِندَ وُجودِ شَرطِها أو تَوقيتِه، يَقتَضِي أنَّ مَضمونَ شَرطِ (لَمَّا) مَعلومُ الحُصولِ، ومَعلومُ الزَّمانِ؛ فهو إشارةٌ إلى حَديثٍ جَرَى بسَبَبِ مَثَلٍ ضَرَبه ضارِبٌ لِحالٍ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، على أنَّ قولَهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكُونَ جَرَى في أثناءِ المُجادَلةِ في شَأنِ عيسى، ويَحتمِلُ أنْ يَكُونَ مُجرَّدَ حِكايةِ شُبهةٍ أُخرَى مِن شُبَهِ عَقائِدِهم؛ ففي هذه الآيةِ إجمالٌ يُبيِّنُه ما يَعرِفُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمنونَ مِن جَدَلٍ جَرَى مع المُشرِكين، ويَزيدُه بَيانًا قَولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3] [الزخرف: ٥٩].

- قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الحامِلُ على ضَربِ المَثَلِ: الرَّدُّ على كُفرِيَّاتِهم الثَّلاثِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ...﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، وهو قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقَولُه: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقَولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، والآياتُ المُتَخَلِّلةُ في البَيْنِ مُتَّصِلاتٌ بَعضُها مع بَعضٍ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالأَفانينِ المُتَنَوِّعةِ[(١)].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بعُنوانِ ﴿قَوْمُكَ﴾؛ للتَّعجُّبِ منهم كيفَ فَرِحوا مِن تَغَلُّبِ ابنِ الزِّبَعْرَى على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بزَعمِهِم في أمْرِ عيسى عليه السَّلامُ، أي: مع أنَّهم قَومُك، ولَيسُوا قَومَ عيسى ولا أتْباعَ دِينِه؛ فكان فَرَحُهم ظُلمًا من ذَوِي القُربَى[(٢)].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -على قولٍ- تَعَلُّقًا على مَعنَى الابتِداءِ، أي: يَصِدُّون صَدًّا ناشِئًا منه، أي: من المَثَلِ، أي: ضُرِبَ لهم مَثَلٌ، فجَعَلوا ذلك المَثَلَ سَبَبًا للصَّدِّ[(٣)].

- وعلى قِراءةِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ -بضمِّ الصَّادِ- مِن الصُّدودِ؛ فهي إمَّا بمَعنَى الإعراضِ، والمُعرَضُ عنه مَحذوفٌ؛ لظُهورِه مِن المَقامِ، أي: يُعرِضُون عن القُرآنِ؛ لأنَّهم أوهَمُوا بجَدَلِهم أنَّ في القُرآنِ تَناقُضًا، وإمَّا على أنَّ الضَّمَّ لُغَةٌ في مُضارِعِ (صَدَّ) بمَعنَى ضَجَّ، مِثلُ لُغَةِ كَسرِ الصَّادِ، وعلى قِراءةِ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -بكَسرِ الصَّادِ- وهو الصَّدُّ، بمَعنَى الضَّجيجِ والصَّخَبِ، فالمَعنَى: إذا قُرَيشٌ قَومُك يَصخَبون ويَضِجُّون مِن احتِجاجِ ابنِ الزِّبَعْرَى بالمَثَلِ بعِيسى في قَولِه، مُعجَبين بفَلْجِه[(٤)] وظُهورِ حُجَّتِه؛ لِضَعفِ إدراكِهم لمَراتِبِ الاحتِجاجِ[(٥)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٤) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفَوزُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

- قَولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾ حِكايةٌ لطَرَفٍ مِن المَثَلِ المَضرُوبِ؛ قَالُوه تَمهيدًا لِمَا بَنَوا عليه مِن الباطِلِ المُمَوَّه بما يَغتَرُّ به السُّفهاءُ؛ فقد قالوا جَميعًا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾، وتَلَقَّفوها مِن فَمِ ابنِ الزِّبَعْرَى حينَ قَالَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأعادُوها؛ فهذا حِكايَةٌ لقَولِ ابنِ الزِّبَعرَى: إنَّك تَزعُمُ أنَّ عِيسَى نَبيٌّ وقد عَبَدَتْه النَّصارَى، فإنْ كان عِيسَى في النَّارِ قد رَضِينَا أنْ نَكُونَ وآلِهَتنا في النَّارِ[1].

- قَولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾ حَكَوا أنَّ آلِهَتَهم خيرٌ، ثمَّ عَنَّ لهم أنْ يَستَفهِمُوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ مِن الخَبَرِ إلى الاستِفهامِ المَقصودِ به الإفْحامُ، وهذا الاستِفهامُ تَقريريٌّ للعِلمِ بأنَّ النَّبيَّ يُفَضِّلُ عِيسَى على آلِهَتِهم، أي: فقد لَزِمَكَ أنَّكَ جَعَلْتَ أهلًا للنَّارِ مَن كُنتَ تُفَضِّلُه؛ فأمْرُ آلِهَتِنا هَيِّنٌ[2]!

- وقولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى وَصْفِهم بحُبِّ الخِصامِ، وإظهارِهِم مِن الحُجَجِ ما لا يَعتَقِدونَه؛ تَمويهًا على عامَّتِهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتَنزيهِه عليه السَّلامُ عن أنْ يُنسَبَ إليه ما نُسِبَ إلى الأصنامِ بطَريقِ الرَّمزِ، كما نَطَق به صَريحًا قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآيةَ، وفيه تَنبيهٌ على بُطلانِ رَأْيِ مَن رَفَعَه عن رُتبَةِ العُبودِيَةِ، وتَعريضٌ بفَسادِ رَأْيِ مَنْ يَرَى رَأيَهم في شَأنِ المَلائِكَةِ، وهذا على القَولِ بأنَّ معنَى قولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ أي: ضرَبَه ابنُ الزِّبْعرى حين جادَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] [الأنبياء: ٩٨].

- ولَمَّا ذَكَر ما يُشيرُ إلى قِصَّةِ جِدالِ ابنِ الزِّبَعرَى في قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وكان سَبَبُ جِدالِه هو أنَّ عِيسَى قد عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ؛ لم يُترَكِ الكَلامُ يَنقَضي دُونَ أنْ يُردَفَ بتَقريرِ عُبُودِيَّةِ عيسى لهذه المُناسَبةِ؛ إظهارًا لخَطَلِ رَأْيِ الذين ادَّعَوا إلَهِيَّته وعَبَدوه -وهم النَّصارَى-؛ حِرصًا على الاستِدلالِ للحَقِّ[2].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قُصِرَ عِيسَى على العُبوديَّةِ على طَريقةِ قَصْرِ القَلبِ[3]؛ للرَّدِّ على الَّذين زَعَموه إلهًا، أي: ما هو إلَّا عَبدٌ لا إلهٌ؛ لأنَّ الإلَهيَّةَ تُنافي العُبوديَّةَ، ثمَّ كان قَولُه: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ إشارةً إلى أنَّه قد فُضِّلَ بنِعمَةِ الرِّسالةِ، أي: فلَيسَتْ له خُصوصِيَّةٌ مَزِيَّةٍ على بَقِيَّةِ الرُّسُلِ، وليس تَكوينُه بدُونِ أبٍ إلَّا إرهاصًا[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ جُعِلَ شَرْطُ (لو) فِعلًا مُستَقبلًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه المَشيئَةَ لم تَزَلْ مُمكنَةً بأنْ يُعَوِّضَ للمَلائِكَةِ سُكنَى الأرضِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

والإرهاصُ: ما ظهَر مِن الخَوارِقِ عن النَّبيِّ قبْلَ ظُهورِه. يُنظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

- ومعنى (مِن) في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ البَدليَّةُ والعِوَضُ، والمجرورُ في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ مُتعَلِّقٌ بـ (جَعَلْنا)، وقُدِّمَ على مَفعولِ الفِعلِ؛ للاهتِمامِ بمَعنَى هذه البَدَليَّةِ لتتعَمَّقَ أفهامُ السَّامِعين في تَدَبُّرِها(١).

- وجُملَةُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بيانٌ لمَضمُونِ شِبهِ الجُملَةِ في قَولِه: ﴿مِنكُم﴾، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَخْلُفُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ﴿مِنكُم﴾ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للاهتِمامِ بِمَا هو أدَلُّ على كَونِ الجُملَةِ بَيانًا لمَضمُونِ ﴿مِنكُم﴾(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ويَكونُ ما بيْنَهما مُستَطرَداتٍ، واعتِراضًا اقتَضَتْه المُناسَبةُ؛ لَمَّا أُشبِعَ مَقامُ إبطالِ إلَهيَّةِ غَيرِ اللهِ بدَلائِلِ الوَحدانيَّةِ، ثُنِيَ العِنانُ إلى إثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ، عَودًا على بَدءٍ، وهذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالى إلى المُنكِرين يومَ البَعثِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: إنَّ عيسى عليه السلامُ لَعِلمٌ للسَّاعَةِ، أي: شَرطٌ مِن أشراطِها تُعلَمُ به؛ فسُمِّي الشَّرطُ عِلمًا لحُصولِ العِلمِ به(٤).

أو ضَميرُ المَذكَّرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ مُرادٌ به القُرآنُ؛ فيَكونُ هذا ثَناءً على القُرآنِ، والثَّناءُ على القُرآنِ استَمَرَّ مُتَّصِلًا مِن أوَّلِ السُّورَةِ آخِذًا بَعضُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٩).

بحُجَز بَعضٍ، مُتَخَلِّلًا بالمُعتَرِضاتِ والمُستطرَداتِ، ومُتَخَلِّصًا إلى هذا الثَّناءِ الأخيرِ بأنَّ القُرآنَ أعلَمَ النَّاسَ بوُقوعِ السَّاعَةِ. وإسنادُ ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ إلى ضَميرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ سَبَبُ العِلمِ بوُقوعِ السَّاعَةِ؛ إذ فيه الدَّلائِلُ المُتَنَوِّعَةُ على إمكانِ البَعثِ ووُقوعِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ إطلاقُ العِلمِ بمعنى المُعْلِمِ، مِن استعمالِ المصدَرِ بمعنى اسمِ الفاعِلِ؛ مُبالَغَةً في كَونِه مُحَصِّلًا للعِلْمِ بالسَّاعَةِ؛ إذ لم يُقارِبْه في ذلك كِتابٌ مِن كُتُبِ الأَنبياءِ، وقد ناسَبَ هذه المُبالَغَةَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ لأنَّ القُرآنَ لم يُبقِ لأحَدٍ مِريَةً في أنَّ البَعثَ واقِعٌ، ويَجوزُ أن يَكونَ ضَميرُ (إِنَّهُ) ضَميرَ شَأنٍ، أي: أنَّ الأَمرَ المُهِمَّ لَعِلْمُ النَّاسِ بوُقوعِ السَّاعةِ[1].

- وعُدِّي فِعلُ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ بالباءِ؛ لِتَضْمينِه مَعنَى: لا تُكَذِّبُنَّ بها، أو الباءُ بمَعنَى (في) الظَّرفِيَّةِ[2].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ في ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ تَخفيفًا، مع بَقاءِ نُونِ الوِقايةِ دَليلًا عليها[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صِيغَ النَّهيُ عن اتِّباعِ الشَّيطانِ في صَدِّه إيَّاهُم بصِيغةِ نَهيِ الشَّيطانِ عن أنْ يَصُدَّهم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ في مُكنَتِهم الاحتِفاظَ مِن الوُقوعِ في شِباكِ الشَّيطانِ، فكُنِّي بنَهيِ الشَّيطانِ عن صَدِّهم عن نَهيِهم عن الطَّاعَةِ له بأبلَغَ مِن تَوجيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، على طَريقةِ قَولِ العَرَبِ: لا أَعرِفَنَّكَ تَفعَلُ كذا، ولا أُلْفِيَنَّكَ في مَوضِعِ كذا[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٥).

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن أنْ يَصُدَّهُم الشَّيطانُ؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يَحذَرَ مِن مَكائِدِ عَدُوِّه، وحَرفُ (إنَّ) هنا مَوقِعُه مَوقِعُ فاءِ التَّسَبُّبِ في إفادَةِ التَّعليلِ[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هذا هو المَقصودُ مِن ذِكْرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فهو عَطفٌ على قِصَّةِ إرسالِ مُوسَى[2]. وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَعَنُّتِ بني إسرائيلَ[3].

- ولم يُذكَرْ جَوابَ (لَمَّا)؛ فهو مَحذوفٌ لدَلالَةِ بَقيَّةِ الكَلامِ عَلَيه، ومَوقِعُ حَرفِ (لَمَّا) هنا: أنَّ مَجيءَ عِيسى بالبَيِّناتِ صار مَعلومًا للسَّامِعِ مِمَّا تقَدَّم في قَولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] الآيَةَ، أي: لَمَّا جاءَهُم عِيسَى اختَلَفَ الأحزابُ فيما جاء به؛ فحُذِفَ جَوابُ (لَمَّا)؛ لأنَّ المَقصودَ هو قَولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّ سَنَنَ الأُمَمِ المَبعوثِ إليهم الرُّسُلُ لم يَختَلِفْ؛ فإنَّه لم يَخْلُ رَسولٌ عن قَومٍ آمَنوا به وقَومٍ كَذَّبوه، ثمَّ كانوا سَواءً في نِسبَةِ الشُّرَكاءِ في الإلَهيَّةِ بمَزاعِمِ النَّصارَى أنَّ عِيسَى ابنٌ لِلَّهِ تعالى؛ فتمَّ التَّشابُه بيْن الرُّسُلِ السَّابِقين وبيْن مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليهم أجمَعينَ؛ فحَصَل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

في الكَلامِ إيجازٌ تدُلُّ عليه فاءُ التَّفريع[(١)].

- وجُملَةُ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ولَيسَتْ جَوابًا لشَرطِ (لَمَّا) الَّذي جُعِلَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧] دَليلًا عليه. وفي إيقاعِ جُملَةِ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بيانًا لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه بادَأَهم بهذا القَولِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ الضَّلالَةِ أنْ يُسرِعوا إلى غاياتِها ولو كانتْ مَبادِئُ الدَّعوَةِ تُنافي عَقائِدَهُم، أي: لم يَدْعُهم عِيسى إلى أكثَرَ مِن اتِّباعِ الحِكمَةِ وبَيانِ المُختَلَفِ فيه، ولم يَدْعُهم إلى ما يُنافي أُصولَ شَريعَةِ التَّوراةِ؛ ومع ذلك لم يَخْلُ حالُه مِن صُدودٍ مُريعٍ عنه وتَكذيبٍ[(٢)].

- وابتِداؤُه بإعلامِهم أنَّه جاءَهم بالحِكمَةِ والبَيانِ -وهو إجمالُ حالِ رِسالَتِه- تَرغيبٌ لهم في وَعْيِ ما سيُلْقِيه إليهم مِن تَفاصيلِ الدَّعوَةِ المُفرَّعِ بَعضُها على هذه المُقَدِّمَةِ بقَولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ تَهيئَةٌ لهم لِقَبولِ ما سَيُبيِّنُ لهم حِينَئِذٍ أو مِن بَعدُ[(٤)].

- ولم يُذكَرْ في هذه الآيةِ قَولُه المَحكِيُّ في قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمرانَ: ٥٠]؛ لأنَّ ذلك قد قالَه في مَقامٍ آخَرَ، والمَقصودُ حِكايَةُ ما قالَه لهم مِمَّا ليس شَأنُه أنْ يُثيرَ عليه قَومَه بالتَّكذيبِ؛ فهمْ كذَّبوه في وَقتٍ لم يَذكُرْ لهم فيه أنَّه جاء بنَسْخِ بَعضِ الأحكامِ مِن التَّوراةِ، أي: كذَّبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٧).

في حالِ ظُهورِ آياتِ صِدقِه بالمُعجِزاتِ، وفي حالِ انتِفاءِ ما مِن شَأنِه أنْ يُثيرَ عليه شَكًّا[(١)].

- وفَرَّع على إجمالِ فاتِحَةِ كَلامِه قَولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وهذا كَلامٌ جامِعٌ لتَفاصيلِ الحِكمَةِ، وبيَانِ ما يَختَلِفون فيه؛ فإنَّ التَّقوَى مَخافَةُ اللهِ[(٢)].

- ويُمكِنُ أنَ تَكونَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ عاطِفَةً؛ فيَكونَ الكَلامُ مَعطوفًا على ما سَبَقه على أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ عِيسَى، ويُمكِنُ أن تَكونَ استِئنافِيَّةً؛ فيكونُ الكَلامُ مُستَأنَفًا من اللهِ؛ للدَّلالَةِ على طَريقِ الطَّاعَةِ ومَحَجَّتِها الواضِحَةِ[(٣)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ بيانٌ لِما أمرَهم بالطَّاعةِ فيه؛ وهو اعتِقادُ التَّوحيدِ والتَّعبُّدُ بالشَّرائِعِ[(٤)]. أو تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣]؛ لأنَّه إذا ثَبَت تَفَرُّدُه بالرُّبوبيَّةِ تَوَجَّهَ الأمرُ بعِبادَتِه؛ إذ لا يَخافُ اللهَ إلَّا مَن اعتَرَفَ برُبوبيَّتِه وانفرادِه بها[(٥)].

- وضميرُ الفَصلِ (هو) أفاد القَصْرَ، أي: اللهُ ربِّي لا غَيرُه، وهذا إعلانٌ بالوَحدانيَّةِ، وإنْ كان القَومُ الَّذين أُرسِلَ إليهم عيسى مُوَحِّدين، لكنْ قد ظَهَرت بِدعَةٌ وشِركٌ في بَعضِ فِرَقِهم الَّذين قالُوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ[(٦)].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ فيه تَأكيدُ الجُملَةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالخَبَرِ؛ فإنَّ المُخاطَبين غَيرُ مُنكِرين ذلك[١].

- وتَقديمُ نَفسِه على قَومِه في قَولِه: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ لقَصدِ سدِّ ذَرائِعِ الغُلُوِّ في تَقديسِ عِيسى، وذلك مِن مُعجِزاتِه؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّه ستَغلُو فيه فِرَقٌ مِن أتباعِهِ، فيَزعُمون بُنُوَّتَه مِن اللهِ على الحَقيقَةِ[٢].

- وفُرِّعَ على إثباتِ التَّوحيدِ للَّهِ الأمْرُ بعِبادَتِه بقَولِه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ المُنفَرِدَ بالإلَهيَّةِ حَقيقٌ بأنْ يُعبَدَ[٣].

- وقولُه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِ عيسى عليه السَّلامُ. أو استِئنافٌ مِن الله تعالى يَدُلُّ على ما هو المُقتَضِي للطَّاعَةِ في ذلك، وهو مُقَرِّرٌ لمقَالةِ عِيسَى عليه السَّلامُ[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن سَوْقِ القِصَّةِ مَساقَ التَّنظيرِ بيْن أحوالِ الرُّسُلِ، أي: عَقِبَ دَعوَتَه اختِلافُ الأحزابِ مِن بَينِ الأُمَّةِ الَّذين بُعِثَ إليهم، والَّذين تَقلَّدوا مِلَّتَه طَلَبًا للاهتِداءِ، وهذا التَّفريعُ دَليلٌ على جَوابِ (لمَّا) المَحذوفِ[٥].

- قَولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فُرِّع على ذِكْرِ الاختِلافِ تَهديدٌ بوَعيدٍ للَّذين ظَلَموا بالعَذابِ يَومَ القِيامَةِ تَفريعَ التَّذييلِ على المُذيَّلِ؛ فـ (الَّذين ظَلَموا) يَشمَلُ جَميعَ الَّذين أشرَكوا مع اللهِ غَيرَه في الإلَهيَّةِ؛ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا إطلاقُ الظُّلمِ غالبًا في القُرآنِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٩).

فعُلِمَ أنَّ الاختِلافَ بيْنَ الأحزابِ أفضَى بِهِم أنْ صارَ أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ بقَرينَةِ ما هو مَعروفٌ في الاستِعمالِ مِن لُزومِ مُناسَبةِ التَّذييلِ للمُذَيَّلِ، بأنْ يَكونَ التَّذييلُ يَعُمُّ المُذَيَّلَ وغَيرَه؛ فيَشمَلُ عُمومُ هذا التَّذييلِ مُشرِكي العَرَبِ المَقصُودينَ مِن هذه الأمثالِ والعِبَرِ. وفي سورة (مريم) قال: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]، فجُعِلتِ الصلةُ فِعلَ (كفروا)؛ لأنَّ المقصودَ من آيةِ سُورةِ (مريم) الذين كفروا مِن النَّصارى؛ ولذلك أردفَ بقولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٨]؛ لَمَّا أُريدَ التَّخلُّصُ إلى إنذارِ المشركين بعدَ إنذارِ النَّصارَى[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٠).

الآيات (٦٦-٧٣)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ
يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، والبَغْتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ[١].

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾: جمعُ خَليلٍ، وهو الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، وهي: الصَّداقةُ والمَودَّةُ؛ لأنَّها تتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تَتوسَّطُها، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ بينَ شَيئَينِ[٢].

﴿تُحْبَرُونَ﴾: أي: تُكرَمونَ وتُنَعَّمون وتُسَرُّونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[٣].

﴿بِصِحَافٍ﴾: جَمعُ صَحْفةٍ، وهي القَصْعةُ العَريضةُ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣).

على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعةٍ[1].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾: جَمعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ، لا عُرْوةَ له (وهي ما يُمسَكُ منها) ولا خُرطومَ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، وسوءَ عاقبةِ المكذبينَ: هل يَنتَظِرُ هؤلاء إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ؟! الأصدِقاءُ المُتخالُّونَ على معاصي اللهِ في الدُّنيا بَعضُهم أعداءٌ لِبَعضٍ يومَ القيامةِ إلَّا الذين اتَّقَوا رَبَّهم، فيقولُ اللهُ لهم: يا عبادِي لا خَوفٌ عليكم اليَومَ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى، وهؤلاءِ العِبادُ هم الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ وعَمِلوا بها، وكانوا مُنقادينَ للهِ تعالى.

يُقالُ لهم: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم، فتُكرَمونَ فيها وتَسعَدونَ. ويُطافُ عليهم في الجنَّةِ بِقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ وأكوابٍ، فيها ما يَشتَهونَه مِن ألوانِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وتَلْتَذُّ برُؤيتِه أعيُنُهم، وهم في الجنَّةِ خالِدونَ أبدًا.

ويُقال لهم: تلك هي الجنَّةُ التي أورَثَكم اللهُ إيَّاها؛ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ، لكم فيها فواكِهُ كَثيرةٌ تأكُلونَ منها ما تَشتَهونَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٤٣٦).

قال ابن عطية: (الأكوابُ: ضربٌ مِن الأواني كالأباريقِ، إلَّا أنَّها لا آذانَ لها ولا مقابضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا يومَ القيامةِ الذي يأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينَهما فلا يَتبايَعانِه ولا يَطويانِه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه[(٢)] فلا يَطعَمُه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[(٣)] فلا يَسقي فيه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقد رَفَع أحَدُكم أُكلَتَه إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

قيل: المرادُ بهم: الأحزابُ المُختَلِفونَ في شأنِ عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، ومكي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قريش. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتل بن سليمان، وابن الجوزي، وابن عطية، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٨).

وممَّن ذهب إلى العُموم: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥).

قال البقاعي: (لَمَّا عَمَّ الظَّالِمينَ بالوَعيدِ بذلك اليوم، فدَخَل فيه قُرَيشٌ وغَيرُهم؛ أتبَعَه ما هو كالتَّعليلِ مُبْرِزًا له في سياقِ الاستِفهامِ؛ لأنَّه أهوَلُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) اللِّقْحَةُ: النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

فيه فلا يَطعَمُها!))[1].

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾[الزخرف: ٦٦]؛ ذَكَر عَقيبَه بَعضَ ما يَتعلَّقُ بأحوالِ القيامةِ[2].

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: الأصدِقاءُ المتصاحِبونَ على الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا يكونُ بَعضُهم أعداءً لِبَعضٍ يومَ القيامةِ، ويَتبرَّأُ بَعضُهم مِن بَعضٍ إلَّا الذين اتَّقَوا اللهَ، فتآخَوا في الدُّنيا، وتَصاحَبوا على تَوحيدِ الله وطاعتِه ومَحبَّتِه[3].

كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: المتحابُّونَ في جَلالي لهم مَنابِرُ مِن نُورٍ، يَغبِطُهم[١] النَّبيُّونَ والشُّهَداءُ))[٢].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ لأولئك المتَّقينَ: يا عِبادي لا خَوفٌ عليكم في هذا اليَومِ مِن أمرٍ مُستَقبَلٍ؛ فإنِّي أُؤَمِّنُكم مِن الأهوالِ والعَذابِ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى؛ فأنتم مُقدِمونَ على ما يَسُرُّكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ * لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ * لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يَغبِطُهم: مِنَ الغِبْطة، وهي تَمنِّي نِعمةٍ على ألَّا تتحَوَّلَ عن صاحِبِها، بخِلافِ الحَسَدِ؛ فإنَّه تَمنِّي زوالِها عن صاحِبِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد (٢٢٠٨٠).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٠)، وصحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أي: الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ، وعَمِلوا بما جاءَتْهم به رسلُهم(١).

﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾.

أي: وكانوا دَومًا خاضِعينَ لله، مُنقادينَ لِشَرعِه(٢).

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما للمُؤمِنينَ؛ بِشارةً لهم، وترغيبًا لِغَيرِهم في اللَّحاقِ بهم على وَجهٍ فيه إجمالٌ؛ شَرَح ذلك بقَولِه(٣):

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال الواحدي: (قال مُقاتِلٌ: إذا وَقَع الخَوفُ يومَ القيامةِ نادى مُنادٍ: يا عبادي ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ يعني: مِنَ العذابِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ فإذا سُمِعَ النِّداءُ رَفَع الخلائِقُ رُؤوسَهم، فيُقالُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾، فيُنَكِّسُ أهلُ الأديانِ رُؤوسَهم غيرَ المُسلِمينَ. قال أبو إسحاق [الزَّجَّاج] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على النَّعتِ لـ «عِبَادِي» ... وقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ابتداءٌ وخَبَرُه مُضمَرٌ على تقديرِ: يُقالُ لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، أو يكونُ الخَبَرُ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾، ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: هم الَّذين آمَنوا بآياتِنا). ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧).

أي: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم(١)، فتُكرَمونَ فيها، وتُسَرُّونَ سُرورًا بالِغًا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ

---

(١) قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: هم وأزواجُهم المؤمِناتُ في الدُّنيا. الثَّاني: وَمن يُزَوَّجُونَ مِن الحُورِ في الآخِرةِ. الثَّالثُ: هم وقُرَناؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ فيه لعُلماءِ التَّفسيرِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نُظراؤُهم وأشباهُهم في الطَّاعةِ وتقوى الله. واقتصر على هذا القولِ ابنُ كثير.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نساؤُهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ أبلَغُ في التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ مِن الأوَّلِ؛ ولذا يَكثُرُ في القرآنِ ذِكرُ إكرامِ أهلِ الجنَّةِ بكَونِهم مع نسائِهم، دونَ الامتِنانِ عليهم بكَونِهم مع نُظرائِهم وأشباهِهم في الطَّاعةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال السعدي: (أي: مَن كان على مِثْلِ عَمَلِكم مِن كُلِّ مُقارِنٍ لكم؛ مِن زَوجةٍ، ووَلَدٍ، وصاحِبٍ، وغَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٢، ١٤٣).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أقوالُ العُلَماءِ فيه راجِعةٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّهم يُكرَمونَ بأعظَمِ أنواعِ الإكرامِ وأتَمِّها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٣).

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

أي: يُطافُ عليهم في الجنَّةِ بقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ فيها أنواعٌ مِن الطَّعامِ، وبأوعيةٍ للشُّربِ فيها أنواعٌ مِنَ الشَّرابِ(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحَريرَ ولا الدِّيباجَ(٢)، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣ - ٦٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

ذهب بَعضُ المفَسِّرين إلى أنَّ الأكوابَ مِن فِضَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. وممَّن ذهب إلى هذا القول: مقاتِلُ بن سليمان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وذهب بَعضُهم إلى أنَّ الأكوابَ مِن ذَهَبٍ، كالصِّحافِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) الدِّيباجُ: هو نَوعٌ مِن الحريرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٤٩).

في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ))(١).

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكُلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يَتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْحٌ كرَشْحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما تُلهَمونَ النَّفَسَ(٢)))(٣).

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن المأكولاتِ والمَشروباتِ والمَلبوساتِ، والمَسموعاتِ والمَرئيَّاتِ، والمساكِنِ والمناكِحِ، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ المَلَذَّاتِ والمَسرَّاتِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعباديَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ، فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]))(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦٧).

(٢) النَّفَسُ: أي: التَّنَفُّسُ، والمعنى: لا يَتعَبونَ مِن التَّسبيحِ والتَّهليلِ كما لا تَتعَبون أنتم مِن النَّفَسِ؛ بحيث يصيرُ الذِّكرُ صِفةً لازِمةً لا ينفكُّونَ عنها كالنَّفَسِ اللَّازِمِ للحيوانِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٥) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه[1] واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ مِن أهلِ الجنَّةِ يُعطى قُوَّةَ مِئةِ رجُلٍ في الأكلِ والشُّربِ والشَّهوةِ والجِماعِ! فقال رجُلٌ مِن اليَهودِ: فإنَّ الذي يأكُلُ ويَشرَبُ تكونُ له الحاجةُ. فقال له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حاجةُ أحَدِهم عَرَقٌ يَفيضُ مِن جِلدِه، فإذا بَطنُه قد ضَمُرَ[4]))[5].

﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَلْتَذُّ برُؤيتِه أعيُنُهم؛ لحُسنِه وجمالِه[6].

(١) فبادَرَ الطَّرفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) ضَمُرَ: أي: ذَهَب رَهَلُه، واشتَدَّ لَحمُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٩).

(٥) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٧٨)، وأحمد (١٩٣١٤) واللفظ له.

صَحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٢/ ٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: وأنتم في الجنَّةِ ماكِثونَ، لا يَنقَطِعُ نَعيمُها عنكم، ولا أنتم منها تُخرَجونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾.

أي: يُقالُ لهم: وتلك هي الجنَّةُ العاليةُ المقامِ التي أعطاكم اللهُ إيَّاها؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ(٢).

= للشنقيطي (٧/ ١٤٣).

قال البقاعي: (﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ مِنَ الأشياءِ المُبصَرةِ التي أعلاها النَّظَرُ إلى وَجهِه الكريمِ تعالى!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢) و (٧/ ١٤٦).

قال الرازي: (﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ، وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارت إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ ولا يرادُ به زوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحَيِّ، كما يُقالُ: هذا العَمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ، أي: يُصيِّرُك إليه، ومنهم من يقولُ: إنَّهم أُعطُوا تلك المنازِلَ مِن غيرِ تَعَبٍ في الحالِ؛ فصار شبيهًا بالميراثِ. والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُورَثونَ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((الهداية =

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))(١).

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّعامَ والشَّرابَ فيما تَقَدَّم، ذكَرَ هاهنا حالَ الفاكِهةِ(٢).

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٠١).

قال الشنقيطي: (معنى إيراثِهم الجنَّةَ: الإنعامُ عليهم بالخُلودِ فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٧٧) واللفظ لهما، والبزار (٩١٥٢) مختَصَرًا.

صَحَّح إسنادَه القرطبيُّ المفَسِّر في ((التذكرة)) (٤٣٥)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦) وقال: (على شرط الشيخينِ)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وذكر الشوكاني في ((تفسيره)) (٣/ ٦٧٣) أنَّ له شاهِدًا في مسلم. وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

أي: لكم فيها فَواكِهُ كَثيرةٌ مُتنَوِّعةٌ تَأكُلونَ منها ما اشتَهيتُم واختَرتُم[١].

كما قال تعالى: ﴿ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾[الدخان: ٥٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فيه أنَّ الخُلَّةَ إذا كانت على المَعصيةِ والكُفرِ صارت عَداوةً يومَ القيامة، أمَّا المتَّقونَ المُوحِّدونَ الَّذين يُخالِلُ بَعضُهم بعضًا على الإيمانِ والتَّقوى، فإنَّ خُلَّتَهم لا تَصيرُ عَداوةً[٢]، فكُلُّ صَداقةٍ وصَحابةٍ لغيرِ اللهِ فإنَّها تَنقَلِبُ يومَ القيامةِ عَداوةً إلَّا ما كان لله عزَّ وجَلَّ؛ فإنَّه دائِمٌ بدَوامِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أنَّ المُتَحابِّينَ في الدُّنيا إذا كانوا مِن أهلِ الجنَّةِ ومِن المتَّقينَ، فإنَّهم يَتلاقَونَ في الآخِرةِ، ولا تَزولُ المَودَّةُ بيْنَهم[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ فيه أنواعٌ كَثيرةٌ مِمَّا يُوجِبُ الفَرَحَ:

أوَّلُها: أنَّ الحَقَّ سُبحانَه وتعالى خاطَبَهم بنَفْسِه مِن غيرِ واسِطةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٩٩).

وثانيها: أنَّه تعالى وصَفَهم بالعُبوديَّةِ، وهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، بدَليلِ أنَّه لَمَّا أراد أن يُشَرِّفَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ المعراجِ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وثالثُها: قَولُه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأزال عنهم الخَوفَ في يومِ القيامةِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا مِن أعظَمِ النِّعَمِ.

ورابِعُها: قَولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فنفى عنهم الحُزنَ بسَبَبِ فَوتِ الدُّنيا الماضيةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ ظاهِرُه المُغايَرةُ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، وقد دَلَّت بعضُ الآياتِ على اتِّحادِهما، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولا مُنافاةَ في ذلك؛ فإنَّ الإيمانَ يُطلَقُ تارةً على جميعِ ما يُطلَقُ عليه الإسلامُ مِن الاعتِقادِ والعَمَلِ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ في حديثِ وَفدِ عبدِ القَيسِ[٢]، والأحاديثُ بمِثلِ ذلك كثيرةٌ جِدًّا. ومِن أصرَحِها في ذلك قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ))[٣]، وفي بعضِ الرِّواياتِ الثَّابتةِ في الصَّحيحِ: ((بِضعٌ وسِتُّونَ شُعبةً، فأفضلُها قول: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريقِ))[٤]؛ فقد سَمَّى صلَّى الله عليه وسلَّم إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ إيمانًا، فالإيمانُ الشَّرعيُّ التَّامُّ والإسلامُ الشَّرعيُّ التَّامُّ: مَعناهما واحِدٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

وقد يُطلَقُ الإيمانُ إطلاقًا آخَرَ على خُصوصِ رُكنِه الأكبَرِ الذي هو الإيمانُ بالقَلبِ، كما في حديثِ جِبريلَ الثَّابتِ في الصَّحيحِ: ((ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحَت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القَلبُ))[١] فغَيرُه تابعٌ له، وعلى هذا تَحصُلُ المغايَرةُ في الجُملةِ بين الإيمانِ والإسلامِ. فالإيمانُ على هذا الإطلاقِ اعتِقادٌ، والإسلامُ شامِلٌ للعَمَلِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ قد عمَّ كلَّ ما تتعَلَّقُ الشَّهواتُ النَّفسيَّةُ بنَوالِه وتَحصيلِه، واللهُ يَخلُقُ في أهلِ الجَنَّةِ الشَّهَواتِ اللَّائِقَةَ بعالَمِ الخُلودِ والسُّمُوِّ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بِشارةٌ لهم بعَدَمِ انقِطاعِ الحَبرَةِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، ونَيلِ الشَّهواتِ، وإتمامٌ للنِّعمَةِ، وإكمالٌ للسُّرورِ؛ فإنَّ كُلَّ نَعيمٍ له زَوالٌ بالآخِرَةِ مُقارِنٌ لخَوفِه لا مَحالَةَ، مُوجِبٌ لِكُلْفَةِ الحِفظِ، وخَوفِ الزَّوالِ، ومُستَعقِبٌ للتَّحَسُّرِ في ثاني الحالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ سبَبٌ لدُخولِ الجنَّةِ[٥].

٧- قال تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأثبَتَ اللهُ تعالى دُخولَ الجنَّةِ بالأعمالِ في قَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيْنَما نفى رَسولُ اللهِ صلَّى الله

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٣٦).

عليه وسلَّم دُخولَها بالأعمالِ، بقَولِه: ((لا يدخلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعملِه))(١)، ولا تنافيَ بينهما؛ وذلك لوجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الباءَ الَّتي نَفَت الدُّخولَ هي باء المُعاوَضةِ الَّتي يكونُ فيها أحَدُ العِوَضَينِ مُقابِلًا للآخَرِ، والباءَ التي أثبَتَت الدُّخولَ هي باءُ السَّبَبيَّةِ التي تَقتَضي سَبَبيَّةَ ما دخَلَت عليه لِغَيرِه، وإنْ لم يكُنْ مُستَقِلًّا بحُصولِه(٢).

الثَّاني: ما ذكَرَه سُفيانُ وغَيرُه، قال: كانوا يقولونَ: (النَّجاةُ مِن النَّارِ بعَفوِ اللهِ، ودُخولُ الجنَّةِ برَحمتِه، واقتِسامُ المنازِلِ والدَّرَجاتِ بالأعمالِ).

الثَّالِثُ: أنَّ دُخولَ الجنَّةِ بسَبَبِ الأعمالِ، ثمَّ التَّوفيقُ للأعمالِ والهدايةُ للإخلاصِ فيها وقَبولُها: برَحمةِ اللهِ تعالى وفَضلِه؛ فيَصِحُّ أنَّه لم يدخُلْ بمُجَرَّدِ العَمَلِ، وهو مرادُ الأحاديثِ، ويَصِحُّ أنَّه دخَلَ بالأعمالِ، أي: بسَبَبِها، وهي مِنَ الرَّحمةِ(٣).

الرَّابعُ: يُحمَلُ الحَديثُ على أنَّ العَمَلَ مِن حيثُ هو عَمَلٌ لا يَستفيدُ به العامِلُ دُخولَ الجنَّةِ ما لم يكُنْ مَقبولًا، وإذا كان كذلك فأمْرُ القَبولِ إلى اللهِ تعالى، وإنَّما يَحصُلُ برَحمةِ اللهِ لِمن يُقبَلُ منه، وعلى هذا فمَعنى قَولِه: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، أي: تَعمَلونَه مِن العَمَلِ المَقبولِ، ولا يَضُرُّ بعد هذا أن تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، أو للإلصاقِ، أو المقابَلةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أن تكونَ سَببيَّةً(٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، وأحمد (٧٤٧٣) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَنزيلِ سامِعِ قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] مَنزِلَةَ مَن يَطلُبُ البَيانَ، فيَسأَلُ: مَتَى يَحُلُّ هذا اليَومُ الأَليمُ؟ وما هو هذا الوَيلُ؟ فورَدَت جُملةُ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ جَوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن السُّؤالِ، وسَيجيءُ الجَوابُ عن الشِّقِّ الثَّاني في قَولِه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤] الآياتِ(١).

- وقد جرَى الجَوابُ في قَولِه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ...﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ(٢)، والمعنى: أنَّ هذا العَذابَ واقِعٌ لا مَحالةَ، سَواءٌ قَرُبَ زَمانُ وُقوعِه أمْ بَعُدَ؛ فلا يَريبُكُم عَدَمُ تَعجيلِه، وقد أشعَرَ بهذا المَعنى تَقييدُ إتيانِ السَّاعَةِ بقَيدِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾؛ فإنَّ الشَّيءَ الَّذي لا تَسبِقُه أمارَةٌ لا يُدرَى وَقتُ حُلولِه(٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَنتَظِرون بعْدَ أنْ أَشرَكوا لحُصولِ العَذابِ إلَّا حُلولَ السَّاعةِ، وعبَّر عن اليَومِ بالسَّاعَةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

تَلميحًا لِسُرعَةِ ما يَحصُلُ فيه[1].

- وفائِدةُ ذِكْرِ جُملةِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿بَغْتَةً﴾ -أي: فَجأَةً-: أنَّ السَّاعَةَ تَأتِيهم وهم غافِلُون، مَشغُولُون بأُمورِ دُنياهُم؛ فلَولا قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لَجازَ أنْ تَأتِيَهُم بَغتَةً وهم يَقِظُون حَذِرُون مُستَعِدُّون لها، ولَمَّا كان مَدلولُ ﴿بَغْتَةً﴾ يَقتَضِي عدَمَ الشُّعورِ بوُقُوعِ السَّاعَةِ حين تَقَعُ عليهم؛ كانت جُملَةُ الحالِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُؤَكِّدَةً للجُملَةِ التي قَبلَها[2].

- ويَجوزُ أن يُرادَ بـ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ الإثباتُ؛ لأنَّ الكلامَ وارِدٌ على الإنكارِ، كأنَّه قيل: هل تَزعُمون أنَّها تأتيهم بَغتَةً وهم لا يَشعُرون؟ أي: لا يَكونُ ذلك، بلْ تَأتيهِم وهم فَطِنون[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ أمْرَينِ؛ أحدُهما: بَيانُ بَعضِ الأهوالِ الَّتِي أشارَ إليها إجمالُ التَّهديدِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]. وثانيهُما: مَوعِظَةُ المُشرِكين بما يَحصُلُ يومَ القِيامَةِ مِن الأهوالِ لأمثالِهِم، والحَبْرَةِ للمُؤمنين[4].

- وقدْ أُوثِرَ بالذِّكرِ هنا مِن الأَهوالِ ما له مَزيدُ تَناسُبٍ لحالِ المُشرِكين في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

تَأَلُّبهم على مُناوأَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ودِينِ الإسلامِ؛ فإنَّهم ما أَلَّبَهم إلَّا تَناصُرُهم وتَوادُّهم في الكُفرِ والتَّباهِي بذلك بيْنَهم في نَوادِيهم وأسمارِهم؛ قال تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وتلك شِنْشَنةُ أهلِ الشِّركِ مِن قبْلُ، أي: عادتُهم المستمِرَّةُ[١].

- والمُضافُ إليه (إذ) مِن قَولِه: ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ هو المُعَوَّضُ عنه التَّنوينُ؛ دلَّ عليه المَذكورُ قَبلَه في قَولِه: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾[٢] [الزخرف: ٦٥].

- وتَعريفُ (الأخِلَّاءِ) تَعريفُ الجِنسِ، وهو مُفيدٌ استِغراقًا عُرفِيًّا، أي: الأخِلَّاءُ مِن فَريقَيِ المُشرِكين والمُؤمِنين، أو الأخِلَّاءُ مِن قُرَيشٍ المُتَحَدَّثِ عنهم[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ مَقولةٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّت عليه صِيغَةُ الخِطابِ، أي: نَقولُ لهم، أو: يَقولُ اللهُ لَهُم؛ تَشريفًا لهم، وتَطييبًا لقُلوبِهِم[٤].

- ومُفاتَحةُ خِطابِهم بنَفيِ الخَوفِ عنهم تَأْنيسٌ لهم، ومِنَّةٌ بإنْجائِهم مِن مِثلِه، وتَذكيرٌ لهم بسَبَبِ مُخالَفَةِ حالِهم لحالِ أهلِ الضَّلالَةِ؛ فإنَّهم يُشاهِدون ما يُعامَلُ به أهلُ الضَّلالَةِ والفَسادِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

- وقولُه: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ مرفوعٌ مُنوَّنٌ في جَميعِ القِراءاتِ المَشهورَةِ، وإنَّما لم يُفتَحْ؛ لأنَّ الفَتْحَ على تَضمينِ (مِن) الزَّائِدَةِ المُؤَكِّدَةِ للعُمومِ، وإذ قد كان التَّأكيدُ مُفيدًا التَّنصيصَ على عَدَمِ إرادَةِ نَفْيِ الواحِدِ، وكان المَقامُ غَيرَ مَقامِ التَّرَدُّدِ في نَفْيِ جِنسِ الخَوفِ عنهم؛ لأنَّه لم يَكُنْ واقِعًا بهم حِينَئِذٍ مع وُقوعِه على غَيرِهم، فأمارَةُ نَجاتِهم منه واضِحَةٌ -لم يُحْتَجْ إلى نَصبِ اسمِ (لا)[١].

- وجِيءَ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ بالمُسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بالمُسنَدِ الفِعليِّ؛ لإفادَةِ التَّقَوِّي في نَفيِ الحُزنِ عنهم؛ فالتَّقَوِّي أفاد تَقوِّيَ النَّفيِ لا نَفْيَ قُوَّةِ الحُزنِ الصَّادِقِ بحُزنٍ غَيرِ قَوِيٍّ، هذا هو طَريقُ الاستِعمالِ في نَفسِ صِيَغِ المُبالَغَةِ؛ تَطمينًا لأنفُسِهم بانتِفاءِ الحُزنِ عنهم في أزمِنَةِ المُستَقبَلِ؛ إذ قد يَهجِسُ بخَواطِرِهم: هل يَدومُ لهم الأمنُ الَّذي هم فيه؟[٢]

- وفي قَولِه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ * ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إيجازٌ؛ وذلك في نِداءِ اللهِ تعالى لعِبادِه؛ فقد اشتَمَل هذا النِّداءُ على أُمورٍ أربَعَةٍ: نَفَى عنهم الخَوفَ، ونَفَى عنهم الحُزنَ، وأمَرَهم بدُخولِ الجَنَّةِ، وبَشَّرَهم باستِحواذِ السُّرورِ على أنفُسِهم[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ نعْتٌ لِلمُنادى مِن قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، جِيءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

فيها بالموصولِ؛ لِدَلالةِ الصِّلةِ على عِلَّةِ انتفاءِ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم[١].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ في قولِه: ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أي: الَّذين آمَنُوا مُخلِصِين، غيرَ أنَّ هذه العِبارَةَ آكَدُ وأبلَغُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ عَطْفُ أزواجِهم عليهم في الإذنِ بدُخولِ الجنَّةِ مِن تَمامِ نِعمَةِ التَّمَتُّعِ بالخُلَّةِ التي كانَت بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم في الدُّنيا[٣]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ حُذِفَ وَصْفُ الأكوابِ؛ لدَلالَةِ وَصفِ صِحافٍ عليه، أي: وأكوابٍ مِن ذَهَبٍ[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- ولَذَّةُ الأَعيُنِ في رُؤيَةِ الأشكالِ الحَسَنَةِ والألوانِ التي تَنشَرِحُ لها النَّفسُ؛ فلَذَّةُ الأَعيُنِ وَسيلَةٌ لِلَذَّةِ النُّفوسِ؛ فعَطْفُ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ عَطْفُ ما بيْنه وبيْن المَعطوفِ عليه عُمومٌ وخُصوصٌ، وذلك تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما يُعَدُّ مِن الزَّوائِدِ في التَّنَعُّمِ والتَّلَذُّذِ؛ فقد تَشتَهي الأنفُسُ ما لا تَراهُ الأَعيُنُ؛ كالمُحادَثَةِ مع الأصحابِ، وسَماعِ الأصواتِ الحَسَنَةِ، وقد تُبصِرُ الأعيُنُ ما لم تَسبِقْ للنَّفسِ شَهوَةُ رُؤيَتِه، أو ما اشتَهَت النَّفسُ طَعْمَه أو سَمْعَه، فيُؤتَى به في صُوَرٍ جَميلَةٍ إكمالًا للنِّعمَةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

- و﴿ٱلْأَعْيُنُ﴾ فاعِلُ (تَلَذُّ)، وحُذِفَ المَفعولُ لظُهورِهِ مِن المَقامِ[1].

- وفي قَولِه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ إيجازٌ؛ فقَد حَصَر أنواعَ النِّعَمِ؛ لأنَّها لا تَعدُو أمْرَينِ اثنَينِ: إمَّا مُشتَهاةٌ في القُلوبِ، وإمَّا مُستَلَذَّةٌ في العُيونِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الغائِبِ للمُتَكَلِّمِ، وهو الْتِفاتٌ للتَّشريفِ[3].

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ تَأكيدًا لحَقيقةِ الخُلودِ؛ لِدَفعِ تَوَهُّمِ أنْ يُرادَ به طُولُ المُدَّةِ فحَسْبُ[4].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿فِيهَا﴾؛ للاهتِمامِ[5].

- وفي الخِطابِ والالْتِفاتِ، وتَقديمِ الظَّرفِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ما لا يَكتَنِهُه الوَصفُ[6].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عُطِفَ على بَعضِ ما يُقالُ لهم مَقولٌ آخَرُ قُصِدَ منه التَّنويهُ بالجَنَّةِ وبالمُؤمِنينَ؛ إذْ أُعطُوها بسَبَبِ أعمالِهِمُ الصَّالِحَةِ، فأُشيرَ إلى الجَنَّةِ باسمِ إشارَةِ البَعيدِ؛ تَعظيمًا لشَأنِها، وإلَّا فإنَّها حاضِرَةٌ نُصبَ أعيُنِهم؛ وهو تَذييلٌ للقَولِ[7].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

- ودلَّ قَولُه: ﴿ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على أنَّ عَمَلَهُم أمْرٌ كائِنٌ مُتقَرِّرٌ، وأنَّ عَمَلَهم ذلك مُتكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ، أي: غَيرُ مُنقَطِعٍ إلى وَفاتِهِم(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: لا تَأكلُون إلَّا بَعضَها؛ لكَثرَتِها ودَوامِ نَوعِها، وأَعقابُها باقِيَةٌ في شَجَرِها؛ فهي مُزَيَّنَةٌ بالثِّمارِ أبدًا مُورِقَةٌ بها، لا تَرَى شَجَرَةً عُريانَةً مِن ثَمَرِها كما في الدُّنيا(٢).

- ووَجْهُ تَكريرِ الامتنانِ بنَعيمِ المأْكلِ والمشْرَبِ في الجنَّةِ: أنَّ ذلك مِن النَّعيمِ الذي لا تَختَلِفُ الطِّباعُ البَشَرِيَّةُ في استِلذاذِهِ؛ ولذلك قال: منها تأكلون(٣)، وقيل غير ذلك(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

الآيات (٧٤-٨٠)

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لَا يُفَتَّرُ﴾: أي: لا يُخَفَّفُ، والفُتورُ: سكونٌ بعْدَ حدَّةٍ، ولِينٌ بعْدَ شدَّةٍ، وضعْفٌ بعْدَ قوَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ[١].

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ قانِطونَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يَأسٍ[٢].

﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أي: لابِثون ثابِتون مُنتظِرون في النَّارِ، مِن المُكثِ: وهو ثَباتٌ مع انتظارٍ[٣].

﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾: أي: أحْكَموا، وأصلُ (برم) هنا: يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ، مِن إبرامِ الحَبْلِ، وهو تَرديدُ فتْلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٠).

﴿وَنَجْوَاهُم﴾: أي: ما يَتَسارُّونَ به بيْنَهم، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا حالَ الأشقياءِ يومَ القِيامةِ: إنَّ المُجرِمينَ في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا، لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ، وهم فيه آيِسونَ مِن كلِّ خَيرٍ، وما ظَلَمْناهم ولكِنْ همْ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ باللهِ والعِصيانِ.

ونادَوا مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيَقضِ علينا رَبُّك؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحنُ فيه مِن العذابِ! فقال لهم مالِكٌ: إنَّكم باقونَ في العَذابِ أبدًا؛ لقدْ أُرسِلَ إليكم الرُّسُلُ بالحَقِّ مِن رَبِّكم، ولكِنَّ أكثَرَكم كانوا كارِهينَ للحَقِّ فلم يُؤمِنوا!

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مُوبِّخًا للمشركينَ: أمْ أَحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا؛ لِيَكيدوا به الحَقَّ وأهلَه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لكَيدِهم به!

أمْ يَحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم مِنَ الكلامِ الخَفيِّ، فلا يُؤاخِذُهم به؟! بلَى! لم يَغِبْ عنَّا شَيءٌ مِن شأنِهم، وسنُجازيهم عليه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذَكَر الوَعدَ أردَفَه بالوَعيدِ؛ على التَّرتيبِ المُستَمِرِّ في القُرآنِ[٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢ - ٧٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٣).

فلمَّا ذَكَر تعالَى حالَ أهلِ الجنَّةِ، وما يُقالُ لهم مِن لَذائِذِ البِشارةِ؛ أَعقَبَ ذلك بذِكرِ حالِ الكَفَرةِ وما يُجاوَبونَ به عند سُؤالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما للقِسمِ الثَّاني مِن الأخِلَّاءِ -وهم المتَّقونَ- تَرغيبًا لهم في التَّقوى؛ أَتْبَعَه ما لأضدادِهم -أهلِ القِسمِ الأوَّلِ-؛ تَحذيرًا مِن مِثلِ أعمالِهم(٢).

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤﴾.

أي: إنَّ الذين أجْرَموا في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رُسُلِه، وعِصيانِ أمرِه: في عَذابِ جهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا(٣).

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾.

أي: لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ ولو ساعةً واحِدةً(٤).

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

أي: وهم في عَذابِ جَهنَّمَ آيِسونَ مِن النَّجاةِ، غيرُ راجِينَ للفَرَجِ(٥).

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في حِكايةِ أحوالِ المُجرِمينَ، قُصِدَ منها نَفيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقَّةِ لحالِهم المحكيَّةِ بِقَولِه تعالَى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[1].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)﴾.

أي: وما ظَلَمْناهم ولكِنْ هم ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالشِّركِ باللهِ، وجُحودِهم آياتِه، وتَكذيبِهم رُسُلَه، وعِصيانِهم لأمْرِه[2].

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)﴾.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: ونادَى المُجرِمونَ -وهُمْ في النَّارِ- مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيُمِتْنا رَبُّك فيَقبِضْ أرواحَنا؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحن فيه مِنَ العَذابِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ الجَوزي: (قال المفسِّرون: يَدْعُون مالكًا خازنَ النَّارِ، فيقولون: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٤).

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (قال ابنُ زيدٍ: القَضاءُ هاهنا: الموتُ، وكذلك قال سائرُ المفَسِّرينَ). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٧٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (خاطَبوه لِيَرفَعَ دَعوتَهم إلى اللهِ تعالى شَفاعةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٩).

وقال الشنقيطيُّ: (الظَّاهِرُ أنَّ المعنى: أنَّ مُرادَهم بذلك سؤالُ مالِكٍ خازِنِ النَّارِ أنْ يدْعوَ اللهَ =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رأيتُ اللَّيلةَ رَجُلينِ أتَياني قالَا: الَّذي يُوقِدُ النَّارَ مالِكٌ خازِنُ النَّارِ، وأنا جِبريلُ، وهذا مِيكائيلُ))(١).

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

أي: أجابَهم مالِكٌ خازنُ النَّارِ بقَولِه: إنَّكم باقُونَ في عَذابِ جَهنَّمَ، ولا خُروجَ لكم منها أبدًا(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ

= لهم بالموتِ، والدَّليلُ على ذلك أمرانِ: الأوَّلُ: أنَّهم لو أرادوا دُعاءَ اللهِ بأنفُسِهم أنْ يُميتَهم لَمَا نادَوا ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، ولَمَا خاطَبوه في قولِهم: ﴿رَبُّكَ﴾. والثاني: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ في سُورة «المؤمن» أنَّ أهلَ النَّارِ يَطلُبونَ من خَزَنةِ النَّارِ أنْ يَدعوا اللهَ لهم؛ لِيُخَفِّفَ عنهم العذابَ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]) ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٦).

(١) رواه البخاري (٣٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال الله تَبارك وتعالَى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: لقدْ أرسَلْنا إليكم رَسولَنا بالحقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم ﴾ الآيةَ، يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ مالكٍ لأهلِ النَّارِ، ويكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ على حَدِّ ما يُدخِلُ أحَدٌ -حمَّله الرَّئيسُ كِتابَه- نَفْسَه في فِعلِ الرَّئيسِ، فيَقولُ: غلَبْناكم وفعَلْنا بكم.. ونحوَ هذا، ثُمَّ يَنقَطِعُ كلامُ مالكٍ في قَولِه: ﴿كَٰرِهُونَ﴾. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ مِن قَولِ اللهِ تعالى لِقُرَيشٍ بعَقِبِ حِكايةِ أمرِ الكُفَّارِ مع مالكٍ، وفي هذا توعُّدٌ وتَخويفٌ فَصيحٌ، بمعنى: انظُروا كيف تكونُ حالُكم؟! ثمَّ تَتَّصِلُ الآيةُ على هذا بما بعْدَها مِن أمرِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ اللهِ تعالى، وأنَّه خِطابٌ لأهلِ النَّارِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، واستظْهَره الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

قال الزمخشريُّ: (لَمَّا سألوا مالِكًا أنْ يَسألَ اللهَ تعالى القَضاءَ عليهم، أجابَهم اللهُ بذلك). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو السُّعود: (﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ في الدُّنيا؛ بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهةِ اللهِ تعالى، مُقَرِّرٌ لجوابِ مالكٍ، ومُبَيِّنٌ لِسَبَبِ مُكثِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

وممَّن ذهبَ إلى أنَّه مِن كلامِ مالكٍ خازنِ النَّارِ: مقاتلُ بنُ سُليمان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

قال ابنُ عاشورٍ: (وضَميرُ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ للملائِكةِ، والحَقُّ: الوَحيُ الَّذي نزَل به جِبريلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠). =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كارِهونَ لِما جاءَكم به رسولُنا مِن الحقِّ، فلم تَقْبلوه، ولم تَخضَعوا له وتَنقادوا إليه(١)!

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨، ٩].

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عَذابِهم في الآخِرةِ؛ ذكَرَ بعْدَه كَيفيَّةَ مَكرِهم، وفَسادَ

= وقال ابنُ القيِّم: (الحَقُّ هاهنا: هو ما بُعِث به المُرسَلونَ. باتِّفاقِ المفَسِّرينَ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥١).

وقال الشَّوكانيُّ: (المرادُ بالحقِّ: كلُّ ما أمَرَ اللهُ به على ألسُنِ رُسلِه وأنزَلَه في كُتبِه. وقيل: هو خاصٌّ بالقُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

وممَّن خصَّص معنى الحقِّ هنا بالقُرآن: السَّمعانيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ: لقدْ أرسَلْنا إليكم -يا مَعشَرَ قُريشٍ- رَسولَنا محمَّدًا بالحقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

وقال البقاعيُّ: (﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم﴾، أي: في هذه السُّورةِ خُصوصًا، وجميعِ القُرآنِ عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

قال الشَّوكانيُّ: (قيل: ومعْنى ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾: كلَّكم. وقيل: أرادَ الرُّؤساءَ والقادةَ، ومَن عداهم أتْباعٌ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨).

باطِنِهم في الدُّنيا، فقال[١]:

﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ۝٧٩ ﴾.

أي: أمْ أحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا يَكيدونَ به الحَقَّ وأهْلَه، ولم يَقتَصِروا على كَراهتِه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لِكَيدِهم به[٢]!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا * وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٨٠ ﴾.

﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم ﴾.

أي: أمْ يظُنُّ أولئك المُشرِكونَ باللهِ أنَّا لا نَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم من الكَلامِ الخَفيِّ، فلا نُؤاخِذُهم بذلك[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الألوسيُّ: (إنْ كان ذاك خِطابًا لأهلِ النارِ، فإبرامُ الأمرِ في مُجازاتِهم هو تَخليدُهم في النارِ مُعذَّبين، وإنْ كان خطابًا لقُريشٍ، فهو خِذْلانُهم ونصْرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، فكأنَّه قيل: فإنَّا مُبْرِمون أمْرًا في مُجازاتِهم وإظهارِ أمْرِك). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٣).

وقال الماورديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أمْ أجْمَعوا على التَّكذيبِ فإنَّا مُجمِعون على الجزاءِ بالبعثِ. قاله قتادةُ. الثاني: أمْ أحْكَموا كيْدًا، فإنَّا مُحكِمون لها كيْدًا. قاله ابنُ زيْدٍ. الثالثُ: قضَوا أمرًا فإنَّا قاضُون عليهم بالعذابِ. قاله الكلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

أي: بلَى! نحن نَسمَعُ ما يُسِرُّونَ، وما به يَتناجَونَ، ومَلائِكتُنا الحَفَظةُ عِندَهم يَكتُبونَ جَميعَ أحاديثِهم، وسيُجازَونَ عليها[1]!

كما قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يَسمَعُ كلامَك وإنْ خفَتَ؛ فإيَّاك أنْ تُسمِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ كلامًا لا يَرضاه منك، واحرِصْ على أنْ تُسمِعَ اللهَ ما يَرْضاه منك[2].

= (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: ما المرادُ بالسِّرِّ والنَّجوى؟ قُلتُ: السِّرُّ ما حَدَّث به الرَّجُلُ نَفسَه أو غيرَه في مكانٍ خالٍ. والنَّجوى: ما تكَلَّموا به فيما بيْنَهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو هلالٍ العسْكريُّ: (الفرْقُ بيْن النَّجوى والسِّرِّ: أنَّ النَّجوى اسمٌ للكلامِ الخفيِّ الذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّك ترَفعُه عن غيْرِه؛ وذلك أنَّ أصلَ الكلمةِ الرِّفعةُ، ومنه النَّجْوةُ من الأرضِ...، والسِّرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النفْسِ، ولو اختفَى بسِترٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكُنْ سِرًّا). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٥٥٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ - قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾، بعْدَما وصَفَهم بالإبلاسِ في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ والمبْلسُ: اليائسُ السَّاكِتُ سُكوتَ يائسٍ مِنْ فَرَجٍ[(١)]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: تلك أزمِنةٌ مُتطاوِلةٌ وأحقابٌ مُمتدَّةٌ، فتَختَلِفُ بهم الأحوالُ؛ فيَسكُتونَ أوقاتًا لغَلَبةِ اليأسِ عليهم، ويَستَغيثون أوقاتًا لشِدَّةِ ما بهم[(٢)].

الوَجهُ الثَّاني: نِداؤُهم لا يُنافي إبلاسَهم؛ لأنَّه السُّكوتُ عن يأسٍ، فسُكوتُهم المقَيَّدُ باليأسِ دائِمٌ؛ فلذلك سَألوا الموتَ، والحاصِلُ: أنَّهم لا يَتكَلَّمونَ بما يدُلُّ على رَجاءِ الفَرَجِ، بلْ هم ساكِتونَ أبدًا عن ذلك[(٣)].

٢ - قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّهم لا يُجابونَ إلى الموتِ، بلْ يَمكُثونَ في النَّارِ مُعَذَّبينَ إلى غيرِ نِهايةٍ[(٤)].

٣- القَضاءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ بمعْنى: الإماتَةِ، وسَألوا اللهَ أنْ يُزيلَ عنهم الحَياةَ ليَستَريحُوا مِن إحساسِ العَذابِ، وهم إنَّما سَألوا اللهَ أنْ يُميتَهُم، فأُجِيبُوا بأنَّهُم ماكِثُون جَوابًا جامِعًا لنَفيِ الإماتَةِ

---

(١) قال ابن عاشورٍ: (والإبلاسُ: اليأْسُ والذُّلُّ... وزاد الزَّمخشريُّ في معْنى الإبلاسِ قَيْدَ السُّكوتِ ولم يَذكُرْه غيرُه، والحقُّ أنَّ السُّكوتَ مِن لوازِمِ معنى الإبلاسِ وليسَ قيدًا في المعْنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٦-١٤٧).

ونَفيِ الخُروجِ؛ فهو جَوابٌ قاطِعٌ لِمَا قدْ يَسألُونَه مِن بَعدُ[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ سُؤالٌ مَعروفٌ؛ وهو أنْ يُقالَ: يُفهَمُ مِن مَفهومِ مُخالَفةِ الآيةِ: أنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ ليْسوا كارِهِين للحقِّ.

والجوابُ عن هذا السُّؤالِ: هو ما أجابَ به بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ كانوا لا يَكرَهون الحَقَّ، وسَببُ امتناعِهِم عن الإيمانِ باللهِ ورسولِه ليْس هو كَراهيتَهم للحقِّ، ولكنَّ سَببَه الأَنفةُ والاستنكافُ مِن تَوبيخِ قَومِهم، وأنْ يَقولوا: صَبَؤوا وفارَقوا دِينَ آبائِهم، ومِن أمثلةِ مَن وقَعَ له هذا أبو طالبٍ؛ فإنَّه لا يَكرَهُ الحقَّ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقدْ كان يشُدُّ عَضُدَه في تَبليغِه رِسالتَه، ولكنَّ السَّببَ المانعَ له مِن اعتناقِ الإسلامِ هو الأَنَفةُ والخوْفُ مِن مَلامةِ قوْمِه أو سَبِّهم له[2].

وأيضًا فإنَّما نُسِبَتْ كَراهَةُ الحَقِّ إلى أكثَرِهم دُونَ جَميعِهم؛ لأنَّ المُشرِكين فَريقانِ: أحَدُهُما: سادَةٌ كُبَراءُ لِمِلَّةِ الكُفرِ، وهم الَّذين يَصُدُّون النَّاسَ عن الإيمانِ بالإرهابِ والتَّرغيبِ، وثانِيهُما: دَهماءُ وعامَّةٌ، وهمْ تَبَعٌ لأَئِمَّةِ الكُفرِ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عَطفُ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ لِيَعلَموا أنَّ عِلمَ اللهِ بما يُسِرُّونَ عِلمٌ يَترتَّبُ عليه أثَرٌ فيهم، وهو مُؤاخَذتُهم بما يُسِرُّونَ؛ لأنَّ كِتابةَ الأعمالِ تُؤذِنُ بأنَّها ستُحسَبُ لهم يوْمَ الجَزاءِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٣).

٦- إنَّ طَريقةَ القُرآنِ: يذكُرُ العِلمَ والقُدرةَ تَهديدًا وتَخويفًا؛ ليُرتِّبَ الجزاءَ عليهما، كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهذا كثيرٌ جِدًّا في القرآنِ، وليس المرادُ به مُجرَّدَ الإخبارِ بالقُدرةِ والعِلم، لكِنِ الإخبارُ مع ذلك بما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الجَزاءِ وبالعَدلِ؛ فإنَّه إذا كان قادِرًا أمكَنَ مُجازاتُه، وإذا كان عالِمًا أمكَنَ ذلك بالقِسطِ والعَدلِ، ومَن لم يكُنْ قادِرًا لم يُمكِنْ مُجازاتُه، وإذا كان قادِرًا لكِنَّه غيرُ عالمٍ بتَفاصيلِ الأعمالِ ومَقاديرِ جَزائِها، لم يُجازِ بالعَدلِ، والرَّبُّ تعالَى مَوصوفٌ بكَمالِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ لِهَذه الجُملةِ مَوقِعانِ: أحَدُهما: إتمامُ التَّفصيلِ لِمَا أجْمَلَه الوَعيدُ الَّذي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقبَ تَفصيلِ بَعضِه بقَولِه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦] إلخ، وبقَولِه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، حيث قُطِعَ إتمامُ تَفصيلِه بالاعتِناءِ بذِكْرِ وَعدِ المُؤمِنين المُتَّقين؛ فهي في هذا المَوقِعِ بَيانٌ لجُملَةِ الوَعيدِ، وتَفصيلٌ لإجمالِها. المَوقِعُ الثَّاني: أنَّها كالاستِئنافِ البَيانيِّ يُثيرُه ما يُسمَعُ مِن وَصْفِ أحوالِ المُؤمِنين المُتَّقين مِن

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٠).

التَّساؤُلِ: كيف يَكونُ حالُ أَضدادِهم المُشرِكين الظَّالِمين[١]؟

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فيه افتِتاحُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتِمام به، أو لتَنزيلِ السَّائِلِ المُتَلَهِّفِ للخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في مَضمونِه؛ لشِدَّةِ شَوقِه إليه، أو نَظَرًا إلى ما في الخَبَرِ مِن التَّعريضِ بإسماعِهِ المُشرِكين وهم يُنكِرون مَضمونَه؛ فكَأنَّه قيل: إنَّكُم أيُّها المُجرِمون في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُون[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الرَّاسِخين في الإجرام، وهُم الكُفَّارُ المُشرِكون المُكَذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ السِّياقَ لهم حَسْبَما يُنْبِئُ عنه إيرادُهم في مُقابَلَةِ المُؤمنين بالآياتِ، ولأنَّ الجُملَةَ بَيانٌ لإجمالِ وَعيدِهِم في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]، ولأنَّ جَوابَ الملائكةِ نِداءَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- بقَولِهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] لا يَنطبِقُ على غيرِ المكذِّبين، أي: كارِهونَ للإسلامِ والقرآنِ؛ فذِكْرُ المُجرِمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّنبيهِ على أنَّ شِركَهم إجرامٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُملَةٌ مُعتَرِضَةٌ في حِكايَةِ أحوالِ المُجرِمين، قُصِدَ منها نَفْيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفْيُ الرِّقَّةِ لحالِهِم المَحكِيَّةِ بقَولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٤] [الزخرف: ٧٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

- وضَميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُجتَلَبٌ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الظُّلمِ على اسمِ (كان)، وإذ قدْ كان حَرفُ الاستِدراكِ بعْدَ النَّفيِ كافِيًا في إفادَةِ القَصرِ، كان اجتِلابُ ضَميرِ الفَصلِ تأكيدًا للقَصرِ بإعادَةِ صِيغَةٍ أُخرَى مِن صِيَغِ القَصرِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ حُكِيَ نِداؤُهم بصِيغَةِ الماضي مع أنَّه مِمَّا سيَقَعُ يومَ القِيامَة؛ إمَّا لأنَّ إبلاسَهم في عَذابِ جَهَنَّم -وهو اليَأسُ- يَكونُ بعْدَ أنْ نَادَوْا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، وأجابَهم بما أجابَ به، وذلك إذا جُعِلَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حاليَّةً، وإمَّا لتنزيلِ الفِعلِ المُستَقبَلِ مَنزِلَةَ الماضي في تَحقيقِ وُقوعِه؛ تَخريجًا للكَلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ، وهذا إنْ كانَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ ...﴾ إلخ مَعطوفَةً[2].

- واللَّامُ في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ لامُ الأَمرِ بمَعنَى الدُّعاءِ. وتَوجيهُ الأمرِ إلى الغائِبِ لا يَكونُ إلَّا على مَعنَى التَّبليغِ كما هنا، أو تَنزيلِ الحاضِرِ مَنزِلَةَ الغائِبِ لاعتِبارٍ ما؛ مثلِ التَّعظيمِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ تَتِمَّةُ الجوابِ إنْ كان في (قالَ) ضَميرُ اللهِ، وإلَّا فجَوابٌ منه؛ فكَأنَّه تعالَى تَولَّى جَوابَهم بعْدَ جَوابِ مالِكٍ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهَةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨، ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠).

تعالَى مُقَرِّرٌ لجَوابِ مالِكٍ، ومُبَيِّنٌ لسَبَبِ مُكثِهِم[١].

- وجُملَةُ ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملَةِ ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾؛ باعتِبارِ تَمامِ الجُملَةِ، وهو الاستِدراكُ بقَولِه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿جِئْنَاكُم﴾ للمَلائِكَةِ -على قولٍ-، و(الحقُّ): الوَحيُ الَّذي نَزَل به جِبريلُ -على قولٍ أيضًا-؛ فنَسَب مالِكٌ المَجيءَ بالحَقِّ إلى جَمعِ المَلائِكَةِ على طَريقَةِ اعتِزازِ الفَريقِ والقَبيلَةِ بمَزايَا بَعضِها[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِلْحَقِّ﴾ على ﴿كَارِهُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالحَقِّ تَنويهًا به، وفيه مُراعاةٌ للفاصِلَةِ أيضًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ للإنْحاءِ باللَّائِمَةِ على المُشرِكين لِمَا بَدَرَ منهم، و(أمْ) مُنقَطِعَةٌ بمعنى (بل) للإضرابِ والانتِقالِ مِن تَوبيخِ أهلِ النَّارِ وحِكايَةِ حالِهِم إلى حِكايَةِ جِنايَةِ هَؤلاءِ المُشرِكين[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ، فإنْ أُريدَ بالإبرامِ الإحكامُ حَقيقةً، فهيَ لإنكارِ الوُقوعِ واستبعادِه، وإنْ أُريدَ الإحكامُ صُورةً، فهي لإنكارِ الواقِعِ واستِقباحِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضاهُ الاستِفهامُ مِن تَقديرِ حُصولِ المُستَفهَمِ عنه؛ فيَؤُولُ الكَلامُ إلى مَعنَى الشَّرطِ، أي: إنْ أَبرَموا أمرًا مِن الكَيدِ فإنَّ اللهَ مُبرِمٌ لهم أمرًا مِن نَقضِ الكَيدِ، وإلحاقِ الأذى بِهِم، ونَظيرُه وفي مَعناهُ قَولُه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[1] [الطور: ٤٢].

- قَولُه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الخِطابِ إلى الغَيبَةِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك أسوَأُ مِن كَراهَتِهم للحقِّ[2].

- وجاء قولُه: ﴿أَبْرَمُوا﴾ فِعلًا و﴿مُبْرِمُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ، فخُولِفَ بيْنهما في الصِّيغةِ؛ لأنَّ إبرامَهم واقِعٌ، وأمَّا إبرامُ اللهِ جَزاءٌ لهم؛ فهو تَوعُّدٌ بأنَّ اللهَ قَدَّرَ نَقْضَ ما أبرَموه؛ فإنَّ اسمَ الفاعِلِ حَقيقَةٌ في زَمَنِ الحالِ، أي: نحْن نُقَدِّرُ لهم الآنَ أمرًا عَظيمًا، قيل: ذلك إيجادُ أسبابِ وَقعَةِ بدرٍ التي استُؤصِلُوا فيها[3].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُبْرِمُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ما قَبلَه عليه[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ (أمْ) والاستِفهامُ المُقَدَّرُ بَعدَها استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ. وحَرفُ (بلى) جَوابٌ للنَّفيِ مِن قَولِه: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾، أي: بَلى نَحنُ نَسمَعُ سِرَّهُم ونَجواهُم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨١-٨٩)

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى
ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَخُوضُوا۟﴾: الخوضُ: الدُّخولُ في الحَديثِ، ويُطلَقُ على الجِدالِ واللَّجاجِ غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ مِن الكلامِ، وأكثرُ ما ورَدَ في القرآنِ ورَد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وأصلُه: الدُّخولُ في الماءِ والشُّروعُ فيه والمرورُ، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على تَوسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[1].

﴿وَتَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[2].

﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: الشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسُؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه. ومنه:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

الشَّفاعةُ في القِيامةِ(١).

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدونَ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه(٢).

﴿وَقِيلِهِۦ﴾: أي: وقَولِه، والقَولُ والقيلُ والقالُ بمعنًى واحدٍ، مِن النُّطقِ(٣).

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أي: فأَعرِضْ عنهم، واترُكْ عُقوبتَهم على اللهِ تعالَى، يُقالُ: صَفحْتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصَرَف عنه وجْهَه(٤).

مُشكِلُ الإعراب:

قَولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ مَجرورٌ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَعطوفٌ على «السَّاعةِ» في قولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ، وعِلمُ قِيلِه: يَا رَبِّ.... الثاني: أنَّ الواوَ حَرفُ قَسَمٍ. و(قِيلِه): مُقسَمٌ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٢/ ١٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

به مَجرورٌ بواوِ القَسَمِ، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ، تَقديره: لَتُنصَرنَّ، أو لأفعَلَنَّ بهم ما أُريدُ، أو جَوابُ القَسَمِ قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾. ومَقولُ القَولِ قَولُه: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

وقُرِئَ بالنَّصبِ، وفيه أوجهٌ: أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ عَطفًا على مَحَلِّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه؛ لأنَّ ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَصدَرٌ مُضافٌ إلى مَفعولِه؛ فلَفظُ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ مَجرورٌ لَفظًا بالإضافةِ، مَنصوبٌ محَلًّا على المفعوليَّة، وما كان كذلك جاز في تابِعِه النَّصبُ إتْباعًا للمَحَلِّ، والخَفضُ إتْباعًا للَّفظِ. الثاني: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿سِرَّهُمۡ﴾ في قَولِه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وما بيْنَهما مُعترِضٌ، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجواهم، وقِيلَه: يا رَبِّ. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، أي: وقال قِيلَه. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بإضمارِ فِعلٍ، أي: ويَعلَمُ قِيلَه. وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُلقِّنُ اللهُ تعالَى نَبيَّه الحُجَّةَ الَّتي يرُدُّ بها على المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لو فُرِضَ أنَّ للرَّحمنِ تعالَى وَلَدًا ببُرهانٍ صَحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الوَلدِ؛ فلو فُرِضَ كان منِّي هذا، ولكنْ هذا مُمتَنِعٌ في حَقِّه سُبحانَه تعالَى، تنَزَّه اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه وجَلالِه تعالَى!

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُهدِّدُ أولئكَ الكافرينَ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٨).

فيقولُ: فاترُكْهم -يا مُحمَّدُ- يَخوضوا في باطِلِهم وجَهلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا اليومَ الذي يَحِلُّ فيه عَذابُهُم!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على أنَّه الإلهُ الحقُّ: واللهُ وَحْدَه هو المعبودُ في السَّماءِ، وهو المعبودُ وَحْدَه في الأرضِ، وهو الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، العَليمُ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ، وتَبارك اللهُ الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وعِندَه عِلمُ مَجيءِ السَّاعةِ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

ولا يَملِكُ الَّذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعيسى والملائكةِ-، وهم يَشهَدونَ بذلك على عِلمٍ وبَصيرةٍ، فيأذَنُ لهم اللهُ تعالَى بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما كان عليه المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ هؤلاء المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَن الذي خلقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه. فكيْف يُصرَفونَ عن عِبادةِ اللهِ تعالَى الذي خَلَقَهم مع اعترافِهم بذلك؟!

واللهُ تعالَى عِندَه عِلمُ قَولِ رسولِه: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشركينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ؛ فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عنهم، وقُلْ لهم: سَلامٌ عليكم؛ فسَوفَ يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الَّذين ظَلَموا بادِّعاءِ بُنُوَّةِ المَلائكَةِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقِبَ قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ

مَثَلًا ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وعَقِبَ قَولِه قبْلَه: ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وأُعقِبَ بما يَنتظِرُهم مِن أَهوالِ القِيامَةِ، وما أُعِدَّ لِلَّذين انخَلَعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ -أمَرَ اللهُ رَسولَه أنْ يَنتَقِلَ مِن مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أنْ يَكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ؛ جَمعًا بيْنَ الرَّدِّ على بَعضِ المُشرِكين الَّذين عَبَدوا المَلائكةَ، والَّذين زَعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهم بَناتُ اللهِ، مِثلُ اللَّاتِ والعُزَّى، فأمَره بقَولِه[1]:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك جَدَلًا: إنْ ثَبَت أنَّ للرَّحمنِ وَلَدًا ببُرهانٍ صحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الولَدِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ في تأويلِ الآيةِ أربعةُ أقوالٍ:
الأوَّلُ: أنَّها احتجاجٌ وردٌّ على الكُفَّارِ على تقديرِ قَولِهم، ومعناها: لو كان للرَّحمنِ وَلَدٌ كما يقولُ الكُفَّارُ لكُنتُ أنا أوَّلَ مَن يَعبُدُ ذلك الولَدَ. كما يُعظِّمُ خَدَمُ المَلِكِ وَلَدَ المَلِكِ؛ لِتَعظيمِ والِدِه، ولكِنْ ليس للرَّحمنِ وَلَدٌ؛ فلَستُ بعابِدٍ إلَّا اللهَ وَحْدَه. وهذا نوعٌ مِنَ الأدِلَّةِ يُسَمَّى دَليلَ التَّلازُمِ؛ لأنَّه عَلَّق عِبادةَ الوَلَدِ بوُجودِه، ووجودُه مُحالٌ؛ فعِبادتُه مُحالٌ.
القَولُ الثَّاني: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ [أي: في قولِكم] فأنا أوَّلُ مَن عَبَد اللهَ وَحْدَه، وكَذَّبَكم في قَولِكم: إنَّ له ولَدًا، و﴿ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ على هذينِ القَولَينِ بمعنى العبادةِ.
القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ العابِدينَ بمعنى المُنكِرينَ؛ يقال: عَبِدَ الرَّجُلُ: إذا أنِفَ وتكَبَّرَ وأنكَرَ الشَّيءَ، والمعنى: إنْ زَعمتُم أنَّ للرَّحمنِ ولَدًا فأنا أوَّلُ المُنكِرينَ لذلك، و﴿ إِن ﴾ على هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ شَرطيَّةٌ.
القَولُ الرَّابِعُ: قال قتادةُ وابنُ زيدٍ: «إنْ» هنا نافيةٌ، بمعنى: ما كان للرَّحمنِ وَلَدٌ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ ابتدأ قولُه: ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤). =

= وممَّن اختار القولَ الأولَ: الزمخشريُّ، والرازي، وابن جُزَيٍّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الشوكانيُّ: (وفيه نَفيٌ للوَلَدِ على أبلَغِ وَجهٍ، وأتمِّ عِبارةٍ، وأحسَنِ أُسلوبٍ، وهذا هو الظَّاهِرُ مِنَ النَّظمِ القُرآنيِّ، ومِن هذا القَبيلِ قَولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ومِثلُ هذا قَولُ الرَّجُلِ لِمن يُناظِرُه: إنْ ثَبَت ما تَقولُه بالدَّليلِ فأنا أوَّلُ مَن يَعتَقِدُ ويَقولُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨).

وقال ابنُ جرير: (معْنى الكلامِ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ: إنْ كان للرَّحمنِ ولَدٌ فأنا أوَّلُ عابِدِيه بذلك مِنكم، ولكِنَّه لا وَلَدَ له، فأنا أعبُدُه بأنَّه لا وَلَدَ له، ولا يَنبغي أن يكونَ له. وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قُلْنا مِن هذا الوَجهِ لم يكُنْ على وَجهِ الشَّكِّ، ولكِنْ على وَجهِ الإلطافِ مِن الكلامِ وحُسنِ الخِطابِ، كما قال جَلَّ ثَناؤُه ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقد علِمَ أنَّ الحقَّ معه، وأنَّ مُخالِفيه في الضَّلالِ المُبينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١).

قال ابنُ عطيةَ: (قال قتادةُ والسُّدِّيُّ والطَّبَريُّ: المعنى: قُلْ لهم: إنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ كما تقولونَ فأنا أوَّلُ مَن يَعبُدُه على ذلك، ولكِنْ ليس به شَيءٌ مِن ذلك، تعالى وجَلَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والأزهريُّ، والزجَّاج، والثَّعلبي، والواحدي -ونسَبه لأكثر أهلِ العِلم-، والسَّمعانيُّ والبَغويُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ١٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: أبو عُبيدةَ، ونُسب هذا القولُ إلى الكلْبيِّ، والكسائيِّ، وسفيانَ الثوريِّ، والمُبَرد. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

قال ابن كثيرٍ: (هذا القولُ فيه نظرٌ؛ لأنَّه كيف يَلتئِمُ مع الشَّرطِ فيكون تَقديرُه: إنْ كان هذا فأنا =

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالَى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ... ﴾ الآيةَ؛ نزَّه نَفسَه تَنزيهًا تامًّا عمَّا يَصِفونَه به مِن نِسبةِ الوَلَدِ إليه، مُبَيِّنًا أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العَرشِ جَديرٌ بالتَّنزيهِ عن الوَلَدِ، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه[1].

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه تعالَى، ومِن ذلك دَعْواهم أنَّ له وَلَدًا سُبحانَه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

= مُمتنِعٌ منه؟ هذا فيه نظرٌ، فلْيُتأمَّل. اللهمَّ إلَّا أنْ يقالَ: «إنْ» ليْست شرطًا، وإنَّما هي نافيةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

ومِمَّن اختار القولَ الرابعَ: مقاتلُ بن سُليمان، والأخفشُ، وابنُ أبي زمنين، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٥)، ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ١١٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ[(١)].

وقيل: لا نسْخَ فيها[(٢)].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فاترُكْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ يَخوضُوا في باطِلِهم وجَهْلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم إلى أنْ يُلاقوا اليومَ الَّذي يَحِلُّ فيه عَذابُهم وهَلاكُهم[(٣)]!

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف -وهي قولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩]-: محمدُ بن حزم، وابنُ عطية، وابنُ الفرس، والقُرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، ومرْعي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ١٨، ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥).

ونسَب ابنُ الجَوزي والرَّسعنيُّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤).

(٢) ممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ الجوزي، والرَّسعني، وعلَمُ الدين السخاوي. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (٢/ ٨٢٥).

وعلَّل ذلك ابنُ الجوْزيِّ والرَّسعنيُّ بأنَّها واردةٌ للوعيدِ، وخارجةٌ مَخرجَ التهديدِ؛ فلا نسْخَ إذنْ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١) و(٩/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: يومُ القِيامةِ: ابنُ جرير، وابنُ كَثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾.

أي: واللهُ تعالَى هو المَعبودُ الحَقُّ في السَّماءِ، وهو المعبودُ الحَقُّ في الأرضِ[١].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ الحِكمةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالغُ العِلمِ، فيَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[٢].

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

= قال ابن عطيةَ: (قال الجمهورُ: اليومُ الذي توعَّدهم به يومُ القِيامة. وقال عِكرمةُ وغيرُه: هو يومُ بَدْرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦).

وقال القرطبيُّ: (إمَّا العذابُ في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (اليومُ هنا مُحتَمِلٌ لِيَوم بَدرٍ، ولِيَوم القيامة، وكِلاهما قدْ وُعِدُوه، والوَعدُ هنا بمعنى الوَعيدِ، كما دَلَّ عليه السِّياقُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (المعنى الصَّحيحُ المُجتَمَعُ عليه... أنَّه في السَّماءِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ السَّماءِ، وفي الأرضِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ، وكذا قال أهلُ العلمِ بالتَّفسيرِ... وأمَّا قَولُه ...: ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ فالإجماعُ والاتِّفاقُ قد بَيَّن أنَّ المرادَ أنَّه مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نَزَّه اللهُ تعالَى ذاتَه المُقدَّسةَ، وأثبَتَ لِنَفسِه استِحقاقَ الإلهيَّةِ بالإجماعِ مِن خَلْقِه بما ركَزَه في فِطَرِهم، وهَداهم إليه بعُقولِهم؛ أتْبَعَ ذلك أدِلَّةً أُخرى بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ بما تَسَعُه العُقولُ، وبما لا تَسَعُه؛ مُصَرِّحًا بالمُلْكِ، فقال[(١)]:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: تعالَى وتَقَدَّس وكَثُر خيرُه وإحسانُه؛ اللهُ الَّذي له مُلكُ جميعِ السَّمَواتِ والأرضِ، وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ فيها[(٢)].

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه مَن يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ السَّاعةِ[(٣)].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ، فيَبعَثُكم للحِسابِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعَمَلِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعديُّ: (مِن تمامِ مُلكِه وسَعَتِه أنَّه مالِكُ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أطنَبَ اللهُ تعالَى في نَفيِ الوَلَدِ؛ أردَفَه ببَيانِ نَفيِ الشُّرَكاءِ[1].

وأيضًا لَمَّا أنبَأهم أنَّ لِلَّهِ مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّ عِندَه عِلمَ السَّاعةِ؛ أعلَمَهم أنَّ ما يَعبدونَه مِن دونِ اللهِ لا يَقدِرُ على أنْ يَشفَعَ لهم في الدُّنيا؛ إبطالًا لزَعمِهم أنَّهم شُفَعاؤُهم عندَ اللهِ، ولَمَّا كان مِن جُمَلةِ مَن عُبِدوا دُونَ اللهِ المَلائِكةُ، استَثناهُم بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فهُم يَشفَعونَ[2].

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

أي: ولا يَملِكُ الذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحَدٍ عندَ اللهِ[3].

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إلَّا[4] مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعدي: (ومِن تَمامِ مُلكِه أنَّه لا يَملِكُ أحَدٌ مِن خَلْقِه مِن الأمرِ شَيئًا، ولا يُقدِمُ على الشَّفاعةِ عنده أحَدٌ إلَّا بإذنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قيل: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ورجَّحه ابنُ عطيةَ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وقيل: الاستِثناءُ هنا مُنقَطِعٌ، بمعنى: لَكِنْ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ =

بذلك عن عِلمٍ ويَقينٍ وبَصيرةٍ، فاللهُ يَأذَنُ لهم بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ المُوحِّدينَ، فتَنفَعُ حِينَها شَفاعتُهم[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

= تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٢-٤٠٥، ٤٠٩-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣).

قال ابن تيميةَ: (التَّحقيقُ في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ الاستثناءَ مُنقَطِعٌ، ولا يَملِكُ أحَدٌ من دونِ اللهِ الشَّفاعةَ مُطلقًا. لا يُستَثنى من ذلك أحَدٌ عندَ اللهِ... فلمَّا نفى مُلْكَهم الشَّفاعةَ بَقِيَت الشَّفاعةُ بلا مالِكٍ لها، كأنَّه قد قيل: فإذا لم يَملِكوها هلْ يَشفَعونَ في أحَدٍ؟ فقال: نعمْ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. وهذا يَتناوَلُ الشَّافعَ والمَشفوعَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٢، ٤٠٩-٤١١).

وقال ابن جُزَيٍّ: (اختُلِفَ هل يَعني بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الشَّافِعَ أو المشفوعَ فيه؛ فإنْ أراد المشفوعَ فيه فالاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: لا يَملِكُ المَعبودونَ شَفاعةً، لكِنْ مَن شَهِدَ بالحَقِّ وهو عالِمٌ به فهو الذي يُشفَعُ فيه، ويحتَمِلُ على هذا أن يكونَ ﴿مَن شَهِدَ﴾ مَفعولًا بالشَّفاعةِ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، تَقديرُه: الشَّفاعة فيمن شَهِدَ بالحَقِّ، وإنْ أراد بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الشَّافعَ فيَحتَمِلُ أن يكونَ الاستِثناءُ مُنقَطِعًا، وأن يكونَ مُتَّصِلًا، إلَّا فيمن عَبَد عيسى والملائكةَ، والمعنى على هذا: لا يَملِكُ المعبودونَ شَفاعةً إلَّا مَن شَهِدَ بالحَقِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢، ٦٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣-٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٠-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٥-٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((الوسيط)) (٤/ ٨٣-٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (أي: وهم يَعلَمونَ حالَ مَن يَستَحِقُّ الشَّفاعةَ؛ فقدْ عُلِمَ أنَّهم لا يَشفَعونَ للَّذين خالَف حالُهم حالَ مَن يَشهَدُ لله بالحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ أنْ أمعَنَ في إبطالِ أنْ يكونَ إلهٌ غَيرُ اللهِ بما سِيقَ مِن التَّفصيلاتِ، جاء هنا بكَلِمةٍ جامِعةٍ لإبطالِ زَعمِهم إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، بقَولِه تعالَى[(١)]:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلْتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي خَلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه[(٢)].

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: فكيفَ ومِن أيِّ جِهةٍ يُصرَفُ المُشرِكونَ -مع اعتِرافِهم هذا- عن عِبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَهم، إلى عِبادةِ غَيرِه[(٣)]؟!

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ بكَسرِ اللَّامِ والهاءِ، قيل: هي مَعطوفةٌ على ﴿ٱلسَّاعَةِ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ والمعنى: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ وعِلمُ قِيلِه. وقيل غيرُ ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قرَأ بها عاصمٌ وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠). =

٢- قِراءةُ ﴿وَقِيلَهُ﴾ بفتْحِ اللَّامِ وضَمِّ الهاءِ، على العَطفِ على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم ولا نَسمَعُ قِيلَه: يا رَبِّ. وقيل: مَعطوفٌ على مَوضِعِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه. وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾.

أي: وعِندَ اللهِ تعالَى عِلمُ قولِ رَسولِه -شاكيًا إليه تَكذيبَ قَومِه-: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الذي جِئتُهم به[٢]!

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: الآيةُ منسوخةٌ[٣].

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١).

(١) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥-٦٥٦). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف: مقاتلُ بن سُليمان، والثَّعلبي، والمَقَّري، ومحمد بن حزم، وابنُ الفرس، والعُلَيمي، ومرْعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للمَقَّري (ص: ١٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ٥٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤١)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥). =

وقيل: لا نسْخَ فيها[1].

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عن أولئك المُشرِكينَ، وأعرِضْ عن مُؤاخَذتِهم وعِتابِهم[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾.

أي: وقُلْ لهم: سَلِمْتُم منَّا، فلا نُجيبُكم بسُوءٍ[3].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخِطابِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أمَرَ نَبيَّه

= قال الألوسي: (إنْ أُريدَ مِن الآيةِ الكَفُّ عن القتالِ فهي مَنسوخةٌ، وإنْ أُريدَ الكَفُّ عن مُقابَلتِهم بالكلامِ فليست بمنسوخةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٨).

(١) ممَّن اختار أنَّه لا نَسْخَ: الرازيُّ، وعلَمُ الدِّين السخاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٠)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٤٦٣).

ورجَّح ابنُ باز -تبعًا لابن تيميَّةَ- أنَّه لا نَسْخَ، وأنَّ ذلك يختَلِفُ باختلافِ أحوالِ المسلمينَ قُوَّةً وضَعفًا.

قال ابنُ باز: (وهذا القَولُ أظهَرُ وأَبيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعِدةَ الأُصوليَّةَ: أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدِلَّةِ، والجَمعُ هنا غيرُ مُتعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

قال البقاعي: (﴿سَلَٰمٞۚ﴾ أي: شأني الآنَ مُتارَكتُكم بسَلامتِكم منِّي وسلامَتي منكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٥٠١).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ ذلك للمُشرِكينَ؛ تَهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَرِ، على أنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُشرِكينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم[٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ المُشرِكونَ حَقيقةَ ما سيَلقَونَه؛ جَزاءَ كُفرِهم بالحَقِّ، وشِرْكِهم باللهِ تعالَى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشَّرطُ لا يدُلُّ على وُقوعِ المشروطِ؛ بلْ ولا على إمكانِه، كما في قَولِه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ونَظائِره[٤].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فيه وَصفُه برُبوبيَّةِ أقْوى المَوجوداتِ وأَعَمِّها وأعظَمِها؛ لأنَّه يُفيدُ انتِفاءَ أنْ يَكونَ له وَلَدٌ؛ لانتِفاءِ فائِدَةِ الوِلادَةِ؛ فقدْ تَمَّ خَلْقُ العَوالِمِ ونِظامُ نَمائِها ودَوامِها، وعُلِمَ مِن كَونِه خالِقِها أنَّه غَيرُ مَسبوقٍ بعَدَمٍ؛ وإلَّا لَاحتاجَ إلى خالِقٍ يَخلُقُه، واقتَضى عَدَمُ السَّبقِ

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

بعَدَمِ أنَّه لا يَلحَقُه فَناءٌ؛ فوُجودُ الوَلَدِ له يكونُ عَبَثًا[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليْس في ذلك ما يدُلُّ على الحُلولِ بهما، وإنَّما أراد أنَّه إلهُ السَّماءِ ومَن فيها، وإلهُ الأرضِ ومَن فيها، ومِثلُ هذا مِن الكَلامِ قَولُك: هو بخُراسانَ أميرٌ وبمِصرَ أميرٌ؛ فالإمارةُ تَجتَمِعُ له فيهما، وهو حالٌّ بأحدِهما أو بغَيرِهما. هذا واضِحٌ لا يَخفَى[٢].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدُلُّ على مَعنَيَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الشَّفاعةَ بالحَقِّ غَيرُ نافِعةٍ إلَّا مع العِلمِ، وأنَّ التَّقليدَ لا يُغني مع عدَمِ العِلمِ بصِحَّةِ المقالةِ.

والثَّاني: أنَّ شَرْطَ سائِرِ الشَّهاداتِ في الحُقوقِ وغَيرِها: أنْ يكونَ الشَّاهِدُ عالِمًا بها[٣]؛ فالشَّهادةُ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ سابِقٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الشَّاهِدَ المَقبولَ عندَ اللهِ هو الذي يَشهَدُ بعِلمٍ وصِدقٍ، فيُخبِرُ بالحَقِّ مُستَنِدًا إلى عِلمِه به[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ شِركَ العَرَبِ كان شِركًا في الألوهيَّةِ لا في الرُّبوبيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ[١]؛ فالآيةُ فيها أنَّ الكُفَّارَ كانوا مُعترِفينَ بالصَّانعِ[٢].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببعضِ الحقِّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا ولم يَنفَعْهم الإقرارُ به؛ حيثُ رَدُّوا غيرَه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ...﴾ وصحَّ ذلك، وثبَتَ ببُرهانٍ صَحيحٍ تُورِدونَه، وحُجَّةٍ واضحةٍ تُدْلُون بها؛ فأنا أَوَّلُ مَن يُعظِّمُ ذلك الوَلَدَ، وأسْبَقُكم إلى طاعتِه والانقيادِ له، كما يُعظِّمُ الرَّجلُ ولَدَ المَلِكِ لتَعظيمِ أبيه. وهذا كَلامٌ وارِدٌ على سَبيلِ الفَرضِ والتَّمثيلِ لغَرَضٍ، وهو المُبالَغةُ في نَفيِ الوَلَدِ والإطنابُ فيه، وألَّا يَترُكَ النَّاطِقُ به شُبهَةً إلَّا مُضمَحِلَّةً، مع التَّرجَمَةِ عن نَفسِه بثَباتِ القَدَمِ في بابِ التَّوحيدِ؛ وذلك أنَّه عَلَّق العِبادَةَ بكَينونَةِ الوَلَدِ، وهي مُحالٌ في نَفسِها؛ فكان المُعَلَّقُ بها مُحالًا مِثلَها؛ فهو في صُورةِ إثباتِ الكَينونَةِ والعِبادَةِ، وفي مَعنَى نَفيِهما على أبلَغِ الوُجوهِ وأقْواها[٤].

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ وهذا الاستِدلالُ الذي في الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

على وِزانِ الاستدلالِ في قولِه تعالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلَّا أنَّ تلك جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ صَريحةٍ في الامتناعِ (لو)، وهذه جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ غيرِ صَريحةٍ في الامتناع (إنْ). والنُّكتَةُ في العُدولِ عن الأداةِ الصَّريحةِ في الامتِناعِ هنا: إيهامُهُم في بادِئِ الأمْرِ أنَّ فَرْضَ الوَلَدِ لِلَّهِ مَحَلُّ نَظَرٍ، ولِيَتَأتَّى أنْ يَكونَ نَظمُ الكَلامِ مُوَجَّهًا؛ حتَّى إذا تَأَمَّلوه وَجَدوه يَنفِي أنْ يكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ بطَريقِ المَذهَبِ الكَلامِيِّ[١]؛ ففي نَظمِ الآيَةِ إيجازٌ بَديعٌ، وإطماعٌ للخُصومِ بما إنْ تَأَمَّلوه استَبانَ وَجهُ الحَقِّ، فإنْ أعرَضُوا بعْدَ ذلك عُدَّ إعراضُهُم نُكوصًا[٢].

- وأُسلوبُ الآيَةِ قَريبٌ مِن المُشاكَلَةِ، وإطْباقِ الجَوابِ على السُّؤالِ؛ فإنَّهُم لَمَّا قالوا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦]، حَسُنَ منه صَلَواتُ اللهِ عليه أنْ يَقولَ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ تَكمِلَةً لِمَا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه، أي: قلْ: إنْ كان للرَّحمَنِ وَلَدٌ على الفَرضِ والتَّقديرِ؛ مع تَنْزيهِهِ عن تَحَقُّقِ ذلك في نَفْسِ الأمرِ. وليْسَ في ضَميرِ ﴿يَصِفُونَ﴾ الْتفاتٌ؛ لأنَّ تَقديرَ الكلامِ: قُلْ لهم: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ كَلامًا مُستَأنَفًا من جانِبِ اللهِ تعالَى؛ لإنشاءِ تَنْزيهِه

(١) قال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند عُلماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يَذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يَستدُلُّ عليه بضُروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٠).

عمَّا يقولُون؛ فتكونَ مُعترِضَةً بيْن جُملَةِ ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾ وجُملَةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ولهذه الجُملَةِ معَنَى التَّذييلِ؛ لأنَّها نَزَّهَت اللهَ عن جَميعِ ما يَصِفونَه به مِن نِسبَةِ الوَلَدِ وغَيرِ ذلك(١).

- قَولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَمَّا كان المَقامُ للتَّنزيهِ، وجِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرَ -لأنَّه أبعَدُ عن النَّقصِ والنَّقيضِ- ولم يَقتَضِ الحالُ إعادَةَ لَفظِ الرَّبِّ، بخِلافِ ما يأتي آخِرَ (الجاثِيَةِ) ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: ٣٦]؛ فإنَّه لإثباتِ الكَمالِ، ونَظَرِه إلى جَميعِ الأشياءِ على حَدٍّ سَواءٍ، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ -أي: ولم يقُلْ: (ورَبِّ الأرضِ)(٢).

- وفي تَكريرِ اسمِ الرَّبِّ في قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ تَفخيمٌ لِشَأنِ العَرشِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ اعتراضٌ بتَفريعٍ عن تَنْزيهِ اللهِ عمَّا يَنسُبونَه إليه مِن الوَلَدِ والشُّركاءِ، وهذا تَأْييسٌ مِن إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأَوْلَى به مُتارَكَتُهم في ضَلالِهم إلى أنْ يَحينَ يَومُ يَلقَون فيه العَذابَ المَوعودَ(٤).

- والأَمرُ في قولِه: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ، مِن قَبيلِ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾(٥) [فصلت: ٤٠].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٧).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]، والجُملَتانِ اللَّتانِ بيْنَهما اعتِراضانِ؛ قُصِد مِن العَطفِ إفادَةُ نَفيِ الشَّريكِ في الإلَهيَّةِ مُطلقًا بعْدَ نَفيِ الشَّريكِ فيها بالبُنُوَّةِ، وقُصِد بذِكْرِ السَّماءِ والأرضِ الإحاطَةُ بعَوالِمِ التَّدبيرِ والخَلْقِ؛ لأنَّ المُشرِكين جَعَلوا لِلَّهِ شُرَكاءَ في الأرضِ، وهم أصنامُهم المَنصُوبةُ، وجَعَلوا له شُرَكاءَ في السَّماءِ، وهم المَلائكةُ؛ إذ جَعَلوهم بَناتٍ لِلَّهِ تعالَى؛ فكان قَولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إبطالًا للفَريقَينِ ممَّا زُعِمت إلَهيَّتُهم[1].

- وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ بهَذِه الجُملَةِ أنْ يَكونَ أوَّلُها ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾، على أنَّه وَصْفٌ للرَّحمنِ مِن قَولِه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]؛ فعُدِلَ عن مُقتَضى الظَّاهِرِ بإيرادِ الجُملَةِ مَعطوفةً، وبإيرادِ مُبتَدأٍ فيها؛ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الإلَهيَّةِ في السَّماءِ وفي الأَرضِ على اللهِ تعالَى، لا يُشارِكُه في ذلك غَيرُه؛ لأنَّ إيرادَ المُسنَدِ إليه مَعرِفَةً والمُسنَدِ مَعرِفَةً طَريقٌ مِن طُرُقِ القَصرِ؛ فالمَعنَى: وهو -لا غَيرُه- الَّذي في السَّماءِ إلَهٌ وفي الأَرضِ إلَهٌ[2].

- وصِلَةُ ﴿ٱلَّذِى﴾ جُملَةٌ اسمِيَّةٌ حُذِفَ صَدرُها، وصَدرُها ضَميرٌ يَعودُ إلى مُعادِ ضَميرِ ﴿وَهُوَ﴾، وحَذفُ صَدرِ الصِّلَةِ استِعمالٌ حَسَنٌ إذا طالَت الصِّلَةُ كما هنا، والتَّقديرُ: الَّذي هو في السَّماءِ إلَهٌ[3].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فيه دَلالةٌ على اختِصاصِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١).

تعالَى باستِحقاقِ الأُلوهيَّةِ؛ فإنَّ التَّقديمَ يدُلُّ على الاختِصاصِ[١].

- وكرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ مُنَكَّرًا؛ لأنَّ الإلَهَ هنا بمَعنَى المَعبودِ، وهو تعالَى مَعبودٌ فيهما، والمُغايَرَةُ إنَّما هي بيْن مَعبودِيَّتِه في السَّماءِ ومَعبودِيَّتِه في الأرضِ؛ لأنَّ المَعبودَ به مِن الأُمورِ الإضافِيَّةِ؛ فيَكفي التَّغايُرُ فيها مِن أَحَدِ الطَّرَفَينِ؛ فإذا كان العابِدُ في السَّماءِ غيرَ العابِدِ في الأرضِ، صَدَق أنَّ مَعبودِيَّتَه في السَّماءِ غَيرُ مَعبودِيَّتِه في الأرضِ، مع أنَّ المَعبودَ واحِدٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بعْدَ أنْ وُصِفَ اللهُ بالتَّفرُّدِ بالإلَهيَّةِ، أُتْبِعَ بوَصفِه بالحَكيمِ العَليمِ؛ تَدقيقًا للدَّليلِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، حيثُ دلَّ على نَفيِ إلَهيَّةِ غَيرِه في السَّماءِ والأرضِ، واختِصاصِه بالإلَهيَّةِ فِيهِما؛ لِمَا في صِيغَةِ القَصرِ مِن إثباتِ الوَصفِ له، ونَفْيِه عمَّن سِواهُ؛ فكان قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَتميمًا للدَّليلِ، واستِدلالًا عليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عطْفٌ على ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، قُصِدَ منه إتْباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ. و(تَبارَكَ) خَبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ المَدحِ؛ لأنَّ مَعنَى (تبارَكَ): كان مُتَّصِفًا بالبَرَكةِ اتِّصافًا قَوِيًّا؛ لِمَا يَدُلُّ عليه صِيغَةُ (تَفاعَلَ) مِن قُوَّةِ حُصولِ

(١) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).

المُشتَقِّ منه؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تَدُلَّ على صُدورِ فِعلٍ مِن فاعِلينَ، مِثلُ: تَقاتَل وتَمارَى، فاستُعْمِلَت في مُجرَّدِ تَكرُّرِ الفِعلِ، وذلك مِثلُ: تَسامَى وتَعالَى[1].

- وقدْ ذُكِرَ مع التَّنْزيهِ أنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ؛ لاقتِضاءِ الرُّبوبيَّةِ التَّنْزيهَ عن الوَلَدِ المَسوقِ الكَلامُ لنَفيه، وعن الشَّريكِ المَشمولِ بقولِه: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وذُكِرَ مع التَّبريكِ والتَّعظيمِ أنَّ له مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ لمُناسَبةِ المُلْكِ للعَظَمَةِ وفَيضِ الخَيرِ؛ فلا يَريبُكَ أنَّ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُغنٍ عن ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ غَرَضَ القُرآنِ التَّذكيرُ، وأغراضُ التَّذكيرِ تُخالِفُ أغراضَ الاستِدلالِ والجَدَلِ؛ فإنَّ التَّذكيرَ يُلائِمُ التَّنبيهَ على مُختَلَفِ الصِّفاتِ، باختِلافِ الاعتِباراتِ، والتَّعرُّضَ للاستِمدادِ مِن الفَضلِ. ثمَّ إنَّ صِيغَةَ (تَبارَكَ) تدُلُّ على أنَّ البَرَكَةَ ذاتيَّةٌ لِلَّهِ تعالَى؛ فيَقتَضِي استِغناءَه عن الزِّيادَةِ باتِّخاذِ الوَلَدِ واتِّخاذِ الشَّريكِ؛ فبِهذا الاعتِبارِ كانتْ هذه الجُملَةُ استِدلالًا آخَرَ تابِعًا لدَليلِ قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] [الزخرف: ٨٢].

- وقدْ تأكَّدَ انفِرادُه برُبوبيَّةِ أعظَمِ المَوجوداتِ ثَلاثَ مرَّاتٍ بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[3].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُفيدًا التَّصرُّفَ في هذه العَوالِمِ مُدَّةَ وُجودِها ووُجودِ ما بيْنها؛ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ لِلَّهِ مع مُلكِ العَوالِمِ الفانيَةِ مُلْكَ العَوالِمِ الباقيَةِ، وأنَّه المُتَصَرِّفُ في تِلكَ العَوالِمِ بما فيها بالتَّنعيم والتَّعذيبِ؛ فكان قَولُه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ تَوطِئَةً لقَولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وإدماجًا[1] لإثباتِ البَعثِ[2].

- قَولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه الْتفاتٌ مِن الغَيبَةِ إلى الخِطابِ؛ للمُباشَرَةِ بالتَّهديدِ[3].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لقَصدِ التَّقَوِّي؛ إذ لَيس المُخاطَبون بمُثبِتينَ رُجعَى إلى غَيرِه؛ فإنَّهُم لا يُؤمِنون بالبَعثِ أصلًا. وأمَّا قَولُهُم للأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فمُرادُهم أنَّهُم شُفعاءُ لهم في الدُّنيا، أو هو على سَبيلِ الجَدَلِ؛ ولذَلِكَ أُتبِعَ بقَولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[4] [الزخرف: ٨٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ باعتِبارِ مَعنَى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفرادَ أوَّلًا في ﴿شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ باعتِبارِ لَفظِها[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧).

- وفرَّع على هذا التَّقريرِ والإقرارِ الإنكارَ والتَّعجيبَ مِن انصرافِهم مِن عِبادةِ اللهِ إلى عِبادةِ آلِهةٍ أُخرى بقولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

- وبُني ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ للمَجهولِ؛ إذ لم يَصرِفْهم صارِفٌ، ولَكِنْ صَرَفوا أنفُسَهم عن عِبادةِ خالِقِهم، كقَولِ العَرَبِ: أين يُذْهَبُ بك، أي: أيْن تَذهَبُ بنَفسِك؛ إذ لا يُريدون أنَّ ذاهِبًا ذَهَب به يَسأَلونه عنه، ولَكِنَّ المُرادَ أنَّه لم يَذهَبْ به أَحَدٌ، وإنَّما ذَهَب بنَفسِه[2].

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إنْ سَأَلَهم مَن يتأَتَّى منه أنْ يَسأَلَ، وهذا أعَمُّ[3].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

- ضَميرُ الغائِبِ في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ الْتِفاتٌ عن الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ فإنَّه بعْدَ ما مَضَى مِن المُحاجَّةِ ومِن حِكايةِ إقرارِهم بأنَّ اللهَ الَّذي خَلَقهم، ثمَّ إنَّهُم لم يَتزَحزَحوا عن الكُفرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ حَصَل اليَأسُ للرَّسولِ مِن إيمانِهم؛ فقال: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ الْتِجاءً إلى اللهِ فيهم، وتَفويضًا إليه؛ ليُجرِيَ حُكمَه عليهم، وهذا مِن استِعمالِ الخَبَرِ في التَّحَسُّرِ أو الشِّكايَةِ، وهو خَبرٌ بمَعنَى الإنشاءِ، ويُؤَيِّدُ هذا تَفريعُ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٩]؛ ففي ضَميرِ الغَيبَةِ الْتِفاتٌ؛ فمُقتَضى الظَّاهِرِ: وقَولُك: يا رَبِّ... إلخ، ويُحَسِّنُ هذا الالْتِفاتَ أنَّه حِكايَةٌ لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ؛ فجَعَل الرَّسولَ بمَنزِلَةِ الغائِبِ؛ لإظهارِ أنَّ اللهَ لا يُهمِلُ نِداءَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وشَكواهُ[١].

- وإضافَةُ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ مُشعِرَةٌ بأنَّه تكَرَّر منه، وعُرِفَ به عِندَ رَبِّه، أي: عُرِفَ بِهَذا وبما في مَعناهُ[٢].

- ويَجوزُ في جَرِّ قولِه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وَجهانِ: أحدُهما: أنْ يَكونَ مَجرورًا عَطفًا على السَّاعَةِ في قَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِلمُ قِيلِ الرَّسولِ: يا رَبِّ، وهو على هذا وَعدٌ للرَّسولِ بالنَّصرِ وتَهديدٌ لهم بالانتِقام. وثانيهما: أنْ تكونَ الواوُ للقسَمِ، ويكونَ جَوابُ القسَمِ جُملةَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، على أنَّ اللهَ أقسَمَ بقَولِ الرَّسولِ: يا ربِّ، تَعظيمًا للرَّسولِ ولِقِيلِه الذي هو تَفويضٌ للرَّبِّ وثِقةٌ به. ومَقولُ (قِيلِه) هو ﴿يَٰرَبِّ﴾ فقطْ، أي: أُقْسِمُ بنِداءِ الرَّسولِ ربَّه نِداءَ مُضطَرٍّ. وقدْ حُذِفَ بعْدَ النِّداءِ ما نُودِيَ لأجلِه ممَّا دلَّ عليه مَقامُ مَن أعيَتْه الحِيلَةُ فيهم؛ ففَوَّضَ أَمْرَه إلى رَبِّه، فأقسَمَ اللهُ بتِلكَ الكَلِمَةِ على أنَّهم لا يُؤمِنون، ولَكِنَّ اللهَ سيَنتَقِمُ مِنهُم؛ فلذلك قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٣] [الزخرف: ٨٩].

- والإشارَةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى المُشرِكين مِن أهلِ مَكَّة، كما هي عادَةُ القُرآنِ غالِبًا. ووَصْفُهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أدَلُّ على تَمَكُّنِ عَدَمِ الإيمانِ مِنهُم مِن أنْ يَقولَ: (هَؤُلاءِ لا يُؤمِنون)[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فَصيحَةٌ؛ لأنَّها أفصَحَت عن مُقدَّرٍ، أي: إذْ قُلتَ ذلك القِيلَ، وفَوَّضْتَ الأمْرَ إلينا؛ فسَأتَوَلَّى الانتِصافَ مِنهُم، فاصْفَحْ عنهم، أي: أَعرِضْ عنهم، ولا تَحزَنْ لهم[(١)].

- وأصلُ ﴿سَلَٰمٞ﴾ مَصدرٌ جاء بَدَلًا مِن فِعلِه؛ فأَصلُه النَّصبُ، وعُدِلَ إلى رَفعِه؛ لقَصدِ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسَوفَ يَعلَمون حالَهم البتَّةَ وإنْ تأخَّرَ ذلكَ، وهو وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم مِن اللهِ، وتَسلِيَةٌ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٣)]. وعلى قِراءةِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾[(٤)] ففيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى الخِطابِ؛ لِتَهديدِهم وتَقريعِهم وتَوبيخِهم[(٥)]، ويكونُ مِمَّا أُمِرَ الرَّسولُ بأنْ يَقولَه لهم، أيْ: وقُلْ: سوفَ تَعْلَمونَ[(٦)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّهويلِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُهم كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[(٧)].

- وما في هذه الآيَةِ مِن الأمْرِ بالإعراضِ والتَّسليمِ في الجِدالِ والوَعيدِ، ما يُؤذِنُ بانتِهاءِ الكَلامِ في هذه السُّورَةِ، وهو مِن بَراعَةِ المَقطَعِ[(٨)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

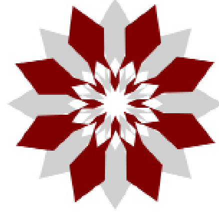
(٤) يُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التفسير (ص: ٢٩٩ - ٣٠٠).

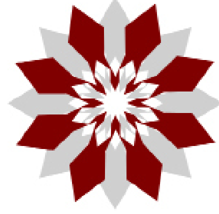
(٥) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

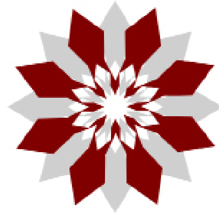
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

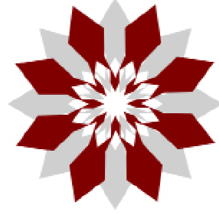
(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

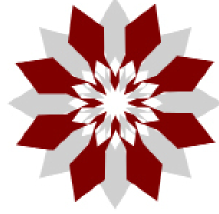


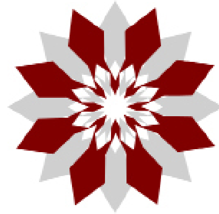




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الدُّخَانِ







سُورةُ الدُّخَانِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ الدُّخَانِ[(١)].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ[(٢)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٣)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الدُّخَانِ:

١- إثباتُ الوَحدانيَّةِ للهِ سُبحانَه وتعالَى، وتقريرُ البَعثِ والنُّشورِ[(٤)].

٢- إثباتُ إنزالِ القُرآنِ مِن اللهِ تعالَى[(٥)].

---

(١) سُمِّيَت سورةُ الدُّخَانِ بذلك؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]؛ اهتِمامًا بشَأنِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

وتُسمَّى أيضًا (حم الدُّخَانِ) قال ابنُ عاشور: (واللَّفظانِ بمَنزلةِ اسمٍ واحِدٍ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حم» غيرُ خاصَّةٍ بهذه السُّورةِ، فلا تُعَدُّ عَلَمًا لها؛ ولذلك لم يَعُدَّها صاحِبُ «الإتقان» في عدادِ السُّوَرِ ذواتِ أكثَرَ مِن اسمٍ، وسُمِّيَت في المصاحِفِ وفي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ الدُّخَانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥١).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سُورةُ الدُّخَانِ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وبيانُ بَدءِ نُزولِه.

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بالعَذابِ؛ جَزاءً على تَمادِيهم في الإعراضِ والشَّكِّ.

٣- سَوقُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ فِرعَونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ أقوالِ المُشرِكينَ الباطِلةِ في شأنِ البَعثِ، مع الرَّدِّ عليهم بما يَدحَضُ حُجَّتَهم.

٥- وَصفُ أهوالِ يومِ القِيامةِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ.

٦- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، مع وَعْدِه بالنَّصرِ على أعدائِه.



الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: أي: كَثيرةِ الخيْراتِ والبرَكاتِ، والبرَكةُ: كثْرةُ الخيرِ ودَوامُه، ومَن ألْقى اللهُ عليه برَكتَه فهو المبارَكُ، فالبرَكةُ: ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وأصلُ (برك): اللُّزومُ والثُّبوتُ(١).

﴿يُفۡرَقُ﴾: أي: يُفصَلُ ويُقضَى، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تَمييزٍ بيْنَ شيئَينِ(٢).

﴿مُّوقِنِينَ﴾: جمْع مُوقِنٍ، واليقينُ من صِفاتِ العِلمِ، يُقال: عِلم يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكمِ، واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابِقُ للواقِعِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧، ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣ - ٦].

- في نَصبِ ﴿أَمْرًا﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ تَرجِعُ إلى أربعةِ أشياءَ: الحاليَّةِ، والمفعولِ له، والمصْدريَّةِ، والمفعولِ به، وبَيانُها على النَّحوِ التَّالي: أحَدُها: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أو مِن مَفعولِه، أي: آمِرينَ به، أو مَأمورًا به. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن ﴿كُلُّ﴾، أو مِن ﴿أَمْرٍ﴾؛ لأنَّه وُصِفَ. الثَّالِثُ: أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه مَنصوبٌ، وناصِبُه إمَّا ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، وإمَّا ﴿مُنذِرِينَ﴾، وإمَّا ﴿يُفْرَقُ﴾. الرَّابعُ: أنَّه مَصدرٌ مَنصوبٌ مِن مَعنى ﴿يُفْرَقُ﴾، أي: يُفرَقُ فَرْقًا؛ لأنَّ ﴿أَمْرًا﴾ بمعْنى (فَرْقًا)، فوُضِع ﴿أَمْرًا﴾ مَوضِعَ (فرْقًا). الخامسُ: أنَّه مَصدَرٌ لـفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: أمَرْنا أمرًا. السَّادِسُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ فِعلٍ، أي: أعني أمرًا مِن عندِنا. وقيل غيرُ ذلك.

- وفي نَصبِ ﴿رَحْمَةً﴾ أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها مَفعولٌ لأجلِه مَنصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، أو ﴿أَمْرًا﴾، أو ﴿يُفْرَقُ﴾، أو ﴿مُنذِرِينَ﴾. الثَّاني: أنَّها مَصدرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ مِن لَفظِه، أي: رَحِمْنا رَحْمةً. الثَّالِثُ: أنَّها مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُرْسِلِينَ﴾. الرَّابعُ: أنَّها حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُرْسِلِينَ﴾، أي: راحِمينَ أو ذَوِي رَحمةٍ[1].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٣).

المعنى الإجماليُّ:

ابتَدأ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ التي تَأتي لبَيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالكِتابِ الواضِحِ المُبينِ لكُلِّ شَيءٍ يُحتاجُ إليه -على أنَّه أنْزَلَ القُرآنَ الكريمَ في لَيْلةٍ مُبارَكةٍ هي لَيْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، مُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا النَّاسَ بهذا القُرآنِ مِن وُقوعِ العَذابِ بهم إنْ لم يُقلِعوا عن الشِّركِ والعِصيانِ.

ثمَّ أخبَرَ سُبحانَه عن هذه اللَّيلةِ المبارَكةِ -لَيْلةِ القَدْرِ- بأنَّه يُفرَقُ فيها كُلُّ أمرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ، حالَ كَونِ ذلك الأمرِ أمرًا مِن عندِه تعالَى، إنَّه كان مُرسِلًا رَسولًا يَتْلو آياتِه؛ رَحمةً منه تعالَى بعِبادِه، إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ثمَّ وصَفَ اللهُ تعالَى نفْسَه بما يدُلُّ على عظَمتِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال: خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنهما، إنْ كُنتُم موقِنينَ. لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، يُحيي ويُميتُ، هو خالِقُكم وخالِقُ آبائِكم الأوَّلينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذينِ الحرْفينِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ الواضِحِ الموضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إلى بَيانِه[٢].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ أوَّلِ سورةِ الزُّخرفِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الخازن)) =

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في ليْلةٍ كَثيرةِ البرَكاتِ والخيْراتِ، وهي ليْلةُ القَدْرِ من شَهرِ رَمَضانَ[1].

= (٤/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال ابنُ عطية: (﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفِعلِ المتعَدِّي، أي: يُبينُ الهُدى والشَّرعَ ونَحوَه، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن غيرِ المتعَدِّي، أي: هو مُبينٌ في نَفسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥) و(٣/ ٤٥٣).

وقال أبو السعود: (أي: البيِّنِ لِمن أُنزِلَ عليهم؛ لِكَونِه بلُغَتِهم وعَلى أساليبِهم، أو ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لطريقِ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالةِ، المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إليهِ في أبوابِ الدِّيانة). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩).

ممَّن اختار أنَّه بمعنى البَيِّنِ: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥).

قال الشنقيطي: (ومن إتيانِ «أبان» لازمةً: يَكْثُرُ في القرآنِ اسمُ فاعلِها ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ و﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو مِنْ «أَبانَ» اللازمة). ((العذب النمير)) (١/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّه بمعنى المُبينِ لِغَيرِه: الخازن، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٤) و(٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

وممَّن اختار الجمْعَ بين المعنيَينِ: البقاعي، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الزُّخرف. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير العثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

قال ابنُ عثيمين: (فقَولُنا: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِن أبان الشَّيءَ: إذا أظهَرَه، يعني: أنَّ القُرآنَ أظهَرَ كُلَّ شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إليه في دينِهم ودُنياهم. وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البَيِّنُ. والأعَمُّ أنَّه مُظهِرٌ للحَقِّ؛ لأنَّه لا يُظهِرُ الحَقَّ إلَّا إذا كان هو ظاهِرًا، وعلى هذا فَفَسِّر ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ بأنَّه الْمُظهِرُ، وإنْ فَسَّرْتَه بهما فلا بأسَ، فقُلتَ: إنَّه بَيِّنٌ مُبينٌ؛ لأنَّ الكَلِمةَ إذا احتَمَلت مَعنَيَينِ -وهذه قاعدة- لا يُنافي أحدُهما الآخَرَ، وليس أرجَحَ منه؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا مُخَوِّفينَ ومُحَذِّرينَ النَّاسَ بالقُرآنِ مِن أنْ تحُلَّ بهم عُقوبتُنا إنْ لم يَتوبوا مِن شِرْكِهم وكُفرِهم وعِصيانِهم[1].

= (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

قال الرَّسْعني: (اللَّيلةُ المُباركةُ: ليلةُ القَدْرِ، في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وعامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٩). ونَسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧).

وقال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وهذه هي لَيْلةُ القدْرِ قطعًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. ومَن زعَم أنَّها لَيْلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ فقدْ غَلِط). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٢). ويُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٦/ ٤٤٧، ٤٤٨).

قال السَّمعاني: (وفي معنى هذا الإنزالِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّه أُنزِلَ جَميعُ القُرآنِ في لَيْلةِ القَدْرِ إلى السَّماءِ الدُّنيا...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالإنزالِ هاهنا ابتداءُ الإنزالِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ نُزولُ القُرآنِ إلى السَّماءِ الدُّنيا لَيْلةَ القَدْرِ جُملةً واحِدةً، ثمَّ نُزولُه بعْدَ ذلك مُفرَّقًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جُزي، والزَّركشي ونسَبَه إلى الأكثرينَ، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ٢٢٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وأنَّ ابتداءَ نُزولِ القُرآنِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في ليلةِ القَدرِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبَه إلى الجُمهورِ-، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

قال الشنقيطي: (لا شَكَّ أنَّ ليلةً هي خيرٌ مِن ألفِ شَهرٍ، إلى آخِرِ الصِّفاتِ التي وُصِفَت بها في سُورةِ «القَدْرِ»: كثيرةُ البَرَكاتِ والخَيراتِ جِدًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧). =

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾.

أي: يُقضَى ويُبيَّنُ ويُكتَبُ في ليْلةِ القَدرِ المباركةِ كُلُّ أمْرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ البالِغةِ[1].

= وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جملةٌ استِئنافيَّةٌ فُسِّرَ بها جَوابُ القَسَم -الَّذي هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾- كأنَّه قيل: أنزَلْناه؛ لأنَّ مِن شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العِقابِ. ذكَره الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢-١٧٣).

قال الماوردي: (في ﴿يُفْرَقُ﴾ أربعةُ أوجهٍ: أحدُها: يُقضى. قاله الضَّحَّاك. الثاني: يُكتَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثالث: يُنزَلُ. قاله ابنُ زيْدٍ. الرابع: يُخرَجُ. قاله ابنُ سنانٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٥).

وقال البقاعي: (﴿يُفْرَقُ﴾ أي: يُنشَرُ ويُبيَّنُ ويُفَصَّلُ ويُوضَّحُ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليْلةِ القدْرِ يُفصَلُ مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى الكَتَبةِ أمرُ السَّنةِ، وما يكونُ فيها مِن الآجالِ والأرزاقِ، وما يكونُ فيها إلى آخِرِها. وهكذا رُوِي عن ابنِ عُمرَ، وأبي مالكٍ، ومُجاهدٍ، والضَّحَّاكِ، وغيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦).

وقال الشنقيطي: (معْنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى في كلِّ ليْلةِ قدْرٍ مِن السَّنةِ يُبيِّنُ للملائكةِ ويَكتُبُ لهم بالتَّفصيلِ والإيضاحِ جميعَ ما يقَعُ في تِلك السَّنةِ إلى ليْلةِ القدْرِ مِن السَّنةِ الجديدة، فتُبيَّنُ في ذلك الآجالُ والأرزاقُ، والفقرُ والغِنى، والخِصبُ والجدْبُ، والصِّحَّةُ والمرضُ، والحروبُ والزَّلازلُ، وجميعُ ما يقَعُ في تلك السَّنةِ كائنًا ما كان). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢-١٧٣).

وقال الواحدي: (والأمرُ الحَكيمُ: المُحكَمُ، يعني: أمرَ السَّنةِ إلى مِثلِها مِن العامِ المُقبِلِ، يَقضي اللهُ في تلك اللَّيلةِ ما هو كائنٌ في السَّنةِ مِن الخَيرِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والأرزاقِ والآجالِ، ومَحوٍ وتَثبيتِ ما يَشاءُ. وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: ذي حِكمةٍ بالِغةٍ؛ لأنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه اللهُ مُشتَمِلٌ على أنواعِ الحِكَمِ الباهِرةِ. =

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

أي: حالَ كَونِ ذلك الأمْرِ أمْرًا مِن عِندِنا[١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مُرسِلينَ رَسولًا يَتْلو آياتِ اللهِ، ويُبَلِّغُ رِسالتَه[٢].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

= وقال بَعضُهم: حَكيمٌ، أي: مُحكَمٌ، لا تَغييرَ فيه ولا تَبْديلَ. وكِلا الأمرَينِ حَقٌّ؛ لأنَّ ما سَبَق في عِلمِ اللهِ لا يَتغَيَّرُ ولا يَتبَدَّلُ، ولأنَّ جميعَ أفعالِه في غايةِ الحِكمةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

مِن المفَسِّرين مَن عمَّم بحيثُ يَشمَلُ ذلك جميعَ المُرسَلينَ. ومنهم: السَّمرقنديُّ، وابن أبي زَمنين، والبَغَوي، وابن الجوْزي، والرازي، وأبو حيان، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

ومنهم مَن خَصَّص ذلك بالنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، منهم: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

قال الماوَرديُّ: (﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجُهٍ: أحَدُها: مُرسِلينَ الرُّسُلَ للإنذارِ. الثَّاني: مُنزِلينَ ما قَضَيناه على العِبادِ. الثَّالِثُ: مُرسِلينَ رَحمةً مِن رَبِّك). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٦).

أي: رَحمةً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بِعبادِه[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العَليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم[٢].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾.

أي: خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، والمالِكِ والمُدبِّرِ لجميعِ ذلك، إنْ كُنتُم مُتحَقِّقينَ بذلك[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

قيل: معنى ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كُنتُم تَطلُبونَ اليَقينَ وتُريدونَه، فاعرِفوا أنَّ الأمْرَ كما قُلْنا، كقَولِهم: (فلانٌ مُنْجِدٌ مُتْهِمٌ) أي: يُريدُ نَجْدًا وتِهامةَ.

وقيل: معنى الشَّرطِ: أنَّ إرسالَ الرُّسُلِ وإنزالَ الكُتُبِ: رَحمةٌ مِن الرَّبِّ. ثمَّ قيلَ لهم: إنَّ هذا الرَّبَّ هو السَّميعُ العَليمُ الذي أنتم مُقِرُّونَ بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، أي: إنْ كان إقرارُكم عن إيقانٍ باللهِ تعالَى وإتقانٍ لِمَعرفته.

وقيل: هو تقريرٌ وتَثبيتٌ، أي: إنْ كُنتَ مُوقِنًا بهذا يكونُ يَقينُك، كما تقولُ لإنسانٍ تُريدُ إقامةَ نفْسِه -أي: إثارتَها-: العِلمُ غَرَضُك إنْ كُنتَ رَجُلًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

وقال القرطبي: (يحتَمِلُ أن يكونَ هذا الخِطابُ مع المُعترِفِ بأنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، أي: إنْ كُنتُم مُوقِنينَ به، فاعلَموا أنَّ له أن يُرسِلَ الرُّسُلَ، ويُنَزِّلَ الكُتُبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ مع مَن لا يَعترِفُ بأنَّه الخالِقُ، أي: يَنْبغي أنْ يَعرِفوا أنَّه الخالِقُ، وأنَّه الذي يُحيي ويُميتُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

كما حكى تعالَى قولَ موسى لفِرعونَ ومَلَئِه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑧﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه دُونَ ما سِواه[١].

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو المتصَرِّفُ وَحْدَه بالإحياءِ والإماتةِ؛ فيُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن الأحياءِ[٢].

كما قال تعالَى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: هو خالِقُكم ومالِكُكم ورازِقُكم أنتُم وآبائِكم الذين مِن قَبْلِكم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالَى بعضَ الأوقاتِ بمَزيدِ تَشريفٍ؛ حتى يَصيرَ ذلك داعيًا للمُكَلَّفِ إلى الإقدامِ على الطَّاعاتِ في ذلك الوَقتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٣).

٢- قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وَصْفُها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ تَنْويهٌ بها وتَشويقٌ لمَعرِفَتِها؛ فهذه اللَّيلةُ هي اللَّيلةُ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في الغارِ مِن جَبَلِ حِراءٍ في رَمَضانَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فبَرَكةُ اللَّيلةِ الَّتي أُنزِلَ فيها القُرآنُ بَرَكةٌ قدَّرَها اللهُ لها قَبْلَ نُزولِ القُرآنِ؛ ليَكونَ القُرآنُ بابتِداءِ نُزولِه فيها مُلابِسًا لوَقتٍ مُبارَكٍ، فيَزدادَ بذلك فَضلًا وشَرَفًا[١].

وقيل: إنَّ وَصْفَها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ لِمَا أنَّ نُزولَ القُرآنِ مُستَتبِعٌ للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ بأَجمَعِها، أو لِمَا فيها مِن تَنَزُّلِ المَلائِكةِ والرَّحمةِ، وإجابةِ الدَّعوةِ، وقَسْمِ النِّعمَةِ، وفَصْلِ الأقضِيَةِ، وفَضيلةِ العِبادَةِ، وإعطاءِ تَمامِ الشَّفاعةِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فيه دَليلٌ على التَّقديرِ السَّنويِّ (الحوْليِّ) في لَيْلةِ القَدْرِ؛ فالتَّقديراتُ أنواعٌ؛ منها: التَّقديرُ الشَّاملُ لجَميعِ المخلوقاتِ وكِتابةُ ذلك قبْلَ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ بخمْسينَ ألْفَ سَنةٍ. ومنها: التَّقديرُ العُمريُّ عندَ تَخليقِ النُّطْفةِ في الرَّحمِ، ومنها: التَّقديرُ اليَوميُّ، وهو تَنفيذُ كلِّ ذلك إلى مَواضِعه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ الحَكمي (ص: ٨١، ٨٤)، ((مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية)) للسلمان (ص: ١٢٢). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦- ٢٤).

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ المقصودُ منه تَعظيمُ القُرآنِ بثَلاثةِ أنواعٍ مِن التَّعظيم:

النَّوعُ الأوَّلُ: تَعظيمُه بحَسَبِ ذاتِه: فأقسَمَ تعالَى به، وذلك يدُلُّ على شَرَفِه، ثمَّ إنَّه تعالَى أقسَمَ به على كَونِه نازِلًا في لَيْلةٍ مُبارَكةٍ، والقَسَمُ بالشَّيءِ على حالةٍ مِن أحوالِ نَفسِه يدُلُّ على كَونِه في غايةِ الشَّرَفِ، ثمَّ إنَّه تعالَى وصَفَه بكَونِه مُبينًا، وذلك يدُلُّ أيضًا على شَرَفِه في ذاتِه.

أمَّا النَّوعُ الثَّاني: فهو بَيانُ شَرَفِه لأجْلِ شَرَفِ الوَقتِ الذي أُنزِلَ فيه، وهو قَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ نُزولَه في لَيْلةٍ مُبارَكةٍ يَقتَضي شَرَفَه وجَلالتَه.

وأمَّا النَّوعُ الثَّالِثُ: فهو بَيانُ شَرَفِ القُرآنِ لشَرَفِ مُنَزِّلِه، وذلك هو قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّ ذلك الإنذارَ والإرسالَ إنَّما حَصَل مِنَ اللهِ تعالَى، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الإرسالَ إنَّما كان لأجْلِ تَكميلِ الرَّحمةِ، وهو قَولُه تعالَى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾[1].

٥- قال تعالَى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وَصَفَهم بالأوَّلين؛ لأنَّهم جَعَلوا أقدَمَ الآباءِ حُجَّةً أعظَمَ مِن الآباءِ الأقرَبينَ، كما قال تعالَى حِكايةً عنهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2] [المؤمنون: ٢٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

- في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه كِتابًا مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا: تَنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايَةَ الشَّرَفَ، فإذا أَرادَ المُقسِمُ أنْ يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أَوْلَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْن القَسَمِ والمُقسَمِ عليه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ القُرآنِ بطريقَةِ الكِنايَةِ عنه بذِكرِ فَضلِ الوقتِ الَّذي ابتُدِئَ إنزالُه فيه[2].

- وتَنكيرُ ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتَّعظيمِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُعترِضةٌ، وحَرفُ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يَكُونَ للتَّأكيدِ؛ ردًّا لإنكارِهِم أنْ يَكونَ اللهُ أرسَلَ رُسُلًا للنَّاسِ؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا رِسالَةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بزَعمِهم أنَّ اللهَ لا يُرسِلُ رَسولًا مِن البَشَرِ؛ فكان ردُّ إنكارِهم ذلك رَدًّا لإنكارِهم رِسالةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فتَكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُستأنَفَةً. ويَجوزُ أنْ تَكونَ (إنَّ) لِمُجَرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ؛ فتَكونُ مُغنِيَةً غَناءَ فاءِ التَّسَبُّبِ، فتُفيدُ تَعليلًا؛ فتَكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَعليلًا لجُملَةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: إنَّا أنزَلْناهُ لأنَّ من شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ من العِقابِ؛ فمَضمونُ الجُملَةِ عِلَّةُ العِلَّةِ، وهو إيجازٌ[4].

- وإنَّما اقتَصَر على وَصْفِ ﴿مُنذِرِينَ﴾ -مع أنَّ القُرآنَ مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ- اهتِمامًا بالإنذارِ؛ لأنَّه مُقتَضَى حالِ جُمهورِ النَّاسِ يَومَئِذٍ، والإنذارُ يَقتَضِي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

التَّبشيرَ لِمَن انتَذَرَ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ لدَلالةِ قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ عليه، أي: مُنذرينَ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن تَنكيرِ ﴿لَيْلَةٍ﴾، ووَصْفِها بأنَّها مُبارَكَةٌ آنِفًا، فدَلَّ على عِظَمِ شَأنِ هاتِه اللَّيلَةِ عِندَ اللهِ تعالَى؛ فإنَّها ظَهَر فيها إنزالُ القُرآنِ، وفيها يُفرَقُ عِندَ اللهِ كلُّ أمرٍ حَكيمٍ[٣].

- قولُه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ هذا مُستَمِرٌّ في كلِّ لَيلَةٍ تُوافِقُ عدَّ تِلكَ اللَّيلَةِ مِن كلِّ عامٍ؛ كما يُؤذِنُ به المُضارِعُ في قَولِه: ﴿يُفْرَقُ﴾، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ استِعمالُ المُضارِعِ في ﴿يُفْرَقُ﴾؛ لاستِحضارِ تِلكَ الحالَةِ العَظيمَةِ[٤].

- قولُه: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ في هذه الجُمَلِ الأربع مُحَسِّنُ اللَّفِّ والنَّشرِ[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٠).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: =

ففي قَوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾ لَفٌّ بيْن مَعنَيَين؛ أَوَّلُهما: تَعْيينُ إنزالِ القُرآنِ، وثانيهُما: اختِصاصُ تَنزيلِه في لَيلَةٍ مُبارَكَةٍ، ثمَّ علَّل المَعنَى الأَوَّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وعلَّل المَعنَى الثَّانيَ بجُملَةِ ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

- إعادةُ كَلمةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ لِتَفْخيم شأْنِه؛ وإلَّا فإنَّ المقصودَ الأصليَّ هو قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقعَ ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾ صِفةً لـ ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، فخُولِفَ ذلك لهذه النُّكتةِ، أي: أمْرًا عظيمًا فَخْمًا؛ إذ وُصِفَ بـ(حكيم)، ثمَّ بكَونِه من عندِ اللهِ؛ تَشْريفًا له بهذه العِنْديَّة، ويَنصَرِفُ هذا التَّشريفُ والتَّعظيمُ والتَّفخيمُ ابتِداءً وبالتَّعيينِ إلى القُرآنِ؛ إذ كان بنُزولِه في تلك اللَّيلَةِ تَشريفُها وجَعْلُها وَقتًا لقَضاءِ الأُمورِ الشَّريفَةِ الحَكيمَةِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ يَجوزُ أن يَكونَ بَدَلًا مِن قَولِه:

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى (اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ)، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ(اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٠).

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مَفعولًا له، على مَعنَى: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ؛ لأنَّ مِن شَأنِنا إرسالَ الرُّسلِ بالكُتُبِ إلى عِبادِنا لأَجلِ الرَّحمَةِ عليهم، وأنْ يَكُونَ تَعليلًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو لقَولِه: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، وتَكونَ ﴿رَحْمَةً﴾ مَفعولًا به؛ لأنَّ الجُمَلَ كُلَّها حِينَئِذٍ وارِدَةٌ على التَّعليلِ المُتداخِلِ؛ فكَأنَّه لَمَّا قِيلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، فقِيلَ: لِمَ؟ فأُجيبَ: لأنَّه مِن شَأنِنا التَّحذيرُ والعِقابُ، فقِيلَ: لِمَ خَصَّص الإنزالَ في هذه اللَّيلَةِ؟ فقيل: لأنَّهُ مِن الأُمورِ المُحكَمَةِ، ومِن شَأنِ هذه اللَّيلَةِ أنْ يُفرَقَ فيها كلُّ أمرٍ حَكيمٍ، فقِيلَ: لِمَ كان مِن الأُمورِ المُحكَمةِ؟ فأُجيبَ: لأنَّ ذا الجَلالِ والإكرامِ أرادَ إرسالَ رَحمةٍ للعالَمين، ومِن حقِّ المُنزَلِ عليه أنْ يَكونَ حَكيمًا؛ لكَونِه للعالَمين نَذيرًا، وداعِيًا إلى اللهِ بإذنِه وسِراجًا مُنيرًا؛ فقِيلَ: لِمَاذا رَحِمَهم الرَّبُّ عزَّ وجَلَّ بذلك؟ فأُجيبَ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى هو وَحْدَه سَميعٌ عَليمٌ؛ يَعلَمُ جُزئيَّاتِ أَحوالِ عِبادِه وكُلِّيَّاتِها، ويَعلَمُ ما يَحتاجُون إليه دُنيا وآخِرةً، وهو وَحْدَه ربُّ السَّمواتِ والأَرضِ، يُرَبِّيهم ويَرزُقُهم ويَمنَحُهُم مَرافِقَهم، وهو وَحْدَه يُحْييهم ويُميتُهم، ويُثيبُهم ويُعاقِبُهم، وإليه الإشارَةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما بَعْدَه، تَحقيقٌ لرُبوبِيَّتِه، وأنَّها لا تَحِقُّ إلَّا لِمَن هذه أَوصافُه[(١)].

- ومَفعولُ ﴿مُرْسِلِينَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه مادَّةُ اسمِ الفاعِلِ، أي: مُرْسِلينَ الرُّسُلَ[(٢)].

- قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أصلُ الكلامِ: (إنَّا كُنَّا مُرسِلين رَحمَةً مِنَّا)، ولكنْ قال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فوُضِعَ الرَّبُّ مَوْضِعَ الضَّميرِ؛ إيذانًا بأنَّ الرُّبوبيَّةَ تَقتَضِي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

الرَّحمَةَ على المَربوبينَ؛ فإنَّه أعظَمُ أنواعِ التَّربيَةِ، ولِيَكونَ تَمهيدًا يَنْبَني عليه التَّعليلُ المُتَضَمِّنُ للتَّعريضِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

- وإضافَةُ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ صَرفٌ للكَلامِ عن مُواجَهَةِ المُشرِكين إلى مُواجَهَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بالخِطابِ؛ لأنَّه الَّذي جَرَى خِطابُهم هذا بواسِطَتِه؛ فهُوَ كحاضِرٍ مَعَهم عِندَ تَوجيهِ الخِطابِ إليهم؛ وهذا لِقَصدِ التَّنويهِ بشَأنِه بعْدَ التَّنويهِ بشَأنِ الكِتابِ الَّذي جاءَ به. وأيضًا إضافَةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ لِيَتَوَصَّلَ إلى حظٍّ له في خِلالِ هذه التَّشريعاتِ بأنَّ ذلك كُلَّه مِن رَبِّه، أي: بواسِطَتِه؛ فإنَّه إذا كان الإرسالُ رَحمَةً كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رَحمَةً، ويُعلَمُ مِن كَونِه ربَّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أنَّه ربُّ النَّاسِ كُلِّهم؛ إذ لا يَكونُ الرَّبُّ رَبَّ بَعضِ النَّاسِ دُونَ بَعضٍ؛ فأَغنَى عن أنْ يَقولَ: رَحمَةً مِن ربِّك وربِّهم؛ لأنَّ غَرَضَ إضافَةِ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأبَى ذلك، ثمَّ سيُصَرِّحُ بأنَّهُ رَبُّهم في قَولِه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] [الدخان: ٨].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: كُنَّا مُرسِلينَ رَحمَةً بالنَّاسِ؛ لأنَّه عَلِمَ عِبادَةَ المُشرِكين للأَصنامِ، وعَلِم إغواءَ أئمَّةِ الكُفرِ للأُمَمِ، وعَلِم ما سِوى ذلك مِن أَقوالِهم؛ فأرسَلَ الرُّسُلَ لتَقويمِهم وإصلاحِهم، وعَلِم أيضًا نَوايا النَّاسِ وأفعالَهم وإفسادَهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١، ٢٨٢).

الأَرضِ؛ فأَرسَلَ الرُّسُلَ بالشَّرائِعِ لِكَفِّ النَّاسِ عن الفَسادِ وإصلاحِ عَقائِدِهم وأعمالِهم، فأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الأوَّل بوَصْفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّ السَّميعَ هو الَّذي يَسمَعُ الأَقوالَ ويَعلَمُها، فلا يَخفَى عليه منها شَيءٌ، وأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الثَّاني بوَصفِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الشَّامِلِ لجَميعِ المَعلُوماتِ. وقدَّمَ السَّميعَ؛ للاهتِمامِ بالمَسْمَوعاتِ؛ لأنَّ أَصْلَ الكُفرِ هو دُعاءُ المشركينَ أَصْنامَهم. و(السَّميعُ والعَليمُ) تَعليلانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بطَريقِ الكِنايَةِ الرَّمزِيَّةِ؛ لأنَّ عِلَّةَ الإرسالِ في الحَقيقَةِ هي إرادَةُ الصَّلاحِ ورَحمَةِ الخَلْقِ، وأمَّا العِلمُ فهو الصِّفَةُ الَّتي تَجرِي الإرادَةُ على وَفْقِه؛ فالتَّعليلُ بصِفَةِ العِلمِ بِناءً على مُقَدِّمَةٍ أُخرَى؛ وهي: أنَّ اللهَ تعالَى حَكيمٌ لا يُحِبُّ الفَسادَ، فإذا كان لا يُحِبُّ ذلك، وكان عَليمًا بتَصرُّفاتِ الخَلقِ؛ كان عِلمُه وحِكمَتُه مُقتَضِيَيْنِ أنْ يُرسِلَ للنَّاسِ رُسُلًا رَحمَةً بِهِم[١].

- وأفادَ ضَميرُ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ الحَصْرَ، أي: هو السَّميعُ العَليمُ لا أصنامُكُم الَّتي تَدْعونَها، وفي هذا إيماءٌ إلى الحاجَةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ إليهم بإبطالِ عِبادَةِ الأصنامِ[٢].

- وفي تَخصيصِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إدماجٌ[٣] لِمَعنَى التَّهديدِ والوَعيدِ للكُفَّارِ، والوَعدِ للمُؤمِنين الَّذين تَلَقَّوْا هذه النِّعمَةَ بأَنواعِ الشُّكرِ[٤].

- ومُفتَتَحُ هذه السُّورةِ يَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُوَجَّهًا إلى المُشرِكين ابتِداءً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

لِفَتحِ بَصائِرِهم إلى شَرَفِ القُرآنِ وما فيه مِن النَّفْعِ للنَّاسِ؛ لِيَكُفُّوا عن الصَّدِّ عنه؛ ولهذا وَرَدَت الحُروفُ المُقَطَّعَةُ في أوَّلِها المَقصودُ منها التَّحَدِّي بالإعجازِ، واشتَمَلَت الجُمَلُ الثَّلاثُ في أوَّلِها على حَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)، ويَكونُ إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بهذه المَزايَا حاصِلًا تَبَعًا؛ إنْ كان لم يَسبِقْ إعلامُه بذلك بما سَبَق مِن آيِ القُرآنِ أو بوَحْيٍ غيرِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصالَةً، ويَكونَ عِلمُ المُشرِكين بما يَحتَوي عليه حاصِلًا تَبَعًا بطَريقِ التَّعريضِ، ويَكونَ التَّوكيدُ مَنظورًا فيه إلى الغَرَضِ التَّعريضيِّ[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ هذا عَودٌ إلى مُواجَهةِ المشركينَ بالتَّذكيرِ على نحْوِ ما ابتدَأَتْ به السُّورةُ. وهو تَخلُّصٌ للاستِدلالِ على تَفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ؛ إلْزامًا لهم بما يُقِرُّون به مِن أنَّه ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، ويُقِرُّون بأنَّ الأصنامَ لا تَخلُقُ شيئًا، غيْرَ أنَّهم مُعرِضونَ عن نَتيجةِ الدَّليلِ ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ؛ فقدْ كرَّرَ القُرآنَ تَذكيرَهم بأمثالِ هذا، كما في قولِه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ * أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ولأجْلِ ذلك ذَكَر الرُّبوبيَّةَ إجمالًا في قولِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بذِكرِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ التي هي صِفةُ المعبودِ بحقٍّ بصِيغةِ قصْرِ القلْبِ[(٢)] المشيرِ إلى أنَّ الأصنامَ لا تَسمَعُ ولا تَعلَمُ، وبذِكْرِ صِفةِ التَّكوينِ المختصَّةِ به تعالَى بإقرارِهم؛ ارتقاءً في الاستِدلالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).

فلمَّا لم يكُنْ مَجالٌ للرَّيبِ في أنَّه تعالَى هو الإلهُ الحقُّ، أُعقِبَ هذا الاستدلالُ بجُملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بطَريقةِ إثارةِ التَّيقُّظِ لِعُقولِهم؛ إذ نزَّلَهم مَنزلةَ المشكوكِ إيقانُهم؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ الإيقانِ للهِ بالخالقيَّةِ حين عَبَدوا غيْرَه؛ بأنْ أُتِيَ في جانبِ فرْضِ إيقانِهم بطَريقةِ الشَّرطِ، وأُتِيَ بحرْفِ الشَّرطِ (إنْ) الذي أصْلُه عَدَمُ الجزْمِ بوقُوعِ الشَّرطِ على نحوِ قولِه تعالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[1] [الزخرف: ٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُّوقِنِينَ﴾ للعِلمِ به مِن قولِه: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. وجَوابُ الشَّرْطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه المقامُ. والتَّقديرُ: إنْ كُنتُم مُوقنينَ فلا تَعْبُدوا غيْرَه؛ ولذلك أعقبَه بجُملةِ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] [الدخان: ٨].

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها[3].

- وجُملةُ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجةٌ للدَّليلِ المُتقدِّمِ؛ لأنَّ انفرادَه برُبوبيَّةِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما دَليلٌ على انفرادِه بالإلَهِيَّةِ، أي: على بُطلانِ إلَهيَّةِ أصنامِهم؛ فكانَتْ هذه الجُملَةُ نَتيجَةً لذلك؛ فلذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على التي قبْلَها- لِشِدَّةِ اقتِضاءِ الجُملَةِ الَّتي قَبْلَها إيَّاها[4].

- قولُه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إلْزامٌ مِن اللهِ للمُشرِكينَ بكَلِمَةِ التَّقوَى،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

ثمَّ خَصَّ التَّربيَةَ بهم وبأسلافِهم جارِيًا على سَنَنِ الخِطابِ، فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ومُقَرِّرًا لِمَزيدِ تَوخِّي شُكرِ تلك الرَّحمَةِ السَّنِيَّةِ، وهذه النِّعمَةِ الجَليلَةِ[1].

- وجُملَةُ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مُستَأنَفَةٌ للاستِدلالِ على أنَّه لا إلهَ إلَّا هو بتَفرُّدِه بالإحياءِ والإماتَةِ، والمُشرِكون لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ هو المُحْيِي والمُميتُ؛ فكما استَدَلَّ عليهم بتَفَرُّدِه بإيجادِ العَوالِمِ وما فيها، استَدَلَّ عليهم بخَلْقِ أعظَمِ أحوالِ المَوجوداتِ، وهي حالَةُ الحَياةِ الَّتي شَرَّفَ بها الإنسانَ عن مَوجوداتِ العالَمِ الأرضِيِّ، وكَرَّم أيضًا بإعطائِها للحَيوانِ لتَسخيرِه لانتِفاعِ الإنسانِ به بسَبَبِها، وبتَفَرُّدِه بالإماتَةِ، وهي سَلبُ الحَياةِ عن الحيِّ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الحَياةَ لَيسَتْ ذاتِيَّةً للحَيِّ[2].

- ولَمَّا كان تَفَرُّدُه بالإحياءِ والإماتَةِ دَليلًا واضِحًا في أحوالِ المُخاطَبينَ وفِيمَا حَولَهُم، مِن ظُهورِ الأَحياءِ بالوِلادَةِ والأمواتِ بالوَفاةِ يَومًا فيَومًا؛ من شَأنِه ألَّا يَجهَلُوا دَلالَتَه فَضلًا عن جُحودِهِم إيَّاهَا؛ ومع ذلك قدْ عَبَدوا الأصنامَ الَّتي لا تُحيي ولا تُميتُ -أعقَبَ بإثباتِ رُبوبِيَّتِه للمُخاطَبين تَسجيلًا عليهم بِجَحْدِ الأدِلَّةِ وبكُفرانِ النِّعمَةِ، وعَطَفَ ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لِيُسَجِّلَ عليهم الإلْزامَ بقَولِهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3] [الزخرف: ٢٢].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩-١٦)

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾: أي: فانتَظِرْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[1].

﴿ يَغْشَى ﴾: أي: يُغَطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[2].

﴿ أَنَّىٰ ﴾: كَلِمةٌ يُسألُ بها عن الحالِ والمكانِ، بمعْنى: كيفَ ومِن أينَ[3].

﴿ نَبْطِشُ ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُخبِرًا عن حالِ المشركينَ: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، بلْ هم في شَكٍّ منه، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُتوعِّدًا لهم: فانتَظِرْ -يا محمَّدُ- يومًا تَأتي فيه السَّماءُ بدُخانٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

ظاهِرٍ يُغَطِّي النَّاسَ ويَعُمُّهم، فيقولونَ: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ، رَبَّنا ارفَعْ عنَّا هذا العَذابَ؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَه عنَّا! مِن أين لأولئك الكُفَّارِ التَّذَكُّرُ والاتِّعاظُ وقدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ، مُبينٌ لهم الحَقَّ، ثمَّ أعرَضوا عنه وقالوا: هو مُعَلَّمٌ، علَّمَه غَيرُه القُرآنَ، وهو مَجنونٌ؟!

إنَّا كاشِفو ذلك العذابِ عنهم زَمَنًا قليلًا، لكِنَّهم عائِدونَ إلى ما كانوا عليه مِنَ الضَّلالِ.

ثمَّ هَدَّدهم اللهُ تعالَى، فقال: يومَ نَأخُذُ المُشرِكينَ أخْذًا شَديدًا عَنيفًا؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر اللهُ تعالَى رُبوبيَّتَه وأُلوهيَّتَه بما يُوجِبُ العِلمَ التَّامَّ، ويَدفَعُ الشَّكَّ؛ أخبَرَ أنَّ الكافِرينَ معَ هذا البَيانِ مُنغَمِرونَ في الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ، غافِلونَ عَمَّا خُلِقوا له، قد اشتَغَلوا باللَّعِبِ الباطِلِ الذي لا يُجْدي عليهم إلَّا الضَّرَرَ[1].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾.

أي: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، وإنَّما هم مُنغمِرونَ في شَكِّهم، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ بالباطِلِ عن اتِّباعِ الحَقِّ[2].

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

أي: فانتَظِرِ -يا محمَّدُ- اليَومَ الَّذي تأتي فيه السَّماءُ بدُخانٍ ظاهرٍ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣، ٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥-٢٨٧).

قال ابن جُزَي: (﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في هذا قولانِ:

أحدُهما: قَولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الدُّخانَ يكونُ قبْلَ يومِ القِيامةِ... وهو مِن أشراطِ السَّاعةِ...

والثَّاني: قَولُ ابنِ مَسعودٍ: أنَّ الدُّخانَ عِبارةٌ عمَّا أصاب قُرَيشًا حينَ دعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالجَدْبِ، فكان الرَّجُلُ يَرى دُخانًا بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ؛ مِن شِدَّةِ الجُوعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٦).

قال ابنُ عُثَيمين: (والأقرَبُ للصَّوابِ: أنَّه دُخَانٌ يُرسِلُه اللهُ عزَّ وجَلَّ عندَ قيامِ السَّاعةِ، فيَغشَى النَّاسَ كُلَّهم، واللهُ أعلَمُ بكَيفيَّةِ هذا الدُّخانِ، فنحن إنَّما نَعرِفُ أنَّه دُخانٌ، لكِنْ لا نَعرِفُ كيْف يأتي النَّاسَ ولا مِن أيْن يأتي، فهذا أمْرُه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو سَعيدٍ الخُدْري، وابنُ عمرَ، وابن عبَّاسٍ، والحسن البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٨٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جَريرٍ، والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، وجلالُ الدِّين المَحلِّي، وأبو السعود، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤١٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٧))، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٧).=

= ونسَب الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعود، وأبو العالية، والنَّخعي، ومجاهدٌ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦-١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).
وفي الصَّحيحَينِ عن ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُريشًا لَمَّا أبْطؤوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسلامِ، قال: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهم بسَبعٍ كسَبْعِ يُوسفَ. فأصابَتْهم سَنةٌ حصَتْ كُلَّ شَيءٍ حتَّى أكَلوا العِظامَ، حتى جعَلَ الرجُلُ يَنظُرُ إلى السَّماءِ فيَرى بيْنه وبيْنها مِثلَ الدُّخَانِ، قال اللهُ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، قال اللهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ أفيُكشَفُ عنهم العذابُ يوْمَ القِيامةِ وقدْ مَضى الدُّخَانُ، ومَضَت البَطْشةُ؟!)) [البخاري (٤٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨)].
قال ابنُ كثيرٍ: (وقدْ نقَل البُخاريُّ عن ابنِ مَسعودٍ، أنَّه فسَّر ذلك بما كان يَحصُلُ لقُريشٍ مِن شِدَّةِ الجُوعِ، بسَببِ القحْطِ الَّذي دَعا عليهم به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكان أحدُهم يَرى فيما بيْنه وبيْن السَّماءِ دُخَانًا مِن شِدَّةِ الجُوعِ، وهذا التَّفسيرُ غَريبٌ جدًّا، ولم يُنقَلْ مِثلُه عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ غيْرِه). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٢٦٥).
وقال أيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ أثرًا عن ابنِ عبَّاسٍ فيه تأييدُ القولِ الأوَّلِ؛ قال: (وهكذا قوْلُ مَن وافَقَه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] مِن الصَّحابةِ والتابعينَ أجْمَعين، مع الأحاديثِ المرفوعةِ مِن الصِّحاحِ والحِسانِ وغيْرِهما... ممَّا فيه مَقنَعٌ ودَلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ الدُّخَانَ مِن الآياتِ المنتظَرةِ، مع أنَّه ظاهرُ القرآنِ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بيِّنٍ واضحٍ يَراه كلُّ أحدٍ. وعلى ما فسَّر به ابنُ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه: إنَّما هو خَيالٌ رأَوه في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ والجهْدِ. وهكذا قولُه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يَتغشَّاهم ويعُمُّهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخُصُّ أهْلَ مكَّةَ المشركين لَما قِيل فيه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩).
وقال البيضاويُّ: (الدُّخَانُ يحتَمِلُ المَعنَيين). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠). وكذا قال ابنُ عطيةَ، والنوويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧).
وقال النوويُّ: (ويَحتمِلُ أنَّهما دُخَانانِ؛ للجمْعِ بيْنَ هذه الآثارِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧).
=

عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((اطَّلعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتذاكَرُ، فقال: ما تَذاكرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ. قال: إنَّها لنْ تقومَ حتَّى تَرَونَ[1] قبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عِيسى بنِ مَريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثَلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمَشرِقِ، وخَسفٌ بالمَغرِبِ، وخَسفٌ بجَزيرةِ العَرَبِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحشَرِهم))[2].

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

= وقال الشوكانيُّ: (لا مُنافاةَ بيْن كَونِ هذه الآيةِ نازلةً في الدُّخانِ الذي كان يَتراءى لقُرَيشٍ مِن الجُوعِ، وبيْن كَونِ الدُّخانِ مِن آياتِ السَّاعةِ وعلاماتِها وأشراطِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦).

قال السعديُّ: (وفي الآيةِ احتمالُ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أنَّ هذا كلَّه يكونُ يوْمَ القيامة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

ممَّن اختارَ أنَّ قولَه: ﴿مُبِينٍ﴾ أي: بيِّنٍ ظاهرٍ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنَّسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

قال البقاعي: (﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: واضِحٍ لا لَبْسَ فيه عندَ رائيه، ومُبينٍ لِما سِواه من الآياتِ للفَطِنِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣).

(١) قال العُكبري: (في هذا الحديثِ: «حتَّى تَرَونَ» بالنونِ، ولا وجهَ له؛ لأنَّ «حتى» بمعنى: إلى أنْ). ((إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث)) (ص: ٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٠١).

أي: يُغَطِّي ذلك الدُّخَانُ النَّاسَ ويَعُمُّهم(١).

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فيَقولون: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩-٢٥٠).

قال القرطبيُّ: (﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للدُّخَانِ، فإنْ كان قدْ مَضى -على ما قال ابنُ مَسعودٍ- فهو خاصٌّ بالمشركين مِن أهلِ مكَّةَ، وإنْ كان مِن أشراطِ السَّاعةِ فهو عامٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ النَّاسِ، كأنَّ تقديرَ الكلامِ: يَقولون: هذا عَذابٌ أليمٌ: ابنُ جريرٍ، والزَّجاج، ومكيٌّ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، والنَّسفيُّ، وابنُ جزي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠).

قال ابن جُزَي: (وهذا أظهرُ؛ لأنَّ ما بعْدَه مِن كَلامِهم باتِّفاقٍ، فيكونُ الكلامُ مُتناسقًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧).

وقيل: قائِلُ هذه العِبارةِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو اللهُ تعالَى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

وقال ابنُ كَثير: (يُقال لهم ذلك تَقريعًا وتَوبيخًا، كقَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقولُ بَعضُهم لبعضٍ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وقال القرطبيُّ: (﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ... مَن قال: إنَّ الدُّخَانَ قدْ مَضى، فقولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ومَن جعَله مُستقبَلًا فهو حِكايةُ حالٍ آتيةٍ. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى: ذلك. وقيل: أي يقولُ الناسُ لذلك الدُّخَانِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنوِّ الأمرِ، كما تقولُ: هذا الشِّتاءُ فأعِدَّ له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ حينَ يُصيبُهم ذلك: يا رَبَّنا، ارفَعْ عنَّا عَذابَك؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَ عنَّا هذا العَذابَ(١)!

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣﴾.

أي: كيْفَ يَتسَنَّى للكُفَّارِ التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ عندَ حُلولِ ذلك العَذابِ بهم، والحالُ أنَّه قدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، مُظهِرٌ لهم الحَقَّ مِن عِندِه تعالَى(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤-١٥).

قال ابنُ عاشور: (جميعُ المفَسِّرين على أنَّها حِكايةُ قَولِ الذين يَغْشاهم العذابُ، بتَقديرِ: يقولونَ: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥-١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ أصلُه استِفهامٌ عن أمكِنةِ حُصولِ الشَّيءِ، ويَتوسَّعونَ فيها فيَجعَلونَها استِفهامًا عن الأحوالِ بمعنى «كيف»، بتَنزيلِ الأحوالِ مَنزِلةَ ظُروفٍ في مكانٍ، كما هنا، بقَرينةِ قَولِه: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. والمعنى: مِن أيْنَ تَحصُلُ لهم الذِّكْرى؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

وقَولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، أي: مُبِينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون، أو مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: بيِّنٌ ظاهِرٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّنُ الرِّسالةِ، وظاهِرُ الصِّدقِ: البَغويُّ، وابنُ =

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤﴾.

أي: ثمَّ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الرَّسولِ، وقالوا: هو مُعلَّمٌ علَّمه أحدٌ هذا القُرآنَ، ثمَّ هو مجنونٌ وليْس رَسولًا كما يَدَّعي(١)!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال تعالَى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

= الجوزي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: أنَّه يُبيِّنُ لهم الحَقَّ وكُلَّ شيءٍ يَحتاجونَ إليه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا: القرطبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السَّابِقَينِ: البقاعي؛ فقال: (﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولُنا، ومُوضِحٌ غايةَ الإيضاحِ لِما جاء به عنَّا بما أظهَرَ مِن الآياتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣).

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّا كاشِفو العذابِ عنكم وَقتًا قليلًا، ولكِنَّ عَودتَكم -أيُّها المُشرِكونَ- إلى ما كنتُم عليه مِن الضَّلالِ بعْدَ كَشْفِ العَذابِ عنكم: أمرٌ ثابِتٌ مُؤكَّدٌ(١)!

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يومَ نَأخُذُ المُشرِكينَ بقُوَّةٍ وأخذٍ عَنيفٍ شَديدٍ؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).
قال ابنُ الجوْزي: (وفي العذابِ قَولانِ: أحَدُهما: الضُّرُّ الذي نَزَل بهم، كُشِفَ بالخِصْبِ. هذا على قَولِ ابنِ مَسعودٍ. قال مُقاتِلٌ: كَشَفَه إلى يوم بَدرٍ. والثَّاني: أنَّه الدُّخَانُ. قاله قتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).
قال الشوكانيُّ: (﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: إنَّا نَكشِفُه عنهم كَشْفًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).
قال الماورديُّ: (البَطشةُ الكُبرى هي العُقوبةُ الكُبرى، وفيها قولانِ:
أحدُهما: القَتلُ بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. قاله ابنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بن كعبٍ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاك.
الثاني: عذابُ جَهنَّمَ يومَ القيامة. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ.
ويحتَمِلُ ثالثًا: أنَّها قِيامُ السَّاعة؛ لأنَّها خاتِمةُ بَطَشاتِه في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٨).
ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: يومُ بدرٍ: مُقاتِلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والخازن، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).
ونسَبه الثَّعلبيُّ والبغويُّ إلى أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦).
ممَّن ذهَب إلى أنَّ ذلك اليومَ هو يومُ القيامةِ: السمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ من الحِكمةِ في نُزولِه ليْلًا: أنَّ اللَّيلَ زمانُ المناجاةِ، ومَهْبطُ النَّفحاتِ، ومَشهَدُ التَّنزُّلاتِ، ومظهرُ التَّجليَّاتِ، ومَوردُ الكراماتِ. وفي اللَّيلِ فَراغُ القُلوبِ بذِكرِ حَضرةِ المحبوبِ، فهو أطيَبُ مِن النَّهارِ عندَ المقرَّبين والأبرارِ(١).

٢- قَولُ الله تعالَى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الدُّخانَ مِن أشراطِ السَّاعةِ الكُبْرى(٢)، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قوله: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ هذه هي طَبيعةُ البشَرِ؛ إذا همْ وقَعوا في شِدَّةٍ -أيًّا كانتْ- أنْ يَعِدوا بالتَّوبةِ والإقلاعِ عمَّا هم فيه، ولكنَّ النُّفوسَ الشِّرِّيرةَ لا تتَّجِهُ إلى فِعلِ الخيرِ، ولا تَفعَلُ ما تَتقرَّبُ به إلى ربِّها، انتظارًا لِمَثوبتِه، ورَجاءً في غُفرانِه ورَحمتِه(٣).

٤- قوله: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم لا يُوفُون بعَهْدِهم، وأنَّهم في حالِ العجْزِ يَتضرَّعون إلى اللهِ تعالَى، فإذا زال الخَوفُ عادوا إلى الكُفْرِ والتَّقليدِ لمذاهبِ الأسلافِ(٤).

= قال ابنُ كثير: (فسَّرَ ذلك ابنُ مسعودٍ بيوم بَدرٍ، وهذا قولُ جماعةٍ ممَّن وافَق ابنَ مَسعودٍ على تفسيرِه... وهو محتَمِلٌ، والظَّاهِرُ أنَّ ذلك يومُ القيامةِ، وإنْ كان يومُ بدرٍ يومَ بطشةٍ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ حَرفُ ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو ردٌّ لكَونِهم مُوقِنينَ ومُقِرِّينَ بأنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهُما؛ فإنَّ إقرارَهم غَيرُ صادِرٍ عن عِلمٍ ويَقينٍ ثابتٍ، بلْ هو كالعَدَمِ؛ لأنَّهم خَلَطوه بالشَّكِّ واللَّعِبِ، فارتَفَعتْ عنه خاصِّيَّةُ اليَقينِ والإقرارِ الَّتي هي الجَرْيُ على مُوجَبِ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ إذا لم يَجُرَّ صاحِبَه على العَمَلِ به، وتَجديدِ مُلاحَظَتِه؛ تَطَرَّقَ إليه الذُّهولُ ثُمَّ النِّسيانُ، فضَعُفَ حتَّى صار شَكًّا؛ لانْحِجابِ الأدِلَّةِ الَّتي يَرسُخُ بها في النَّفسِ، أي: هم شَاكُّون في وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالَى. وقيلَ: إضرابٌ عن مَحذوفٍ؛ كأنَّه قال: فلَيسُوا بمُوقِنين، بلْ هم في شَكٍّ بِحَسَبِ ضَمائِرِهم[1].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لِفَرْطِ عِنادِهم وعَدمِ إيقانِهم، الْتَفَت مِن الخِطابِ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلى الغَيبةِ، فبَعَّدَهم وطَرَدهم؛ إيذانًا بأنَّهم مع إيقانِهم ذلك مُنَزَّلُون مَنزِلَةَ الشَّاكِّين، حيثُ لم يَعمَلُوا بمُوجَبِه، وخَلَطوا مع اليَقينِ الهُزْءَ واللَّعِبَ[2].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فيه الإتيانُ بحَرفِ الظَّرفِيَّةِ (في)؛ للدَّلالَةِ على شِدَّةِ تَمكُّنِ الشَّكِّ من نُفوسِهم حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحيطٌ بهِم لا يَجِدون عنه مَخرَجًا، أي: لا يُفارِقُهم الشَّكُّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وجُملَةُ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾، أي: اشتَغَلوا عن النَّظَرِ في الأَدِلَّةِ الَّتي تُزيلُ الشَّكَّ عنهم، وتَجعَلُهم مُهتَدِينَ، بالهُزْءِ واللَّعِبِ في تَلَقِّي دَعوَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فكان انغِماسُهم في الشَّكِّ مُقارِنًا لحالِهم مِن اللَّعِبِ. ولهذه الجُملَةِ الحاليَّةِ مَوقِعٌ عَظيمٌ؛ إذ بها أُفيدَ أنَّ الشَّكَّ حامِلٌ لهم على الهُزْءِ واللَّعِبِ، وأنَّ الشُّغُلَ باللَّعِب يَزيدُ الشَّكَّ فيهم رُسوخًا، بخِلافِ ما لو قِيلَ: بلْ هم في شَكٍّ ولَعِبٍ؛ فتَفَطَّنْ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، قُصِدَ مِنهُ وَعْدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بانتِقامِ اللهِ مِن مُكَذِّبيه، ووَعيدُ المُشرِكينَ على جُحودِهم بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ وصِدْقِ الرَّسولِ، وعُكوفِهم على اللَّعِبِ، أي: الاستِهزاءِ بالقُرآنِ والرَّسولِ، وذَكَر له مُخَوِّفاتٍ للمُشركين لإعدادِهم للإيمانِ، وبَطْشَةَ انتِقامٍ مِن أَئِمَّتِهم تَستَأصِلُهم؛ فالفَاءُ في قَولِه تَعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ لتَرتيبِ الارتِقابِ أوِ الأمْرِ به على ما قَبْلَها؛ فإنَّ كوْنَهم في شَكٍّ مِمَّا يُوجِبُ ذلكَ حَتمًا، أي: فانتَظِرْ لَهُم ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: يوْمَ شِدَّةٍ ومَجاعةٍ؛ فإنَّ الجائعَ يَرَى بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ كهَيئَةِ الدُّخانِ؛ إمَّا لضَعفِ بَصَرِه، أو لأنَّ في عامِ القَحطِ يُظلِمُ الهَواءُ لقِلَّةِ الأَمطارِ وكَثرَةِ الغُبارِ، أو لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّرَّ الغالِبَ دُخانًا[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الخِطابُ في ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والأَمرُ مُستَعمَلٌ في التَّثبيتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وقدِ الْتَفَتَ إلى حَبيبِه صَلَواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا له، وإقناطًا مِن إيمانِهم بقَولِه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ فقابَلَ إنزالَ الكِتابِ بإنزالِ العِقابِ مِنَ السَّماءِ؛ يعني: إنزالُ الكِتابِ رَحمَةٌ لهم، وحِينَ أعرَضُوا عنه انتَظِرْ إنزالَ العَذابِ(١).

- والارتِقابُ: افتِعالٌ مِن رَقَبَه؛ إذا انتَظَره، وإنَّما يَكونُ الانتِظارُ عندَ قُربِ حُصولِ الشَّيءِ المُنتَظَرِ، وفِعلُ (ارتَقِبْ) يَقتَضِي بصَريحِه أنَّ إتيانَ السَّماءِ بدُخانٍ لم يَكُن حاصِلًا في نُزولِ هذه الآيةِ، ويَقتَضي كِنايَةً عن اقتِرابِ وُقوعِه كما يُرتَقَب الجَائي مِن مَكانٍ قَريبٍ(٢).

- والفعلُ (ارتَقِبْ) مُتعَدٍّ، ولكنَّه قُصِرَ هنا تَهويلًا؛ لذَهابِ الوَهمِ في مَفعولِه كلَّ مَذهَبٍ(٣). وهذا بناءً على أنَّ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ، وليس مفعولًا به.

- وفي قولِه: ﴿تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أسنَدَ (العَذابَ) إلى (السَّماءِ)، وإنْ كان هو الفاعِلَ حَقيقَةً؛ ليَكُونَ على وِزَانِ قَولِه: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليْس إليكَ))(٤). وقِيلَ: لأنَّ السَّماءَ مَكانُه حينَ يَتَصاعَدُ في جَوِّ السَّماءِ أو حِينَ يَلوحُ للأنظارِ منها(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).
والحديث أخرجه مسلم (٧٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

- قولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكُونَ إخبارًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى تَعجيبًا منه، كما في قَولِه تعالَى في قِصَّةِ الذَّبيحِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]. ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذلك مِن قَولِ النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

- والإشارَةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الدُّخانِ المَذكُورِ آنِفًا، عُدِلَ عن استِحْضارِه بالإضمارِ وأنْ يُقالَ: هو عَذابٌ أَليمٌ، إلى استِحْضارِهِ بالإشارةِ؛ لتَنْزيلِه مَنزِلَةَ الحاضِرِ المُشاهَدِ؛ تَهويلًا لأمْرِه، كما تَقولُ: هذا الشِّتاءُ قادِمٌ، فأَعِدَّ له[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هذه جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بيْن جُملَةِ ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١] وجُملَةِ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٣]؛ فهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهي مَحمولةٌ على أنَّها حِكايةُ قَولِ الَّذين يَغشَاهُم العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العَذابَ، أي: هو وَعدٌ صادِرٌ مِن النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بأنَّهُم يُؤمِنونَ إنْ كُشِفَ عَنهُم العَذابُ[٣].

- وأُسلوبُ الكَلامِ جارٍ على أنَّ جُملَةَ ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ لطَلَبِ كَشْفِ العَذابِ عنهم؛ لِمَا يَقتَضِيه ظاهِرُ استِعمالِ حَرفِ (إنَّ) من مَعنَى الإخبارِ دُونَ الوَعدِ، ومِن التَّعليلِ دُونَ التَّأكيدِ، ولِمَا يَقتَضيه اسمُ الفاعِلِ في زَمَنِ الحالِ دُونَ الاستِقبَالِ، ولأنَّ سِياقَه خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَرَقُّبِ إعانَةِ اللهِ إيَّاهُ على المُشرِكين؛ كما كان يَدعُو: ((أَعِنِّي عَلَيهِم بِسَبْعٍ كسَبعِ يُوسُفَ))[٤]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٤) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٩٨)، من حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه.

فمُقتَضَى المَقامِ تَأْمينُه مِن أنْ يُصيبَ العَذابُ المُسلِمينَ وفيهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ تَكذيبٌ لوَعدِهم، ورَدٌّ لكَلامِهم واستِدعائِهمُ الكَشفَ، وتَكذيبٌ لَهُم في الوَعدِ بالإيمانِ المُنبِئِ عن التَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ بما اعتراهُم مِن الدَّاهِيَةِ(٢).

ويَجوزُ أن تَكونَ جُملَةً مُستَأنَفَةً ناشِئَةً عن قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، وهي كالنَّتيجَةِ لها؛ لأنَّهم إذا كانوا في شكٍّ يَلعَبون، فقدْ صارُوا بُعَداءَ عن الذِّكرَى. والاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ والإحالَةِ، أي: كيْفَ يَتَذَكَّرون وهم في شكٍّ يَلعَبون ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ فتَوَلَّوْا عنه وطَعَنوا فيه؟!(٣)

- و﴿مُّبِينٞ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، وحُذِف مَفعولُه لدَلالَةِ الذِّكرَى عليه، أي: مُبينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون. ويَجوزُ أن يَكونَ مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: رَسولٌ ظاهِرٌ، أي: ظاهِرَةٌ رِسالَتُه عن اللهِ بما تَوَفَّرَ معها مِن دَلائلِ صِدْقِه. وإيثارُ (مُبِينٍ) بتَخفيفِ الياءِ على (مُبَيِّنٍ) بالتَّشديدِ مِن نُكَتِ الإعجازِ؛ ليُفيدَ المَعنَيَينِ(٤).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾

- حرفُ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتَبيِّ، وهو تَرَقٍّ مِن مُفادِ قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩] الَّذي اتَّصَلَت به جُملَةٌ كانَتْ جُملَةُ ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ مِن مُتَعَلَّقَاتِها؛ فالمَعنَى: وقدْ جاءَهُم رَسولٌ فشَكُّوا في رِسالَتِه، ثُمَّ تَوَلَّوا عنه وطَعَنوا فيه؛ فالتَّوَلِّي والطَّعنُ حَصَلَا عِندَ حُصولِ الشَّكِّ واللَّعِبِ؛ ولذلك كانتْ (ثُمَّ) للتَّراخِي الرُّتَبيِّ لا لِتَراخِي الزَّمانِ، ومَعنَى التَّراخِي الرُّتَبيِّ هنا: أنَّ التَّوَلِّيَ والبُهتانَ أفظَعُ مِن الشَّكِّ واللَّعِبِ(١).

- ولَمَّا كانتِ الفِطَرُ الأُولى داعيةً إلى الإقبالِ على الحقِّ، نازعةً إلى الانقطاعِ إلى اللهِ، والعُكوفِ ببابِه، واللَّجاءِ إلى جَنابِه، إلَّا بجهْدٍ مِن النَّفْسِ في النُّفورِ، وعِلاجِ دَواعي الثُّبورِ -أشار إلى ذلك بالتَّعبيرِ بصِيغةِ التَّفعُّلِ، فقال: ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وَصَفوه مرَّةً بأنَّه يُعَلِّمُه غَيرُه، ووَصَفوه مرَّةً بالجُنونِ، تَنقُّلًا في البُهتانِ، أو وَصَفَه فَريقٌ بِهَذا وفَريقٌ بذلك؛ فالقَولُ مُوَزَّعٌ بيْن أَصحابِ ضَميرِ (قَالُوا) أو بيْنَ أَوقاتِ القائِلين، ولا يَصِحُّ أن يَكُونَ قَولًا واحِدًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يكونُ مُعَلَّمًا ولا يَتأَثَّرُ بالتَّعليمِ(٣).

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالَى عن قولِهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بطَريقِ الالتِفاتِ إلى الخِطابِ؛ لِمَزيدِ التَّوبيخِ والتَّهديدِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: إنَّا نَكشِفُ العذابَ المَعهودَ عنكم كَشْفًا قَليلًا أو زَمانًا قليلًا؛ إنَّكُم تَعودُون إثْرَ ذلك إلى ما كُنتُم عليه مِن العُتُوِّ والإصرارِ على الكُفرِ، وتَنسَون هذه الحالَةَ. أو هو إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بأنْ يُكشَفَ العذابُ المتَوَعَّدُ به المُشرِكون مُدَّةً؛ فيَعودُون إلى ما كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

فيه[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفائدةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ الدَّلالةُ على زِيادةِ خُبثِهم؛ لأنَّهم إذا عادوا قبْلَ تَمامِ الانكشافِ، كانوا بَعْدَه أسْرعَ إلى العوْدِ[٢]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُستَأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ تَطَلَّعوا إلى ما سَيَكونُ بعْدَ كَشفِه، وتَطَلَّعَ المُؤمِنون إلى ما تَصيرُ إليه حالُ المُشرِكينَ بعْدَ كَشفِ العَذابِ: هل يُقلِعُون عن الطَّعنِ؟ فكان قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُبيِّنًا لِمَا يَتَساءَلونَ عنه[٣]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كانوا قدْ أكَّدوا الإخبارَ بإيمانِهم -وهو باطِلٌ- أكَّدَ سُبحانَه الإخبارَ بكَذِبِهم، ومَن أصدَقُ منه سُبحانه قِيلًا، فقال تَحقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[٤].

- وصِيغةُ الفاعلِ في ﴿كَاشِفُواْ﴾، و﴿عَآئِدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحَقُّقِهما لا مَحالَةَ في المُستَقبَلِ، ولقدْ وَقَعَ كِلاهُما، حيثُ كَشَفَ اللهُ تعالَى العذابَ بدُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّمَ؛ فمَا لَبِثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانُوا عليه من العُتُوِّ والعِنادِ، فعَاودَهم القَحطُ كَمالَ سَبعِ سِنينَ[٥]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّ السَّامِعَ يُثارُ في نَفسِه سُؤالٌ عن جَزائِهم حيثُ يَعودُون إلى التَّوَلِّي والطَّعنِ؛ فأُجيبَ بأنَّ الانتِقامَ منهم هو البَطشَةُ الكُبرَى، وهي الانتِقامُ التَّامُّ، ولأجْلِ هذا التَّطَلُّعِ والتَّساؤُلِ أُكِّدَ الخبَرُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ) دَفعًا للتَّرَدُّدِ(١).

- وأصلُ تَركيبِ الجُملَةِ: (إنَّا مُنتَقِمون يومَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرَى)؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ على المَفعولِ فيه لاسمِ الفاعِلِ، وهو ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وتَقَدُّمُه على عامِلِه للاهتِمامِ به؛ لتَهويلِه(٢).

- ودلَّتِ الجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ على أنَّ الانتقامَ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لم نَزَلْ نَفعَلُها بأعدائِنا؛ لِنَسُرَّ أضدادَهم مِن أوليائِنا(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨).

الآيات (١٧-٢٤)

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَنَّا﴾: أي: ابتَلَيْنا واختبَرْنا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[1].

﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾: أي: سَلِّموا إلَيَّ، وأَرسِلوا معي، وأصلُ (أدي): يدُلُّ على إيصالِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، أو وُصولِه إليه مِن تِلْقاءِ نفْسِه[2].

﴿بِسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[3].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجأتُ واعتصَمتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ والتَّعلُّقُ به[4].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ٩٦، ١٣٩ - ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿تَرْجُمُونِ﴾: أي: تَقتُلوني رميًا بالحِجارةِ، والرَّجمُ أيضًا: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ(١).

﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾: أي: اترُكوني وفارِقوني، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ(٢).

﴿فَأَسۡرِ﴾: أي: سِرْ بهم لَيلًا، مِنَ السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ(٣).

﴿رَهۡوًا﴾: أي: ساكِنًا مُنفَرِجًا، وأصلُ (رهو): يدُلُّ على سُكونٍ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ: ولقد اختبَرْنا قبْلَ كُفَّارِ قَومِك -يا محمَّدُ- قومَ فِرعَونَ، وجاءهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، واترُكوهم لي، إنِّي رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، أمينٌ في رسالتي، وألَّا تَستكبِروا على اللهِ تعالى بالكُفرانِ والعِصيانِ، إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وإنِّي اعتصَمتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ، وإنْ لم تُؤمِنوا لي فاترُكوني وشأني.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

فلمَّا لم يَستَجيبوا له فيما أمَرهم، وأصَرُّوا على أذاهُ وعدَمِ مُتارَكتِه؛ دعا رَبَّه بأنَّ هؤلاء قَومٌ مُجرِمونَ، فأجاب اللهُ دعاءَه، فقال له: أَسْرِ بعِبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا؛ إنَّ فِرعونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم، واترُكِ البَحرِ على هيئتِه ساكِنًا بعدَ أنْ ضرَبْتَه بعصاك، إنَّ فِرعَونَ وقَومَه مُغرَقونَ فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تكذيبَ مَن كَذَّب الرَّسولَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ أنَّ لهم سَلَفًا مِنَ المُكَذِّبينَ، فذَكَرَ قِصَّتَهم مع موسى عليه السَّلامُ وما أحَلَّ اللهُ بهم؛ لِيَرتدِعَ هؤلاءِ المكَذِّبونَ عمَّا هم عليه[1].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا وابتَلَيْنا قبْلَ كُفَّارِ قومِك -يا محمَّدُ- قَومَ فِرعَونَ مِن القِبطِ[2].

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: وجاء قومَ فِرعَونَ رسولٌ كريمٌ أرسلَنْاه إليهم، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

قال الماوَرْدي: (﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وفيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: كريمٌ على ربِّه... الثَّاني: كريمٌ في قَومِه. الثَّالثُ: كريمُ الأخلاقِ بالتَّجاوُزِ والصَّفحِ). =

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فقال موسى لِفِرعَونَ ومَلَئِه: أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، وادفَعوهم إلَيَّ[1].

= ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٠).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ: الشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّالثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠٢).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي الجمعُ بيْنَ هذه المعاني، حيث قال: (أي: يَعلَمونَ شَرَفَه نَسَبًا وأخلاقًا وأفعالًا، ثمَّ زاد بيانُ كَرَمِه بما ظَهَر لله به مِن العِنايةِ بما أيَّده به مِن المُعجِزاتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (الكريمُ: النَّفيسُ الفائقُ في صِنْفِه...، أي: رَسولٌ مِن خِيرةِ الرُّسُلِ، أو مِن خِيرةِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ به، أو مُنادَى. فالأوَّلُ على معنى: أرسِلوا معي بني إسرائيلَ، وسَلِّمْهم إلَيَّ. والثَّاني على معنى: أدُّوا إلَيَّ [يا] عِبادَ الله ما هو واجبٌ عليكم مِن التَّمسُّكِ بما جِئتُ مِن التَّوحيدِ، والتَّنسُّكِ بما أُمِرْتُم به على لساني مِن الحكمِ والأحكامِ. والمعنى الأوَّلُ قولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهِدٍ وأكثرِ المفسِّرينَ. والثَّاني ذكره الزَّجَّاجُ وغيرُه. قال الماوَرْديُّ: وهو قولٌ مُحتملٌ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

أي: إنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى إليكم، بالِغُ الأمانةِ على الرِّسالةِ الَّتي أمَرَني اللهُ أن أبَلِّغَكم إيَّاها بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ ولا كِتمانٍ(١).

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَستَكبِروا عن الإيمانِ بآياتِ اللهِ واتِّباعِها، فتَكفُروا به، وتُخالِفوا أمْرَه(٢).

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ تُثبِتُ صِحَّةَ ما أدعوكم إليه وتُظهِرُه(٣).

= (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩).

قال ابن عطيَّة: (الظَّاهِرُ مِن شَرعِ موسى عليه السَّلامُ أنَّه بُعِثَ إلى دُعاءِ فِرعَونَ إلى الإيمانِ وأن يُرسِلَ بني إسرائيلَ، فلمَّا أبى أن يُؤمِنَ ثبَتَت المكافَحةُ في أن يُرسِلَ بني إسرائيلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠، ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

قال الألوسي: (آتيكم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها، أو مُوضِحةٍ صِدقَ دَعوايَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٠). =

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإنِّي اعتصَمْتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ[1].

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعني: بَيِّنٍ واضِحٍ ظاهِرٍ: السَّمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ واضِحٍ في نَفْسِه سَلْطَنتُه، ومُظهِرٍ لِغَيرِه ذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩).

وقال السعدي: (هو ما أتى به مِن المُعجِزاتِ الباهِراتِ، والأدِلَّةِ القاهِراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (وهذه المُعجِزةُ هي انقِلابُ عصاه ثُعبانًا مُبينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

ممن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استعاذ باللهِ مِن كُلِّ معاني رَجْمِهم الَّذي يَصِلُ منه إليه أذًى ومَكروهٌ؛ سواءٌ كان بالقَولِ أو بالفِعلِ، شتمًا باللِّسانِ أو رَجمًا بالحِجارةِ-: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجْمِ هنا: القَتلُ: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٠).

قال القاسمي: (قُصِدَ بهذه الجُملة: إظهارُ مَزيدِ شَجاعتِه وثَباتِه في مَوقِفٍ تَضطرِبُ فيه الأفئِدةُ، وتَزِلُّ الأقدامُ خَوفًا ورُعبًا، وما ذاك إلَّا لإيوائِه إلى عِصمةِ اللهِ وتأييدِه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).

وقال ابن عاشور: (الرَّجمُ: الرَّميُ بالحِجارةِ تِباعًا حتَّى يموتَ المَرْميُّ أو تُثخِنَه الجِراحُ، والقَصدُ منه تحقيرُ المقتولِ؛ لأنَّهم كانوا يَرمُونَ بالحِجارةِ مَن يَطرُدونَه... وإنَّما استعاذ موسى منه؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ عادتَهم عِقابُ مَن يخالِفُ دينَهم بالقَتلِ رَميًا بالحِجارةِ... ومعنى ذلك: إنْ لم تؤمِنوا =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإنْ لم تُؤمِنوا بما أمَرْتُكم وجِئْتُكم به مِن عندِ اللهِ فلا تَرْجموني، واترُكوني وشَأْني، ولا تَتعرَّضوا لي[(١)].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فدعا موسى رَبَّه[(٢)] بأنَّ هؤلاء الأراذِلَ قَومٌ مُتَّصِفونَ بالإجرامِ وعَريقونَ فيه[(٣)].

= بما جئتُ به فلا تَقتُلوني، كما دلَّ عليه تعقيبُه بقَولِه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾ [الدخان: ٢١]، والمعنى: إنْ لم تُؤمِنوا بالمُعجِزةِ الَّتي آتيكم بها فلا تَرجُموني؛ فإنِّي أعوذُ باللهِ مِن أن تَرجُموني، ولكِنِ اعتَزِلوني). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فإنْ آمَنْتُم بذلك وسَلَّمْتم لي أفلَحْتُم؛ عَطَف عليه قَولَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾... ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإنْ لم تَعتزِلوني هلَكْتُم، ولا تَقدِرونَ على قَتلي بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣).

(٢) قال ابنُ كثير: (فلمَّا طال مُقامُه بيْنَ أظهُرِهم، وأقام حُجَجَ اللهِ عليهم، كُلُّ ذلك وما زادهم ذلك إلَّا كُفرًا وعِنادًا؛ دعا رَبَّه عليهم دعوةً نَفَذَت فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن عطيَّة: (حكَم عليهم بالإجرامِ المُتضَمِّنِ للكُفرِ حينَ يَئِسَ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

وقال القرطبي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشرِكونَ، قد امتَنَعوا مِن إطلاقِ بني إسرائيلَ، ومِن الإيمانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾.

أي: فأجاب اللهُ دُعاءَ موسى، فقال له: سِرْ بعبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم ويَطلُبونَكم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ

= وقال القاسمي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشركونَ مُفسِدونَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).
وقال السعدي: (أي: قد أجرَموا جُرمًا يُوجِبُ تعجيلَ العُقوبة، فأخبَرَ عليه السَّلامُ بحالِهم، وهذا دعاءٌ بالحالِ الَّتي هي أبلَغُ مِن المقالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: واترُكِ البَحرِ باقيًا على هيئتِه الَّتي هو عليها ساكِنًا مُنفَرِجًا مَفتوحًا ذا فَجوةٍ واسعةٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال الشوكاني: (المعنى: اترُكِ البَحرَ ساكِنًا على صِفتِه بعدَ أن ضرَبْتَه بعصاك، ولا تأمُرْه أن يَرجِعَ كما كان؛ لِيَدخُلَه آلُ فِرعَونَ بَعدَك وبعدَ بني إسرائيلَ، فيَنطبِقَ عليهم فيَغرَقوا. وقال أبو عُبَيدةَ: رَهَا بيْنَ رِجْلَيه يَرهو رَهْوًا: أي: فتَحَ. قال: ومنه قَولُه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾، والمعنى: اترُكْه مُنفَرِجًا كما كان، بعدَ دُخولِكم فيه. وكذا قال أبو عُبيدٍ، وبه قال مجاهِدٌ وغيرُه. قال ابنُ عَرَفةَ: وهما يَرجِعانِ إلى معنًى واحدٍ وإنِ اختلَف لَفْظاهما؛ لأنَّ البَحرَ إذا سكَنَ جَرْيُه انفَرَج). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ متى قالها لِموسى؟ فقالت فِرقةٌ: هو كلامٌ مُتَّصِلٌ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ إذا انفَرَقَ لك ﴿رَهْوًا﴾. وقال قَتادةُ وغَيرُه: خُوطِبَ به بعدَما اجتاز البَحرَ وخَشِيَ أن يَدخُلَ فِرعَونُ وقَومُه وراءَه، وأن يَخرُجوا من المسالِكِ الَّتي خرَجَ منها بنو إسرائيلَ، فَهَمَّ موسى أن يَضرِبَ البَحرَ؛ عسى أن يَلتَئِمَ ويَرجِعَ إلى حالِه، فقيل له عندَ ذلك: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ هذا الكلامَ لِموسى قبْلَ أن يَقطَعَ هو وقَومُه البَحرَ: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّ اللهَ أمَرَه بذلك بعدَ خُروجِه مِن البَحرِ: السمرقنديُّ، والزمخشري،

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وقَومَه غارِقونَ في البَحرِ لا مَحالةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فيه سؤالٌ: الكُفرُ أعظَمُ حالًا مِنَ الجُرمِ، فما السَّبَبُ في أنْ جَعَل صِفةَ الكُفَّارِ كَونَهم مُجرِمينَ حالَ ما أراد المُبالَغةَ في ذَمِّهم؟

والجوابُ: لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ مُجرِمًا في دينِه، وقد يكونُ فاسِقًا في دينِه، فيكونُ أخَسَّ النَّاسِ(٢)!

والنسفي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) = = (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وممَّن قال بذلك مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ [أي: قَولُه: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾] صدَرَت وَقتَ دُخولِ موسى ومَن معه في طرائِقِ البَحرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (﴿الْبَحْرَ﴾ هو بحرُ القُلْزُم، المسمَّى اليومَ البَحرَ الأحمرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩).

٢- قال الله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أُمِرَ موسى عليه السَّلامُ بالخُروجِ ليلًا، وسَيرُ اللَّيلِ في الغالِبِ إنَّما يكونُ عن خَوفٍ، والخَوفُ يكونُ بوَجهَينِ: إمَّا مِن العَدُوِّ، فيُتَّخَذُ اللَّيلُ سِترًا مُسدَلًا، فهو مِن أستارِ اللهِ تعالى، وإمَّا مِن خَوفِ المَشقَّةِ على الدَّوابِّ والأبدانِ بحَرٍّ أو جَدْبٍ، فيُتَّخَذُ السُّرَى مَصلحةً مِن ذلك، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسري ويَدَّلِجُ[1]، ويَترفَّقُ ويَستعجِلُ؛ بحَسَبِ الحاجةِ، وما تقتضيه المصلحةُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ضَربِ الأمثِلَةِ لهم بمَن تقدَّمَهم مِن الأقوامِ[3].

- وقد جَعَلَ اللهُ سُبحانَه قِصَّةَ قَومِ فِرعَونَ مع مُوسَى عليه السَّلامُ وبَني إسرائيلَ مَثَلًا لحالِ المُشرِكين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ والمُؤمنينَ به، وجَعَلَ ما حلَّ بهم إنذارًا بما سيَحُلُّ بالمُشرِكين مِن القَحطِ والبَطْشةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، مع تَقريبِ حُصولِ ذلك وإمكانِه ويُسرِه، وإنْ كانوا في حالةِ قوَّةٍ؛ فإنَّ اللهَ قادرٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨]؛ فذِكرُها هنا تأييدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين، وهذا المَثَلُ وإنْ كان تَشبيهًا لِمَجموعِ

---

(١) يَسري: أي: يسيرُ ليلًا، ويدَّلج -بتشديد الدال- أي يسير مِن آخِرِ اللَّيلِ، فإن كان السَّيرُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ قيل: أدْلَجَ القَومُ، بالتخفيف. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٢٩)، ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٤).

الحالَةِ بالحالَةِ، فهو قابلٌ للتَّوزيعِ؛ بأن يُشَبَّهَ أبو جَهلٍ بفِرعَونَ، ويُشَبَّهَ أتباعُه بمَلأِ فِرعَونَ وقَومِه، ويُشَبَّهَ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بمُوسَى عليه السَّلامُ، ويُشَبَّهَ المُسلِمون ببَني إسرائيلَ، وقَبولُ المَثَلِ لتَوزيعِ التَّشبيهِ مِن مَحاسِنِه[١].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ مَكَّةَ سيُفتَنُون كما فُتِنَ قَومُ فِرعَونَ؛ فكان هذا الظَّرفُ مُؤْذِنًا بجُملةٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ الإيجازِ، والتَّقديرُ: إنَّا مُنتَقِمون ففَاتِنُوهم؛ فقد فَتَنَّا قَبْلَهُم قومَ فِرعَونَ، ومُؤْذِنًا بأنَّ المَذكورَ كالدَّليلِ على تَوَقُّعِ ذلك وإمكانِه، وهو إيجازٌ آخَرُ[٢].

- والمَقصودُ: تَشبيهُ الحالَةِ بالحالَةِ، ولكِنْ عُدِلَ عن صَوغِ الكَلامِ بصِيغةِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ إلى صَوغِه بصِيغةِ الإخبارِ؛ اهتِمامًا بالقِصَّةِ، وإظهارًا بأنَّها في ذاتِها ممَّا يُهِمُّ العِلمُ به، وأنَّها تَذكيرٌ مُستَقِلٌّ، وأنَّها غَيرُ تابعةٍ غَيرَها، ولأنَّ جُملةَ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ عُطِفَت على جُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾ -أي: ولقدْ جاءَهُم رَسولٌ كَريمٌ- عَطْفَ مُفَصَّلٍ على مُجمَلٍ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ إذِ المَذكورُ فيه أكثَرُ مِن مَعنَى الفِتنةِ؛ فلا تَكونُ جُملةُ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ بَيانًا لجُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾؛ بلْ هي تَفصيلٌ لِقِصَّةِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

- قولُه: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ تَفسيرٌ لِمَا تَضَمَّنه وَصْفُ ﴿رَسُولٌ﴾ وفِعلُ (جاءَهُمْ) مِن معنَى الرِّسالةِ والتَّبليغِ؛ ففيهما معنَى القَولِ، ومعنَى ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٥).

أرْجِعوا إلَيَّ وأَعطُوا؛ جَعَل بَني إسرائيلَ كالأمانةِ عِندَ فِرعَونَ(١).

- وخِطابُ الجَمعِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ لقَومِ فِرعَونَ، والمُرادُ: فِرعَونُ ومَن حَضَر مِن مَلَئِه؛ لَعَلَّهم يُشيرُون على فِرعَونَ بالحَقِّ، ولَعَلَّه إنَّما خاطَبَ مَجموعَ المَلَأِ لَمَّا رَأى مِن فِرعَونَ صَلَفًا وتَكَبُّرًا مِن الامتِثالِ؛ فخاطَبَ أهلَ مَشورَتِه لعلَّ فيهم مَن يَتَبَصَّرُ الحَقَّ(٢).

- و﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولُ ﴿أَدُّوٓاْ﴾، أُريدَ به بَنُو إسْرائيلَ، أُجريَ وَصْفُهم ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ تَذكيرًا لفِرعَونَ بمُوجِبِ رَفعِ الاستِعبادِ عنهم، وجاء في سُورَةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٧]: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فحَصَل أنَّه وَصَفَهم بالوَصفَينِ؛ فوَصْفُ عِبادِ اللهِ مُبطِلٌ لِحِسبانِ القِبطِ إيَّاهُم عَبيدًا، كما قال: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وإنَّما هُم عِبادُ اللهِ، أي: أحرارٌ؛ فـ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن الحُرِّيَّةِ. وقيل: يَجوزُ أن يَكُونَ مَفعولُ فِعلِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه المَقامُ، أي: أدُّوا إلَيَّ الطَّاعةَ، ويَكونَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مُنادًى بحَذْفِ حَرْفِ النِّداءِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بتَسليمِ بني إسرائِيلَ إليه، أو لِوُجوبِ المَأمورِ به في قَولِه: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود))

- وتَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿رَسُولٌ﴾؛ للاهتِمام بتَعلُّقِ الإرسالِ بأنَّه لهم ابتِداءً بأنْ يُعطُوه بني إسرائيلَ؛ لأنَّ ذلك وَسيلةٌ للمَقصودِ من إرسالِه لِتَحريرِ أُمَّةِ إسْرائيلَ، والتَّشريعِ لها، وليس قَولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خِطابًا لبَني إسرائيلَ؛ فإنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد أَبلَغ إلى بَني إسرائيلَ رِسالتَه مع التَّبليغِ إلى فِرعَونَ؛ قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، ولِيَكُونَ امتِناعُ فِرعَونَ مِن تَسْريحِ بَني إسرائيلَ مُبَرِّرًا لانسِلاخِ بَني إسرائيلَ عن طاعةِ فِرعَونَ، وفِرارِهم مِن بِلادِه(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نَهيٌ عن الاستِكبارِ عن إجابةِ أمْرِ اللهِ تعالى، وهو مَعطوفٌ على طلَبِ تَسليمِ بني إسرائيلَ، ومعناه: لا تَعلُوا على أمْرِه أو على رَسولِه، ولَمَّا كان الاعتِلاءُ على أمْرِ اللهِ وأمْرِ رَسولِه تَرفيعًا لأَنفُسِهم على واجِبِ امتِثالِ ربِّهم، جُعِلوا في ذلك كأنَّهم يَتعالَوْن على اللهِ(٢).

- وأُعيدَ حَرْفُ (أنْ) التَّفسيريَّة؛ لِزيادةِ تأكيدِ التَّفسيرِ لِمَدلولِ الرِّسالةِ(٣).

- وقولُه: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ، وهذا تَوبيخٌ لَهُم، أي: آتِيكُم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها(٤). وهذه الجملةُ عِلَّةٌ جَديرةٌ بالعَودِ إلى الجُمَلِ الثَّلاثِ المُتَقدِّمةِ، وهي: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

(٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).

* ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المُعجِزةَ تدُلُّ على تَحقُّقِ مَضامِينِ تِلكَ الجُمَلِ؛ مَعلُولِها وعِلَّتِها[1].

- و﴿ءَاتِيكُم﴾ مُضارِعٌ أو اسمُ فاعِلِ (أتى)، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُقتَضٍ للإتيانِ بالحُجَّةِ في الحالِ[2].

- وقولُه: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ السُّلطانُ مِن أسماءِ الحُجَّةِ؛ إذ الحُجَّةُ تُلجِئُ المحجوجَ على الإقرارِ لِمَن يُحاجُّهُ، فهي كالمُتسلِّطِ على نفْسِه. والمُعجِزةُ: حُجَّةٌ عَظيمةٌ؛ ولذلك وُصِف السُّلطانُ بـ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: واضِح الدَّلالَةِ لا رَيبَ فيه[3].

- وفي إيرادِ الأداءِ مع الأمينِ -في قولِه: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾-، والسُّلطانِ مع العَلاءِ -في قولِه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾-: مِن الجَزالةِ ما لا يَخْفى[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ ممَّا شَمِلَه كَلامُه حينَ تَبليغِ رِسالَتِه فكان داخِلًا في مُجمَلِ معنَى ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧] المُفسَّرِ بما بعدَ (أنْ) التَّفسيريَّة، ومَعناهُ: تَحذيرُهم من أنْ يَرجُموه؛ لأنَّ مَعنَى ﴿عُذْتُ بِرَبِّى﴾: جَعَلتُ رَبِّي عَوْذًا، أي: مَلجَأً، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرَى مَجرَى المَثَلِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦، ٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ تعالى بوَصفِ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في ارعِوائِهم مِن رَجْمِه حينَ يَتذَكَّرون أنَّه استَعصَمَ باللهِ الَّذي يَشترِكون في مَربوبيَّتِه، وأنَّهم لا يَخرُجون عن قُدرَتِه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الَّتي شَأنُها أنْ تُستعمَلَ في الشَّرطِ غيرِ المُتيَقَّنِ؛ لأنَّ عدَمَ الإيمانِ به بعْدَ دَلالةِ المُعجِزَةِ على صِدقِه مِن شأنِه أنْ يَكونَ غيرَ واقِعٍ؛ فيُفرَضَ عَدَمُه كما يُفرَضُ المُحالُ[2].

- وعُدِّيَ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ باللَّامِ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ به وآمَنَ له، وأصلُ هذه اللَّامِ لامُ العِلَّةِ؛ على تَضمينِ فِعلِ الإيمانِ مَعنَى الرُّكونِ[3].

- وجاء تَرتيبُ فَواصِلِ هذا الخِطابِ على مُراعاةِ ما يَبدُو من فِرعَونَ وقَومِه عِندَ إلْقاءِ مُوسَى دَعوَتَه عليهم؛ إذ ابتَدَأ بإبلاغِ ما أُرسِلَ به إليهم؛ فآنَسَ منهم التَّعَجُّبَ والتَّرَدُّدَ، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ فرَأَى مِنهُم الصَّلَفَ والأَنَفَةَ، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ فلم يَرعَوُوا فقال: ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، فَلاحَت عليهم عَلاماتُ إضْمارِ السُّوءِ له، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ فكان هذا التَّرتيبُ بيْن الجُمَلِ مُغْنِيًا عن ذِكْرِ ما أجابوا به على أبْدَعِ إيجازٍ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ التَّعقيبُ المُفادُ بالفاءِ تَعقيبٌ على مَحذوفٍ يَقتَضِي هذا الدُّعاءَ؛ إذ ليس في المَذكورِ قبْلَ الفاءِ ما يُناسِبُه التَّعقيبُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بهذا الدُّعاءِ؛ إذ المَذكورُ قَبْلَه كَلامٌ مِن مُوسَى إليهم؛ فالتَّقديرُ: فلَمْ يَستَجِيبوا له فيما أمَرَهم، أو فأَصَرُّوا على أَذاهُ وعَدَمِ مُتارَكَتِه، فدَعَا ربَّه... وهذا التَّقريرُ الثَّاني أَلْيَقُ بقَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾[1].

- وفي قَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم استَوجَبوا تَسْليطَ العِقابِ الَّذي يَدعُو به الدَّاعي؛ فالإخبارُ عن كَونِهم قَومًا مُجرِمينَ مُستعمَلٌ في طلَبِ المُجازاةِ على الإجرامِ، أو في الشِّكايةِ مِنِ اعتِدائِهم، أو في التَّخَوُّفِ مِن شَرِّهِم إذا استَمَرُّوا على عدَمِ تَسْريحِ بني إسرائيلَ، وكلُّ ذلك يَقتَضي الدُّعاءَ لِكَفِّ شَرِّهِم؛ فلذلك أُطلِقَ على هذا الخَبَرِ فِعلُ (دعَا)[2].

- ويَجوزُ أن يَكُونَ دُعاؤُه هذا المَذكورَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ على تَقديرِ الباءِ، أي: دعا ربَّه بأنْ يا ربِّ هؤلاءِ المُشخَّصُون المُشاهَدُون تَناهَى أمرُهُم في الكُفرِ غايَتَه؛ فافعَلْ بهم ما هم أَهْلُه؛ لأنَّ الكافِرَ إذا وُصِفَ بالإجرامِ كان مُتناهِيًا في الكُفرِ. أو يَكونَ الدُّعاءُ مَحذوفًا، والمَذكورُ تَعليلًا له، أي: عجِّلْ لهم ما يَستَحِقُّونه؛ لأنَّهم قَومٌ مُجرِمون، وإنَّما ذَكَرَ اللهُ تعالى هنا السَّبَبَ الَّذي استَوجَبُوا به الهَلاكَ، واكتَفَى بالسَّبَبِ عن المُسَبَّبِ؛ لِظُهورِه[3].

- وقولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لَفظُ تَحقيرٍ لهم[4].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، والمُفرَّعُ قولٌ مَحذوفٌ دلَّت عليه صِيغةُ الكَلامِ، وإضمارُ القَولِ إمَّا بعدَ الفاءِ، أي: فقال ربُّه: أَسرِ بعِبادي، وإمَّا قبْلَها على أنَّه جوابُ شرطٍ محذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إنْ كان الأمرُ كما تقولُ فأَسرِ بعِبادي، أي: بَني إسرائِيلَ؛ فقد دبَّر اللهُ تعالى أنْ تتقدَّمُوا ويَتَّبِعَكم فِرعونُ وجُنودُه، فيُنجِّيَ المُتقدِّمينَ، ويُغرِقَ التَّابِعينَ[1].

- قولُه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ قيَّدَ الإسراءَ بزَمانِ اللَّيلِ، والمَقصودُ منه تأْكيدُ مَعنَى الإسراءِ. وفائدةُ تأْكيدِ معنَى الإسراءِ أن يكونَ له مِن سَعةِ الوَقتِ ما يَبلُغون به إلى شاطِئِ البَحرِ قبْلَ أنْ يُدرِكَهُم فِرعَونُ بجُنودِه[2].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تُفيدُ تَعليلًا للأمْرِ بالإسراءِ لَيلًا؛ لأنَّه ممَّا يُستَغرَبُ، أي: إنَّكُم مُتَّبَعون، فأَرَدْنا أنْ تَقطَعوا مَسافةً يَتعَذَّرُ على فِرعَونَ لَحاقُكُم. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ غَيرِ السَّائِلِ مَنزِلةَ السَّائلِ إذا قُدِّم إليه ما يُلوِّحُ له بالخَبَرِ، فيَستَشرِفُ له استِشرافَ المُتَرَدِّدِ السَّائِلِ[3].

- وأُسنِدَ الاتِّباعُ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لأنَّه مِن المَعلومِ أنَّ الَّذي سيَتَّبِعُهم هو فِرعَونُ وجُنودُه[4].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿فَأَسْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠٠).

بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ [الدخان: ٢٣]؛ فيَجوزُ أن تكونَ الجُمْلَتانِ صَدَرَتا مُتَّصِلَتَينِ؛ بأنْ أعلَمَ اللهُ مُوسَى حينَ أَمَره بالإسراءِ بأنَّه يَضرِبُ البَحرَ بعَصاهُ، فيَنفَلِقُ عن قَعرِه اليابِسِ حتَّى يَمُرَّ منه بنو إسرائيلَ، كما وَرَد في آياتٍ أُخرَى، مِثلُ آيةِ سُورةِ (الشُّعَراء): ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ولَمَّا أمَرَه بذلك طَمَّنه بألَّا يَخشَى بَقاءَه مُنفَلِقًا فيَتوقَّعَ أنْ يَلحَقَ به فِرعَونُ، بل يَجتازُ البَحرَ ويَترُكُه؛ فإنَّه سيَطغَى على فِرعَونَ وجُندِه فيَغرَقُون؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ تَقديرُه: فإذا سَرَيْتَ بعِبادي فسَنَفتَحُ لكم البَحْرَ فتَسلُكُونه، فإذا سَلَكْتَه فلا تَخْشَ أنْ يَلحَقَكُم فِرعَونُ وجُندُه، واترُكْه؛ فإنَّهُم مُغرَقُون فيه. ويَجوزُ أن تَكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ صَدَرتْ وَقْتَ دُخولِ مُوسى ومَن معه في طَرائِقِ البَحرِ؛ فيُقَدَّرَ قَولٌ مَحذوفٌ، أي: وقُلْنا له: اترُكِ البَحْرَ رَهْوًا، أي: سيَدخُلُه فِرعَونُ وجُندُه ولا يَخرُجون منه؛ لأنَّ في بَقائِه مَفروقًا حِكمةً أُخرى؛ وهي دُخولُ فِرعَونَ وجُندِه في طَرائِقِه؛ طَمَعًا منهم أنْ يَلحَقوا مُوسى وقَومَه، حتى إذا تَوَسَّطُوه انضَمَّ عليهم؛ فتَحصُلُ فائدةُ إنْجاءِ بَني إسرائيلَ، وفائدةُ إهلاكِ عَدُوِّهم؛ فتَكونُ الواوُ عاطِفةً قَولًا مَحذوفًا على القَولِ المَحذوفِ قَبْلَه[١].

- والتَّركُ في قولِه: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مُستَعمَلٌ في عدَمِ المُبالاةِ بالشَّيءِ، كما يُقالُ: دَعْه يَفعَلْ كذا، وذَرْه[٢].

- قولُه: ﴿رَهْوًا﴾ الرَّهْوُ: الفَجْوةُ الواسعةُ. وأصْلُه مَصدرُ (رَها)؛ إذا فتَحَ بيْن رِجْلَيه؛ فسُمِّيَت الفَجوةُ رَهْوًا تَسميةً بالمَصدرِ، وانتَصَب ﴿رَهْوًا﴾ على الحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن البَحرِ على التَّشبيهِ البَليغِ، أي: مِثلُ رَهوٍ[١].

- وجَملةُ ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا عن سُؤالٍ ناشِئٍ عن الأمْرِ بتَركِ البَحرِ مَفتوحًا، وضميرُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾[٢] [الدخان: ٢٢].

- وإقحامُ لَفظِ ﴿جُندٌ﴾ دونَ الاقتِصارِ على ﴿مُّغْرَقُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إغراقَهم قد لَزِمَهم حتَّى صارَ كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ جُنْديَّتِهم[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

الآيات (٢٥-٣٣)

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ
بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَعْمَةٍ﴾: أي: مُتعةٍ ونَعيمٍ وعَيشٍ لَيِّنٍ، والنَّعْمةُ -بفَتحِ النُّونِ: طِيبُ العَيشِ وسَعَتُه ولَذاذةُ الحياةِ، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعَمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[(١)].

﴿فَٰكِهِينَ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[(٢)].

﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي: العِبَرِ والعِظاتِ، أو: المعجزاتِ، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨).
قال الماوَرْدي: (قد يُقالُ: نَعمة ونِعمة بفتحِ النُّونِ وكَسرِها، وفي الفَرقِ بيْنَهما وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها بكسرِ النُّونِ في المُلكِ، وبفَتحِها في البَدَنِ والدِّينِ، قاله النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ. الثَّاني: أنَّها بالكَسرِ مِن المِنَّةِ، وهو الإفضالُ والعَطيَّةُ، وبالفتحِ مِن التَّنعُّمِ، وهو سَعةُ العَيشِ والرَّاحةُ، قاله ابنُ زيادٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

والدَّليلِ والحُجَّةِ وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[(١)].

﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾: أي: اختبارٌ، وأصلُ البلاءِ هنا: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ، وقيل: البلاءُ هنا النِّعمةُ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾: في محلِّها وجْهانِ مِن الإعرابِ؛ أحَدُهما: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ نعتٌ لمَصدَرٍ مَحذوفٍ مَفهومٍ مِن التَّرْكِ في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾ [الدخان: ٢٥]، أي: أخرَجْناهم إخراجًا مِثلَ ذلك الإخراجِ الَّذي وصَفْناه، أو تَرَكوها تَرْكًا كذلك، وقيل: التَّقديرُ: أهلَكْناهم إهلاكًا كذلك، أو كذلك أفعَلُ بمَن عَصاني. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك.

﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾: جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ الفِعلِ المقدَّرِ العامِلِ في المصدَرِ المحذوفِ الَّذي وَقَعَت ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَعتًا له، على معنى: مِثلَ ذلك الإخراجِ أخرَجْناهم منها، وأورَثْناها قَومًا آخَرينَ. أو هي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَرَكُواْ﴾، أو على جُملةِ (الأمرُ كذلك)[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٢)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٧٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سوءَ مآلِ فِرعونَ وقَومِه: كم تَرَك فِرعَونُ وقَومُه بعدَ هَلاكِهم بالغَرَقِ؛ مِن بَساتينَ، وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ، وأماكِنَ حَسَنةٍ، ورَغَدِ عَيشٍ ورفاهيةٍ كانوا فيها مُتنَعِّمينَ! كذلك وأورَثْنا تلك النِّعَمَ بني إسرائيلَ، فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه بعدَ هَلاكِهم، وما كانوا مُؤَخَّرينَ عن العَذابِ إذ جاءَهم!

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على بني إسرائيلَ، فيقولُ: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ المُذِلِّ لهم؛ إنَّه كان مُستَعليًا مُتكَبِّرًا مُتجاوِزًا للحَدِّ، ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم حالَ كَونِنا عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يقتَضي اختيارَهم، وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن غَرَقِ آلِ فِرعَونَ؛ أخبَرَ عمَّا خَلَّفوه وراءَهم[1]، فقال:

﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥﴾.

أي: ما أكثَرَ ما ترَكه فِرعَونُ وقَومُه مِن بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، مِن بَعدِ إغراقِهم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

قال ابن عطيَّة: (أمَّا العُيونُ فيَحتَمِلُ أنَّه أراد الخُلجانَ الخارجةَ مِن النِّيلِ فشَبَّهها بالعُيونِ، ويحتمِلُ أنَّه كانت ثَمَّ عُيونٌ ونَضَبَت كما يَعتري في كثيرٍ مِن بِقاعِ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما أكثَرَ ما تركَوه من زُروعٍ قائمةٍ، ومَواضِعَ أنيقةٍ وأماكِنَ حَسَنةٍ شَريفةٍ[1]!

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: فَرِحينَ أشِرينَ بَطِرينَ. وقيل: مُستَخِفِّينَ مُستَهزِئينَ[2].

٢- قِراءةُ: ﴿فَاكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: ناعِمينَ طَيِّبي الأنفُسِ، أو أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: بمعنى: لاهينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ، مِثلُ كَلِمتَيْ: حاذِرينَ وحَذِرينَ[3].

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير المظهري)) (٨/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (الكريمُ مِن كُلِّ نَوعٍ: أنفَسُه وخَيرُه، والمرادُ به: المساكِنُ والدِّيارُ والأسواقُ ونحوُها ممَّا كان لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

وقال السمين الحلبي: (وقيل: الفاكِهُ: ذو الفاكهةِ، نحو: لابِنٍ، وتامرٍ. والفَكِهُ: مَن بالَغَ في ذلك). ((عمدة الحفاظ)) (٣/ ٢٤٨).

أي: ورَغَدِ حياةٍ وهَناءِ عَيشٍ ورَفاهيةٍ كانوا يَتنعَّمونَ فيها، ويَتلذَّذونَ بها[(١)]!

﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾.

أي: كذلك[(٢)] وأورَثْنا بني إسرائيلَ تلك الجنَّاتِ والعُيونَ، والزُّروعَ، والمَقامَ الكريمَ الَّذي كان لِفِرعَونَ وقَومِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨).

(٢) قال القرطبي: (قال الزَّجَّاجُ: أي: الأمرُ كذلك. فيُوقَفُ على ﴿كَذَٰلِكَ﴾. وقيل: إنَّ الكافَ في مَوضِعِ نَصبٍ، على تقديرِ: نفعَلُ فِعلًا كذلك بمَن نُريدُ إهلاكَه. وقال الكَلْبيُّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أفعَلُ بمَن عصاني. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كان أمرُهم فأُهلِكوا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال ابنُ عطية: (وسَمَّاها وِراثةً؛ مِن حيثُ كانت أشياءَ أُناسٍ وَصَلَت إلى قَومٍ آخَرينَ مِن بعدِ مَوتِ الأوَّلِينَ، وهذه حقيقةُ الميراثِ في اللُّغةِ، ورَبَطَها الشَّرعُ بالنَّسَبِ وغَيرِه مِن أسبابِ الميراثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣).

وقال الشربيني: (﴿ءَاخَرِينَ﴾ ... هم بنو إسرائيلَ. وقيل: غَيرُهم؛ لأنَّهم لم يَعودوا إلى مِصرَ، بل سَكَنوا الأرضَ المقَدَّسةَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقَومِ الآخَرينَ: هم بنو إسرائيلَ: مقاتلٌ، والواحديُّ، والماوَرْدي، والزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

وممنَّ قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١١).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقيل: القَومُ الآخَرونَ ليسوا بني إسرائيلَ، بل غيرُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه الَّذين أغرَقَهم اللهُ تعالى في البَحرِ(١)!

= وهو ظاهِرُ اختيارِ القاسمي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (اختلف العُلَماءُ في هذه الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه على حقيقتِه وظاهِرِه...، وإلى هذا القَولِ ذهب عامَّةُ المفَسِّرينَ المتقَدِّمينَ.

الثَّاني: أنَّه على حَذفِ المُضافِ، تقديرُه: فما بكى عليهم أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. قاله الحَسَنُ.

الثَّالِثُ: أنَّه على مَذهَبِ العَرَبِ؛ فإنَّهم يقولونَ إذا مات رجُلٌ خَطيرٌ: بَكَت عليه السَّماءُ والأرضُ، وأظلَمَت له الشَّمسُ، وبكَتْه الرِّيحُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٠).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ، وأنَّ ذلك على ظاهِرِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والقُرطبي، والنَّسَفي، وابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣). =

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

أي: وما كانوا مُؤَخَّرينَ بالعُقوبةِ حينَ جاء وَقتُ هلاكِهم[1].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَيفيَّةَ إهلاكِ فِرعَونَ وقومِه؛ بيَّنَ كيفيَّةَ إحسانِه إلى موسى وقَومِه؛ فبدأ تعالى ببَيانِ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، فقال تعالى[2]:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠﴾.

أي: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ وقَومِه المُذِلِّ لهم؛ كذَبحِ أبنائِهم، واستِحياءِ نِسائِهم، واستِعبادِهم وتَكليفِهم الأعمالَ الشَّاقَّةَ[3].

= قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لم تكُنْ لهم أعمالٌ صالحةٌ تَصعَدُ في أبوابِ السَّماءِ، فتَبكيَ على فَقْدِهم، ولا لهم في الأرضِ بِقاعٌ عَبَدوا اللهَ فيها فقَدَتْهم؛ فلهذا استحَقُّوا ألَّا يُنظَروا ولا يُؤَخَّروا؛ لكُفرِهم وإجرامِهم، وعُتُوِّهم وعِنادِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ القولَ الثَّالثَ، وأنَّ ذلك على سَبيلِ التَّمثيلِ، وأنَّ المعنَى أنَّهم هَلَكوا فلم تَعظُمْ مُصيبَتُهم ولم يُوجَدْ لهم فَقْدٌ، وأنَّه عبارةٌ عن تَحقيرِهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾.

أي: نَجَّيناهم مِن فِرعَونَ[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مُتَّصِفًا بالاستِعلاءِ والاستِكبارِ والإسرافِ وتجاوُزِ الحَدِّ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦ - ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَعالَى إهلاكَ فِرعَونَ وقَومِه؛ ذَكَر إحسانَه لبَني إسرائِيلَ(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كيف دَفَع الضَّرَرَ عن بني إسرائيلَ؛ بيَّنَ كيف أوصَلَ إليهم الخَيراتِ، فقال(٢):

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢)﴾.

أي: ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ -على عِلمٍ مِنَّا بهم وبأهليَّتِهم لهذا الاختيارِ- على عالَمِي زمانِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن القيم: (قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لا خِلافَ بيْنَ النَّاسِ أنَّ المعنى: على عِلمٍ مِنَّا بأنَّهم أهلُ الاختيارِ؛ فالجُملةُ في موضِعِ نَصبٍ على الحالِ، أي: اختَرْناهم عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يَقتضي اختيارَهم، مِن قَبلِ خَلْقِهم. ذَكَر سُبحانَه اختيارَهم، وحِكمتَه في اختيارِه إيَّاهم، وذكَرَ عِلمَه الدَّالَّ على مَواضِعِ حِكمتِه واختيارِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي قَولِه: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: على عالَمِي زمانِهم؛ لأنَّ لكُلِّ زمانٍ عالَمًا. قاله قَتادةُ. الثَّاني: على كُلِّ العالَمينَ؛ بما جَعَل فيهم مِن الأنبياءِ. وهذا خاصَّةٌ لهم، وليس لِغَيرِهم. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالعالَمينَ: عالَمُو زمانِهم: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، والنَّسَفي، وابنُ تيميَّة، والخازن، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾.

أي: وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ[1].

= تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

قال الواحدي: (﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على عالَمِي زَمانِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والكَلْبيُّ، ومقاتلٌ، وقَتادةُ، والجميعُ. قال مجاهِدٌ: فَضَّلْناهم على مَن هم بيْنَ ظَهرانَيْهم. قال أهلُ المعاني: ويدُلُّ على هذا التَّخصيصِ قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠]، هذا مُقتَضى أنَّه ما اختارهم على مَن هو خيرٌ منهم، وإنَّما اختارهم على مَن في وَقتِهم مِن العالَمينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٢).

وقال السعدي: (أي: عالَمِي زمانِهم ومَن قَبْلَهم وبَعدَهم، حتَّى أتى اللهُ بأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ففَضَلوا العالَمينَ كُلَّهم، وجَعَلهم اللهُ خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ، وامتَنَّ عليهم بما لم يمتَنَّ به على غَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤).

قال الشوكاني: (الآياتُ، أي: مُعجِزاتُ مُوسى ... وقال قَتادةُ: الآياتُ: إنجاؤُهم مِنَ الغَرَقِ، وفَلْقُ البَحرِ لهم، وتَظليلُ الغَمامِ عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى لهم. وقال ابنُ زَيدٍ: الآياتُ هي الشَّرُّ الَّذي كَفَّهم عنه، والخَيرُ الَّذي أمَرَهم به. وقال الحَسَنُ وقَتادةُ: البلاءُ المُبينُ: النِّعْمةُ الظَّاهِرةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وقال ابن جرير: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ أنَّه آتَى بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه ابتلاؤُهم واختِبارُهم، وقد يكونُ الابتِلاءُ والاختِبارُ بالرَّخاءِ، ويكونُ بالشِّدَّةِ، ولم يَضَعْ لنا دليلًا مِن خَبَرٍ ولا عَقلٍ أنَّه عَنى بعضَ ذلك دونَ بَعضٍ، وقد كان اللهُ اختبَرَهم بالمعنيَين كِلَيْهما جميعًا، وجائزٌ أن يكونَ عنى اختباره إيَّاهم بهما. فإذْ كان الأمرُ على ما وصَفْنا، فالصَّوابُ مِن القَولِ فيه أن نقولَ كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّه اختبَرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (الآياتُ لَفظٌ جامعٌ لِمُعجزاتِ موسى، وللعِبَرِ الَّتي ظهَرَت في قَومِ فِرعَونَ؛ مِن الجَرادِ والقُمَّلِ والضَّفادِعِ، وغيرِ ذلك، ولِما أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن تظليلِ الغَمامِ، والمَنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك؛ فإنَّ لَفظَ الآياتِ يَعُمُّ جميعَ هذا. والبلاءُ في هذا الموضِعِ: الامتِحانُ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان اللهُ تعالى يَبلو بالمِحنةِ فقد يَبلو أيضًا بالنِّعمةِ؛ اختبارًا ظاهِرًا؛ لِيَتمَيَّزَ الصِّدِّيقُ عن الزِّنديقِ[1]. وذلك على أنَّ معنى ﴿بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أي: نعمةٌ ظاهِرةٌ.

= والاختِبارُ. ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ هنا: الاختِبارُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ: النِّعْمةُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ البلاءَ المُبينَ مَعناه: النِّعْمةُ البَيِّنةُ الظَّاهِرةُ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أي: إحسانٌ كَثيرٌ ظاهِرٌ مِنَّا عليهم، وحُجَّةٌ عليهم على صِحَّةِ ما جاءهم به نَبيُّهم موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ واضِحٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفي، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

قال ابنُ جرير: (أعطَيْناهم مِن العِبَرِ والعِظاتِ ما فيه اختبارٌ يَبينُ لِمَن تأمَّله أنَّه اختِبارٌ اخْتَبَرهم اللهُ تعالى به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ في نَفْسِه، مُوضِحٌ لِغَيرِه: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ دَليلٌ على أنَّ في النَّاسِ مَن تبكي السَّماءُ والأرضُ عليه؛ إذ لا يُخَصُّ أولئك بذلك ويُجعَلُ عُقوبةً لهم إلَّا وغَيرُهم مُكرَمٌ به(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (لم تَبْكِ عليهم السَّماءُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُرفَعُ لهم فيها عَمَلٌ صالِحٌ، ولم تَبكِ عليهم الأرضُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَعمَلونَ فيها بعَمَلٍ صالحٍ)(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ للعِبرةِ بعَواقِبِ الظَّالِمينَ المَغرورِينَ بما هُم فيه مِن النَّعمةِ والقُوَّةِ، غُرورًا أنساهُم مُراقَبةَ اللهِ فيما يُرضِيه؛ فمَوقِعُ هذا الاستِئنافِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، أو البَيانِ مِن الإجمالِ؛ لِمَا في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] مِن التَّنظيرِ الإجماليِّ(٣).

- والفِعلُ ﴿تَرَكُوا۟﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أُغرِقوا وأُعدِموا، وذلك مُقتَضَى أنَّ ما أمَرَ اللهُ به مُوسَى مِن الإسراءِ ببَني إسرائيلَ وما معَه مِن اتِّباعِ فِرعَونَ إيَّاهُم، وانفِلاقِ البَحرِ، وإزْلافِ بَني إسرائيلَ، واقتِحام فِرعونَ بِجُنودِه البَحرَ، وانضِمامِ البَحرِ عليهم قد تمَّ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفِ جُمَلٍ كثيرةٍ يدُلُّ عليها قَولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾. وقيل: الكلامُ مُرتَبِطٌ بمقدَّرٍ لا بُدَّ منه لِيلتَئِمَ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيدٍ في ((تفسيره)) كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١).

نِظامُ الكَلامِ، والتَّقديرُ: فاطمَأَنَّ موسى بذلك، فتَمَّ إغراقُهم، كَمْ تَرَكوا...[١].

- قولُه: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ النَّعمةَ تَشملُ جميعَ ما تقدَّمَ وغيرَه ممَّا لم يُذكَرْ[٢].

- والنَّعمةُ بفَتحِ النُّونِ: اسمٌ للتَّنعُّمِ مَصوغٌ على زِنَةِ المَرَّةِ، وليس المُرادُ به المَرَّةَ، بل مُطلَقَ المَصدرِ؛ باعِتبارِ أنَّ مَجموعَ أحوالِ النَّعيمِ صارَ كالشَّيءِ الواحِدِ، وهو أبلَغُ وأجمَعُ في تَصويرِ مَعنَى المَصدَرِ، وهذا هو المُناسِبُ لفِعلِ ﴿تَرَكُوا۟﴾؛ لأنَّ المَتروكَ هو أشخاصُ الأُمورِ الَّتي يُنَعَّمُ بها[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ راجعٌ لفِعلِ ﴿تَرَكُوا۟﴾، والتَّقديرُ: تَركًا مِثلَ ذلك التَّركِ، والكافُ للتَّشبيهِ، والمُشَبَّهُ به شَيءٌ تضَمَّنَه الكلامُ السَّابِقُ بلَفظِه أو مَعناه، والكافُ ومَجرُورُها يَجوزُ أن يَكونَ شِبهَ جُملَةٍ وَقَع صِفةً لمَصدَرٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تَشبيهًا مُماثِلًا لِمَا سَمِعتَ. واسمُ الإشارةِ يُشيرُ إلى المَحذوفِ؛ لأنَّه كالمَذكورِ؛ لِتقرُّرِ العِلمِ به، والمَعنَى: مَن أراد تَشبِيهَه لم يُشَبِّهْه بأكثَرَ مِن أنْ يُشبِّهَه بذاتِه؛ فالإشارةُ إلى مُقَدَّرٍ دلَّ عليه الكَلامُ. ويَجوزُ أن يَكونَ المَجرورُ جُزءَ جُملةٍ أيضًا جُلِبَت للانتِقالِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ؛ فيَكونَ فَصْلَ خِطابٍ، كما يُقالُ: هذا الأمرُ كذا[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ تَفريعٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩) و(٢٥/ ٣٠٢).

قَوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨]؛ فإنَّ ذلك كُلَّه يَتضَمَّنُ أنَّهم هَلَكوا وانقَرَضوا، أي: فما كان مهلَكُهم إلَّا كمهلَكِ غَيرِهم، ولم يَكُن حَدَثًا عَظيمًا كما كانوا يَحسَبون ويَحسَبُ قَومُهم. والكَلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّحقيرِ لهم، والتَّهَكُّمِ بهِم وبحالِهم المُنافيَةِ لحالِ مَن يَعظُمُ فَقْدُه[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَسليَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عمَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ، وإثْلاجِ صَدرِه بأنَّ اللهَ قادِرٌ على إنْقاذِه وإنقاذِ أتْباعِه مِن أذاهُم، كما نَجَّى بَني إسرائيلَ مِن القِبطِ، وهو أمْرٌ كان بحَسَبِ الظَّاهِرِ أمْرًا بَعيدَ الوُقوعِ[2].

أو مَعطوفٌ على الكَلامِ المَحذوفِ الَّذي دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] الَّذي تَقديرُه: فأَغرَقْناهُم ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ، والمَعنَى: ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ مِن عَذابِ فِرعَونَ وقَساوَتِه، أي: فكانتْ آيةُ البَحرِ هلاكًا لقَومٍ وإنجاءً لآخَرينَ. والمَقصودُ مِن ذِكرِ هذا: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُنجِّي الَّذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مِن عَذابِ أهلِ الشِّركِ بمَكَّةَ، كما نَجَّى الَّذين اتَّبَعوا مُوسَى عليه السَّلامُ مِن عَذابِ فِرعَونَ. وجُعِل طُغيانُ فِرعَونَ وإسرافُه في الشَّرِّ مَثَلًا لطُغيانِ أبي جَهلٍ ومَلَئِه؛ ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّام. وقد يُفيدُ تَحقيقَ إنْجاءِ المُؤمِنينَ مِن العَذابِ المُقدَّرِ للمُشركين إجابةً لِدَعوةِ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3] [الدخان: ١٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٤).

- وجُملةُ ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ إمَّا بَدَلٌ مُطابقٌ ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾؛ كأنَّ فِرعَونَ في نَفْسِه كان عذابًا مُهينًا؛ لإفراطِه في تَعذيبِهم وإهانَتِهم، فتكونُ ﴿مِن﴾ مُؤكِّدةً لـ ﴿مِنَ﴾ الأولى المعدِّيةِ لـ ﴿نَجَّيۡنَا﴾؛ لأنَّ الحرْفَ الدَّاخِلَ على المُبدَلِ منه يَجوزُ أنْ يَدخُلَ على البدَلِ للتَّأكيدِ، ويَحسُنُ ذلك في نُكَتٍ يَقْتَضيها المقامُ، وحسَّنَه هنا -فأُظْهِرَتْ كَلِمةُ ﴿مِن﴾-؛ لخَفاءِ كَونِ اسمِ فِرعَونَ بدَلًا مِن العَذابِ؛ تَنبيهًا على قَصدِ التَّهويلِ لأمْرِ فِرعونَ في جَعْلِ اسمِه نَفْسَ العَذابِ المُهين. وإمَّا على حذْفِ المُضافِ، أي: عَذابِ فِرعونَ. أو حالٌ مِن ﴿ٱلۡمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فِرعونَ[١].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لِبَيانِ التَّهويلِ الَّذي أفادَه جَعلُ اسمِ فِرعَونَ بَدَلًا مِن العَذابِ المُهينِ[٢].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في اتِّصافِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: (مُسرِفًا)، أي: كان رفيعَ الطَّبَقةِ مِن بيْنِ المسرِفينَ، فائقًا لهم، بَليغًا في الإسرافِ[٣].

- وفي إيهامِ أمْرِه أوَّلًا، وتَبْيينِه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ ثانيًا؛ مِن الإفصاحِ عن كُنْهِ أمْرِه في الشَّرِّ والفَسادِ ما لا مَزيدَ عليه[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بَدَأَ بدَفعِ الضَّرَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

عنهم، وهو نَجاتُهم ممَّا كانوا فيه مِن العَذابِ، ثمَّ ذَكَر بعْدَ ذلك إيصالَ النَّفعِ لهم؛ مِنِ اختيارِهم على العالَمينَ، وإيتائِهم الآياتِ[1]؛ لأنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على إيصالِ النَّفعِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى قد اختارَ الَّذين آمَنوا بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أُمَمِ عَصرِهم، كما اختارَ الَّذين آمَنوا بمُوسَى عليه السَّلامُ على أُمَمِ عَصرِهم، وأنَّه عالِمٌ بأنَّ أمْثالَهم أهلٌ لأنْ يَختارَهُم اللهُ، والمَقصودُ: التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ بالرُّسُلِ، وأنَّ ذلك يَقتَضي أنْ يَنصُرَهم اللهُ على أعدائِهم، ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّامِ و(قد)، كما أُكِّد في قولِه آنِفًا: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3] [الدخان: ٣٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بذِكْرِ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: مِنَّا، وقال في سورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] بحَذفِه؛ جَريًا هنا على الأصلِ في ذِكْرِ ما لا يُغْني عنه غَيرُه، واكتِفاءً هناك بقَولِه بَعدُ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[4] [الجاثية: ٢٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ المُرادُ بالآياتِ: المُعجِزاتُ الَّتي ظَهَرتْ على يَدِ مُوسَى عليه السَّلامُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ أيَّد اللهُ بها بَني إسرائيلَ في مَواقِعِ حُروبِهم بنَصرِ الفِئَةِ القَليلةِ منهم على الجُيوشِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٦).

الكَثيرةِ مِن عَدُوِّهم، وهذا تَعريضٌ بالإنذارِ للمُشرِكين بأنَّ المُسلِمينَ سيَغلِبُون جَمْعَهم مع قِلَّتِهم في بَدرٍ وغَيرِها[(١)].

- وقِصَّةُ فِرعَونَ وقَومِه مَسوقةٌ للدَّلالةِ على أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مِثلُهم في الإصرارِ على الضَّلالةِ، والتَّحذيرِ والإنذارِ عن حُلولِ مِثلِ ما حلَّ بهم[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟
بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمُنشَرِينَ﴾: أي: بمَبعوثِينَ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن البعثِ والنُّشورِ: إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ: ما هي إلَّا مَوتَتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا ولا حياةَ بعدَها، فإذا مِتْنا فما نحن بمَبعوثينَ، فإنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا لهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ خَيرٌ أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ، والَّذين مِن قَبْلِهم مِنَ الكُفَّارِ؟ أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرمينَ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُدلِّلًا على صِحَّةِ البعثِ: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما لَعِبًا، ما خلَقْناهما إلَّا بالحَقِّ والحِكمةِ، ولكِنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى تعالى عن المُشرِكين إعْراضَهم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطَعْنَهم فيه، بقَولِه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، وهدَّدَهم بقَولِه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، وضَرَب لهم مَثَلَ قَومِ فِرعَونَ، ومَجيءِ رَسولٍ كَريمٍ إليهم، وقَصْدِهم إيَّاه، وتَدميرِ اللهِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ اعتِبارًا واتِّعاظًا- أتى بما هو أَطَمُّ مِن الأوَّلِ، وهو تَكذيبُ اللهِ بأنْ لا بَعْثَ ولا حَشْرَ، وأنَّ اللهَ تعالَى ما خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، بلْ خَلَقَهما باطلًا! لأنَّه سَبَق مِرارًا وأطوارًا أنَّه تعالى ما خَلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا لِيُوَحَّدَ ويُعبَدَ، ثمَّ لا بُدَّ أن يَجزِيَ المُطيعَ والعاصِيَ، وليست هذه دارَ الجَزاءِ(١).

وأيضًا فإنَّها رُجوعٌ إلى ذِكرِ كُفَّارِ مَكَّةَ؛ وذلك لأنَّ الكلامَ فيهم، حيثُ قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، أي: بَلْ هم في شَكٍّ مِن البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ بَيَّنَ كيفيَّةَ إصرارِهم على كُفْرِهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّ قومَ فِرعَونَ كانوا في الإصرارِ على الكُفرِ مثلَهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّه كيف أهلَكَهم، وكيف أنعَمَ على بني إسرائيلَ، ثمَّ رَجَع إلى الحديثِ الأوَّلِ، وهو كَونُ كُفَّارِ مَكَّةَ مُنكِرينَ للبَعثِ؛ فقال(٢):

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ(٣):

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١، ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).
=

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ما هي إلَّا مَوتَتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا، ولا حياةَ بعدَها[1].

= قال ابنُ عاشور: (كَلِمةُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حيثُما ذُكِرَ في القُرآنِ غيرَ مَسبوقٍ بما يَصلُحُ أن يُشارَ إليه: مُرادٌ به المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، كما استَنْبَطْناه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

قال البيضاوي: (﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقِبةُ ونِهايةُ الأمرِ إلَّا المَوتةُ الأُولى المُزيلةُ للحَياةِ الدُّنيويَّةِ، ولا قَصْدَ فيه إلى إثباتِ ثانيةٍ، كما في قَولِك: حَجَّ زَيدٌ الحَجَّةَ الأُولى، ومات). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٤).

وقال الواحدي: (﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما المَوتةُ إلَّا مَوتةٌ نَموتُها في الدُّنيا، ثمَّ لا بَعْثَ بَعْدَها). ((الوسيط)) (٤/ ٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ ﴿هِىَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ويُقالُ له: ضَميرُ القِصَّة؛ لأنَّه يُستعمَلُ بصيغةِ المؤنَّثِ بتأويلِ القِصَّة، أي: لا قِصَّةَ في هذا الغَرَضِ إلَّا المَوتةُ المعروفةُ؛ فهي مَوتةٌ دائِمةٌ لا نُشورَ لنا بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

وقيل: المعنى: أنَّه قيل لهم: إنَّكم تَموتونَ مَوتةً تَعقُبُها حياةٌ، كما تَقدَّمَتْكم مَوتةٌ قد تعَقَّبَتْها حَياةٌ، وذلك قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، يُريدونَ: ما المَوتةُ الَّتي مِن شَأْنِها أن يَتعَقَّبَها حياةٌ إلَّا المَوتةُ الأُولى دونَ المَوتةِ الثَّانيةِ، وما هذه الصِّفةُ الَّتي تَصفونَ بها الموتةَ مِن تعَقُّبِ الحياةِ لها إلَّا لِلْمَوتةِ الأُولى خاصَّةً، فلا فَرْقَ إذَنْ بَيْنَ هذا وبيْنَ قَولِهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ في المعنى. وهذا =

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ[١].

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾.

أي: فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ، فلْيَرجِعوا إلى الدُّنيا أحياءً بعدَ مَوتِهم إنْ كُنتُم حَقًّا صادِقينَ في أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا[٢]!

= القَولُ هو قَولُ الزَّمخشري، وذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: النَّيْسابوري، والبِقاعي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال النيسابوري: (ذلك أنَّ النِّزاعَ إنَّما وَقَع في مَوتةٍ تَعقُبُها حياةٌ، فأنكَروا أن تكونَ مَوتةٌ بهذا الوَصفِ إلَّا الموتةَ الأُولى، وهو حالَ كَونِهم نُطَفًا). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥).

وقال البقاعي: (قالوا: ما ﴿هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا﴾ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: ما الحَياةُ إلَّا حياةُ مَوتَتِنا ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الَّتي كانت قبْلَ نَفخِ الرُّوح ... وعَبَّروا عنها بالمَوتةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الحياةَ في جَنْبِ الموتِ المؤَبَّدِ -على زَعْمِهم- أمرٌ مُتلاشٍ لا نِسبةَ لها منه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٥).

وقال ابنُ المُنَيِّر: (الموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا لا يُعَبَّرُ عنه بالمَوتةِ؛ فإنَّ المَوتةَ فَعْلةٌ فيها إشعارٌ بالتَّجَدُّدِ والطَّرَيانِ. والموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا أمرٌ مُستصحَبٌ لم تتقَدَّمْه حياةٌ طَرَأَ عليها هذا). ((حاشية ابن المنيِّر على تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخُوطِبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو وَحْدَه خِطابَ الجَمعِ على غِرارِ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] و﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. وممَّن قال بذلك: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعالبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: هو خِطابٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأتْباعِه مِن المؤمِنينَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ أنْ ضَرَب لهمُ المَثَلَ بمَهلِكِ قَومِ فِرعَونَ؛ زادهم مَثَلًا آخَرَ هو أقرَبُ إلى اعتِبارِهم به، وهو مَهلِكُ قَومٍ أقرَبَ إلى بِلادِهم مِن قَومِ فِرعَونَ، وأُولَئِك قَومُ تُبَّعٍ؛ فإنَّ العَرَب يَتَسامَعونَ بعَظَمةِ مُلْكِ تُبَّعٍ وقَومِه أهلِ اليَمَنِ، وكَثيرٌ مِن العَرَبِ شَاهَدوا آثارَ قُوَّتِهم وعَظَمَتِهم في مَراحِلِ أسفارِهم[1].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أمُشرِكو قُرَيشٍ خَيرٌ[2] ....

= والزمخشري، والنَّسَفي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

وقال ابنُ عطية: (وقَولُ قُرَيشٍ: ﴿فَأْتُوا۟﴾ مُخاطَبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلَّا أنَّه مِن حيثُ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُسنِدًا في أقوالِه وأفعالِه إلى اللهِ تعالى وبواسِطةِ مَلَك، خاطَبوه كما تخاطَبُ الجَماعةُ، وهم يُريدونَه ورَبَّه ومَلائكتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

وقال ابن عاشور: (جَعَلوا قولَهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُجَّةً على نَفيِ البَعثِ بأنَّ الأمواتَ السَّابِقينَ لم يَرجِعْ أحدٌ منهم إلى الحَياةِ، وهو سَفْسَطةٌ؛ لأنَّ البَعثَ المَوعودَ به لا يَحصُلُ في الحَياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

(٢) قال القرطبي: (قيل: المعنى: أهُمْ أظهَرُ نِعمةً وأكثَرُ أموالًا أمْ قَومُ تُبَّعٍ؟! وقيل: أهُمْ أعَزُّ =

أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ(١) والَّذين مِن قَبْلِهم مِن الأُمَمِ الكافِرةِ كعادٍ وثَمودَ(٢)؟!

كما قال الله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قومَه، ولم يَذُمَّه؟)(٣).

= وأشَدُّ وأمنَعُ أم قَومُ تُبَّعٍ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(١) ذهب عددٌ مِن المفَسِّرين إلى أنَّ تُبَّعًا لَقَبٌ لملوكِ اليَمَنِ، وقيل لِمَن مَلَك منهم سبأً وحِمْيَرَ وحَضْرَمَوتَ، كما أنَّ كِسْرى لَقَبٌ لِمَن مَلَك فارِسَ، وقَيْصَرَ لَقَبٌ لِمَن مَلَك الرُّومَ، وذهبوا إلى أنَّ المرادَ به هنا مَلِكٌ واحِدٌ بعَيْنِه كان قد آمَنَ باللهِ تعالى؛ فذَمَّ اللهُ تعالى قَومَه ولم يَذُمَّه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّه كان مُؤمِنًا صالحًا: عائِشةُ، وكعبُ الأحبارِ، وابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٥).

قال أبو عُبَيدةَ: (مُلوكُ اليمَنِ كان كُلُّ واحدٍ مِنهم يُسَمَّى تُبَّعًا؛ لأنَّه يَتْبَعُ صاحِبَه، وكذلك الظِّلُّ؛ لأنَّه يَتْبَعُ الشَّمسَ، ومَوضِعُ تُبَّعٍ في الجاهليَّةِ مَوضِعُ الخليفةِ في الإسلامِ، وهم مُلوكُ العَرَبِ الأعاظِمُ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

وخصَّ بعضُ المفَسِّرينَ قَومَ تُبَّعٍ هنا بقَومِ سَبَأٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخَينِ).

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: مع أنَّهم خَيرٌ منهم أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ، فلا يمتَنِعُ أن نُهلِكَ كُفَّارَ قُرَيشٍ وهم دُونَهم، كما أُهلِكَ مَنْ قَبْلَهم(١)!

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى على كُفَّارِ مكَّةَ قَولَهم، ووصَفَهم بأنَّهم أضعَفُ مِمَّن كان قَبْلَهم؛ ذكَرَ الدَّليلَ القاطِعَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ، فقال تعالى(٢):

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨)﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ المخلوقاتِ لَعِبًا بلا مَعنًى ولا فائِدةٍ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

قال الرازي: (لو لم يَحصُلِ البَعثُ لَكان هذا الخَلقُ لَعِبًا وعَبَثًا). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ خَلَقَ ذلك لِلَّعِبِ الَّذي هو باطِلٌ، أثبَتَ ما خلَقه له[1]، فقال تعالى:

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، ومِن أجْلِ إقامةِ الحَقِّ بعِبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له؛ فيُمتَحَنُ العِبادُ بذلك أمرًا ونَهيًا، ثم يُجازَونَ عليه بعد بَعْثِهم ثَوابًا أو عِقابًا[2].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، وأنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِ العِبادِ ومُجازاتِهم على أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ فهم لا يَخافونَ عُقوبةً على ما يأتونَه مِن سَخَطِ اللهِ، ولا يَرجُونَ ثَوابًا على خَيرٍ فَعَلوه؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠، ٣١١).

قال ابن القيِّم: (اتَّفَق المفسِّرون على أنَّ الحَقَّ الَّذي خُلِقت به السَّمَواتُ والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

لِتكذيبِهم بالمعادِ إلى اللهِ تعالى(١).

كما قال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، ورُبَّما تَوهَّمَ جاهِلٌ أنَّهم لم يُجابوا عمَّا سَألوا! وليس كذلك؛ فإنَّ الَّذي سألوا لا يَصلُحُ أن يكونَ دَليلًا على البَعثِ؛ لأنَّهم لو أُجيبوا إلى ما سألوا لم يكُنْ ذلك حُجَّةً على مَن تقدَّمَ، ولا على مَن تأخَّرَ، ولم يَزِدْ على أن يكونَ لِمَن تقَدَّمَ وَعدًا، ولِمَن تأخَّرَ خَبَرًا، اللَّهُمَّ إلَّا أن يجيءَ لكُلِّ واحِدٍ أبوه، فتَصيرَ هذه الدَّارُ دارَ البَعثِ! ثمَّ لو جاز وُقوعُ مِثلِ هذه كان إحياءُ مَلِكٍ يُضرَبُ به الأمثالُ أَوْلى، كـ(تُبَّعٍ)، لا أنتم يا أهلَ مَكَّةَ؛ فإنَّكم لا تُعرَفونَ في بِقاعِ الأرضِ(٢)!

٢- قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ تَعليقُ الإهلاكِ بقَومِ تُبَّعٍ دُونَه يَقتَضي أنَّ تُبَّعًا نجا مِن هذا الإهلاكِ، وأنَّ الإهلاكَ سُلِّطَ على قَومِه(٣).

٣- أفعالُ اللهِ تعالى مُحكَمَةٌ واقِعةٌ لغَرَضٍ ومَصلحةٍ؛ وإلَّا لَكان -سُبحانَه وتعالى- عابِثًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾(٤)!

٤- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦١).

(٢) هذه فائدةٌ مِن الوزيرِ ابنِ هُبَيْرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٩٨).

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لو لم يَكُن بَعثٌ وجَزاءٌ لَكان خَلقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما عَبَثًا، ونَحنُ خَلَقْنا ذلك كُلَّه بالحَقِّ، أي: بالحِكمةِ؛ كما دلَّ عليه إتقانُ نِظامِ المَوجُوداتِ؛ فلا جَرَمَ اقتَضَى خَلْقُ ذلك أنْ يُجازَى كلُّ فاعِلٍ على فِعلِه، وألَّا يُضاعَ ذلك، ولَمَّا كان المُشاهَدُ أنَّ كَثيرًا مِن النَّاسِ يَقضِي حَياتَه ولا يَرَى لِنَفْسِه جَزاءً على أعمالِه، تَعيَّنَ أنَّ اللهَ أخَّرَ جَزاءَهُم إلى حَياةٍ أُخرى، وإلَّا لَكان خَلْقُهم في بَعضِ أَحوالِه مِن قَبيلِ اللَّعِبِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للحَديثِ عن قُرَيش بعْدَ استِطرادِ حَديثِ بَني إسرائيلَ(٢). وقيل: إنَّ الكَلامَ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] وجُملةِ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧]؛ فإنَّه لَمَّا هَدَّدَهم بعَذابِ الدُّخانِ ثمَّ بالبَطْشةِ الكُبرَى، وضَرَبَ لهم المَثَلَ بقَومِ فِرعونَ؛ أَعقَبَ ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو الَّذي صَرَفهم عن تَوَقُّعِ جَزاءِ السُّوءِ على إعراضِهم.

وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي ليس هو للتَّأكيدِ؛ لأنَّ نِسبةَ هذا القَولِ إلى المُشرِكين لا تَرَدُّدَ فيه حتَّى يَحتاجَ إلى التَّأكيدِ، فتَعَيَّنَ كَونُ حَرفِ (إنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ، وهو إذا وَقَعَ مِثلَ هذا المَوقِعِ أفادَ التَّسَبُّبَ، وأغنَى عن الفاءِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كُفَّارَ قُريشٍ، وفي اسمِ الإشارةِ تَحقيرٌ لهم، وازدِراءٌ بهم؛ ولِهَذا قال: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾[(١)] [الدخان: ٣٧].

- قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هذا كلامٌ مِن كَلِماتِهم في إنكارِ البَعثِ، وفيه قَصرٌ، وهذا القَصرُ قَصرٌ حَقيقيٌّ[(٢)] في اعتِقادِهم؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون باعتِراءِ أحوالٍ لهم بعْدَ المَوتِ؛ فأنكَروا أنْ يَكونَ لَهُم مَوتةٌ ثانيةٌ، والمَعنَى: ما آخِرُ أمْرِنا ومُنتَهَى وُجودِنا إلَّا عِندَ مَوتَتِنا[(٣)].

- وأعْقَبوا قصْرَ ما يَنتابُهم بعْدَ الحياةِ على المَوتةِ التي يَموتونَها بقولِهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ تَصريحًا بمَفهومِ القَصرِ، وجيءَ به مَعطوفًا للاهتِمامِ به؛ لأنَّه غَرَضٌ مَقصودٌ مع إفادَتِه تأكيدَ القَصرِ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشِئٌ عن قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الدخان: ١٧]؛ فضَميرُ (هم) راجِعٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾[(٥)] [الدخان: ٣٤، ٣٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ للاستِفهامِ الإنكارِيِّ[(٦)]. وهو أيضًا استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يَعترِفوا بأنَّ قَومَ تُبَّعٍ والَّذين مِن قَبلِهِم خَيرٌ منهم؛ لأنَّهم كانوا يَضرِبون بهم الأمثالَ في القُوَّةِ والمَنَعةِ. وافتُتِحَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

الكَلامُ بالاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لاستِرعاءِ الأسماعِ لِمَضمونِه؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّ تُبَّعًا ومَن قَبْلَه مِن المُلوكِ خَيرٌ مِن هَؤُلاءِ المُشرِكين(١).

- وجُملةُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِمَا أثارَه الاستِفهامُ التَّقريريُّ مِن السُّؤالِ عن إبهامِه: ماذا أُرِيدَ به(٢)؟

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بَيانٌ للجامِعِ المُقتَضِي للإهلاكِ، وتَعليلٌ لِإهلاكِهم. وفي ذلك وَعيدٌ لِقُريشٍ، وتَهديدٌ أنْ يُفعَلَ بهمْ ما فُعِلَ بقَومِ تُبَّعٍ ومَن قَبْلَهم مِن مُكذِّبي الرُّسلِ لإجْرامِهم(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على صِحَّةِ الحَشرِ ووُقوعِه وتَقريرِه؛ لأنَّا ما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما للعَبَثِ -جلَّ جنابُ الجَلالِ عن ذلك- بلْ بالحَقِّ، وهو أنِ اعبُدُوا ووَحِّدوا، ولا بُدَّ لِمَن عَبَدَ ووَحَّدَ ولِمَن أعرَضَ وأشرَكَ مِن الثَّوابِ والعِقابِ؛ فكَيفَ يقال: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾(٤)؟!

أو عَطفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ رَدًّا عليهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

- وقولُه: ﴿لَعِبِينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿خَلَقْنَا﴾، والنَّفيُ مُتوَجِّهٌ إلى هذا الحالِ؛ فاقتَضَى نَفْيَ أنْ يَكُونَ شَيءٌ مِن خَلقِ ذلك في حالَةِ عَبَثٍ؛ فمِن ذلك حالةُ إهمالِ الجَزاءِ[١].

- وذِكرُ اللَّعبِ تَوبيخٌ لِلَّذين أحالُوا البَعْثَ والجَزاءَ؛ بأنَّهم اعتَقَدوا ما يُفضِي بهم إلى جَعْلِ أفعالِ الحَكيمِ لَعِبًا[٢].

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: خَلَقْنا ذلك مُلابِسًا ومُقارِنًا للحَقِّ، أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بسَبَبِ الحَقِّ، أي: لإيجادِ الحَقِّ مِن خَلْقِهما[٣].

- وجُملةُ الاستِدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ وتَجهيلٌ عَظيمٌ لمُنكِري الحَشرِ وتوكيدٌ؛ لأنَّ إنكارَهُم يُؤَدِّي إلى إبطالِ الكائِناتِ بأَسْرِها، والاستِدراكُ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ نَفْيُ أنْ يَكونَ خَلقُ المَخلوقاتِ لَعِبًا، وإثباتُ أنَّه للحقِّ لا غيرُ؛ مِن كَونِ شَأنِ ذلك ألَّا يَخفَى، ولَكِنَّ جَهْلَ المُشرِكين هو الَّذي سَوَّلَ لهم أنْ يَقولوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[٤] [الدخان: ٣٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

الآيات (٤٠-٥٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣)
طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ
سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ
الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: أي: يومَ القيامةِ، وسُمِّيَ يومَ الفَصلِ؛ لأنَّه يومٌ يُفصَلُ فيه بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، والظَّالمِ والمظلومِ؛ بأن يَحكُمَ اللهُ بيْنَ عِبادِه، فيَفصِلَ بيْنَهم بالعدلِ مِن قَضائِه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿مِيقَاتُهُمْ﴾: أي: وَقْتٌ يَجتمِعون فيه، والمِيقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوعدُ الَّذي جُعِل له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حدِّ شَيءٍ وكُنْهِه، في زمانٍ وغيرِه[2].

﴿مَوْلًى﴾: المَوْلى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨) و(٢١/ ٥١، ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، =

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ، كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تَزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ(١).

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: أي: الآثِمِ الفاجِرِ، المُتمادي في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ الآثِمَ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه(٢).

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، أو: ما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ(٣).

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ(٤).

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: ادفَعوه، وسُوقوه بشِدَّةٍ، يُقالُ: عَتَله يَعتِلُه عَتْلًا: إذا ساقه بالعُنفِ والدَّفعِ والجَذْبِ، والعَتْلُ: الدَّفعُ، والإرهاقُ بالسَّوقِ العَنيفِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ(٥).

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠))، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، =

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ جهنَّمَ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ[1].

﴿تَمْتَرُونَ﴾: أي: تَشُكُّون وتُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخَصُّ مِن الشَّكِّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى عن يوم القيامةِ، فيقولُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المُحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الخَلائِقِ أجمَعينَ، يومَ لا يُغْني مَولًى بقَرابةٍ أو غَيرِها عن مَولًى شَيئًا، ولا هم يُمنَعونَ مِن عَذابِ اللهِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ تعالى مِن المومنينَ؛ إنَّه هو العزيزُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه طعامَ أهلِ النَّارِ وحالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ في النَّارِ هي طَعامُ الكافِرِ الفاجِرِ، كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ شديدِ الحرارةِ، يَغلي في بطونهم كغَليِ الماءِ البالِغِ نهايةَ الحَرارةِ. ويُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فجُرُّوه بغِلظةٍ وسُوقُوه بشِدَّةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ، ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ الشَّديدِ الحرارةِ، ثمَّ يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كنتَ في الدُّنيا تَزعُمُ أنَّك أنت العَزيزُ الكريمُ، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذليلٌ مَهينٌ!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٩/ ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

إنَّ هذا العذابَ الَّذي نَزَل بكم -أيُّها الكافِرونَ- هو ما كنتُم بشَأنِه تُجادِلونَ وتُخاصِمونَ في الدُّنيا، وتَشُكُّونَ فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] إثباتُ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ؛ فلا جَرَمَ ذَكَرَ عَقِيبَه قَولَه[(١)]:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾.

أي: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المحدَّدُ للخَلقِ أجمعينَ أوَّلِهم وآخِرِهم، فيُفصَلُ فيه بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ويُفصَلُ فيه بيْنَ الخَلائِقِ؛ فيُعاقَبُ المُسيئونَ، ويُثابُ المحسِنونَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذا اليومَ الَّذي دلَّ على عَظَمتِه بتلك العِبارةِ؛ ذكَرَ مِن وَصْفِه ما يَحمِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١).

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يومَ لا يَنفَعُ قريبٌ قريبَه، ولا صاحِبٌ صاحبَه، ولا يَدفَعُ عنه شيئًا مِن عقوبةِ اللهِ الَّتي حَلَّتْ به(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [سبأ: ٤٢].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمنَعونَ مِن عذابِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَشفَعُ بَعضُهم لبَعضٍ بإذنِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).
قال ابن عطيَّة: (المَولَى في هذه الآيةِ يَعُمُّ جميعَ الموالي: مِنَ القَراباتِ، وموالي العِتقِ، وموالي الصَّداقةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

تعالى[(١)].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ البالِغةِ، ومِن ذلك قَهرُه وانتِقامُه مِن الكافِرينَ؛

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

اختُلِف في الاستثناءِ في هذه الآيةِ؛ فقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ. وممَّن اختاره: أبو البقاءِ العُكْبَريُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٢)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (الاستِثناءُ بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وقَعَ عَقِبَ جُملتَيْ ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ فحُقَّ بأن يَرجِعَ إلى ما يَصلُحُ للاستِثناءِ منه في تَيْنِك الجُملتَينِ؛ لنا في الجملتَينِ ثلاثةُ ألفاظٍ تَصلُحُ لأنْ يُستثنى منها، وهي: ﴿مَوۡلًى﴾ الأوَّلُ المرفوعُ بفِعلِ ﴿يُغۡنِي﴾، و﴿مَوۡلًى﴾ الثَّاني المجرورُ بحَرفِ ﴿عَن﴾، وضَميرُ ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، فالاستِثناءُ بالنِّسبةِ إلى الثَّلاثةِ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ، أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن الموالي، أي: فإنَّه يَأذَنُ أن يُشفَعَ فيه، ويأذَنُ للشَّافِعِ بأن يَشفَعَ... والشَّفاعةُ: إغناءٌ عن المشفوعِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقطِعٌ، بمعنى: لكنْ. وممَّن اختاره: الكِسائيُّ -كما نسبَه إليه النَّحاسُ-، والفَرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٧).

قال السَّمينُ الحلبيُّ: (قولُه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ يجوزُ فيه أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها -وهو قولُ الكِسائيِّ-: أنَّه مُنقطِعٌ. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، تقديرُه: لا يُغْني قريبٌ عن قريبٍ إلَّا المؤمنينَ؛ فإنَّهم يُؤْذَنُ لهم في الشَّفاعةِ، فيشفَعون في بعضِهم. الثَّالثُ: أن يكونَ مرفوعًا على البَدَليَّةِ مِن ﴿مَوۡلًى﴾ الأوَّلِ، ويكونَ ﴿يُغۡنِي﴾ بمعنى يَنفَعُ، قاله الحَوْفيُّ. الرَّابعُ: أنَّه مرفوعُ المحلِّ أيضًا على البدَلِ مِن واوِ ﴿يُنصَرُونَ﴾، أي: لا يمنعُ مِن العذابِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ). ((الدر المصون)) (٩/ ٦٢٧).

المتَّصِفُ بالرَّحمةِ البالِغةِ، ومِن ذلك رَحمتُه بالمُؤمِنينَ[١].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ، ثمَّ أردَفَه بوَصفِ ذلك اليَومِ؛ ذَكَر عَقيبَه وَعيدَ الكُفَّارِ، ثمَّ بَعْدَه وَعْدَ الأبرارِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان السِّياقُ للانتِقامِ؛ أخبَرَ عن حالِ الفُجَّارِ على سَبيلِ الاستِئنافِ، فقال مُؤَكِّدًا لِمَا يُكَذِّبونَ به[٣]:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ هي طَعامُ المُبالِغِ في اكتِسابِ الآثامِ مِن الكُفَّارِ والفُجَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (أي: أنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُكرِهُه أحَدٌ على العُدولِ عن مُرادِه، فهو يَرحَمُ مَن يَرحمُه بمَحضِ مَشيئتِه، وهو رَحيمٌ، أي: واسِعُ الرَّحمةِ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، على وَفْقِ ما جرى به عِلمُه وحِكمتُه ووَعدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

قال السمعاني: (﴿ٱلْأَثِيمِ﴾... هو أبو جَهلٍ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: في قولِه وفعلِه، وهو الكافرُ. وذَكَر غيرُ واحدٍ أنَّه أبو جهلٍ، ولا شكَّ في دخولِه في هذه الآيةِ، ولكن ليست خاصَّةً به). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ٤٥﴾.

أي: ذلك الطَّعامُ يكونُ كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ الَّذي بلغ الغايةَ في الحَرارةِ، يَغلي في بُطونِ آكِليه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤،٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣١).
قال ابن عطيَّة: (قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما: «المُهلُ»: دُرْدِيُّ الزَّيتِ وعَكَرُه. وقال ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: «المُهلُ» ما ذاب مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو حديدٍ أو رَصاصٍ ونَحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).
وقيل في معنى المُهْلِ أيضًا: إنَّه قَيحٌ ودمٌ أسْوَدُ كعَكَرِ الزَّيتِ. وقيل: إنَّه الَّذي قد انتهى حَرُّه. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨١).
ممَّن اختار أنَّ المُهْلَ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ (أي عَكَرُه في قعرِه): مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسَّمْعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ما يُمهلُ في النَّارِ حتَّى يَذوبَ مِن الرَّصاصِ أو الفضَّةِ أو الصُّفْرِ (النُّحاسِ الأصفرِ): السمرقندي، ومكِّي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣).
قال ابن جرير: (وهذه الأقوالُ وإن اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارِباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ =

﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كغَلَيانِ الماءِ الَّذي تناهَت حَرارتُه[(١)]!

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العَذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فسُوقوه واسحَبوه بعُنفٍ وغِلظةٍ ومَهانةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ الَّتي في غايةِ الاضطِرامِ والتَّوقُّدِ[(٢)]!

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ البالِغِ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فيَعُمُّ العَذابُ جَميعَ بَدَنِه[(٣)]!

كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

= كُلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انتهَى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه من ذلك النَّارُ حتَّى صارَ كدُرْدِيِّ الزَّيتِ، فقد انتهَى أيضًا حَرُّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠).

وقال ابن كثير: (وهذه الأقوالُ ليس شَيءٌ منها يَنْفي الآخَرَ؛ فإنَّ المُهْلَ يجمعُ هذه الأوصافَ الرَّذيلةَ كُلَّها، فهو أسْوَدُ مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤).

وقال ابن عطيَّة: (والمعنى أنَّ هذه الشَّجرةَ إذا طَعِمَها الكافِرُ في جهنَّمَ صارت في جَوفِه تفعَلُ كما يَفعَلُ المُهْلُ السُّخْنُ، مِن الإحراقِ والإفسادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٣).

أي يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كُنتَ في الدُّنيا العزيزَ في قَومِك، الكريمَ عليهم في زَعمِك، فإنَّك اليومَ لَدَيْنا ذَليلٌ مَهينٌ(١)!

قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾.

أي: إنَّ هذا هو العَذابُ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تَشُكُّونَ فيه، وتُجادِلونَ في وُقوعِه؛ فذُوقوه فقد عَلِمتُم الآنَ حقيقتَه يَقينًا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٤، ١٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُتوهَّمُ مِن ظاهِرِها ثُبوتُ العِزَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوق يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجِدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكِنَّ ذاك مُقَيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان بارِدًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٤/ ٦٧٢).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ محذوفٍ، تقديرُه: قولوا له، أو يُقالُ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

والكَرَمِ لأهلِ النَّارِ، مع أنَّ الآياتِ القُرآنيَّةَ مُصرِّحةٌ بخِلافِ ذلك؛ كقولِه: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ. وكقولِه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وكقولِه تعالى هنا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: في زَعْمِك الكاذِبِ، بل أنتَ المُهانُ الخسيسُ الحقيرُ، فهذا التَّقريعُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ[1].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه يُخاطَبُ بذلك على سَبيلِ الاستِهزاءِ، والمرادُ: إنَّك أنت بالضِّدِّ منه.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّ المعنى: أنَّك كنتَ تعتَزُّ لا باللهِ، فانظُرْ ما وقَعْتَ فيه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المَخلوقِ باسمِ الخالِقِ، ورَفعِ الحَرَجِ فيه[3]، وذلك فيما يَكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ؛ كالملِكِ، والعزيزِ، إلى غيرِ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٤) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)): (ما كان مِن أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخص، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإنَّ الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيَجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى اللهُ نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

٣- السِّياقُ يُرشِدُ إلى بَيانِ المُجمَلِ، وتعيينِ المُحتَمِلِ، والقَطعِ بعَدَمِ احتِمالِ غيرِ المرادِ، وتخصيصِ العامِّ، وتقييدِ المُطلَقِ، وتنوُّعِ الدَّلالةِ؛ وهو مِن أعظَمِ القرائِنِ الدَّالَّةِ على مُرادِ المتكَلِّم، فمَنْ أهمَلَه غَلِطَ في نَظَرِه، وغالَطَ في مُناظَرتِه؛ فانظُرْ إلى قَولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ كيف تجِدُ سِياقَه يدُلُّ على أنَّه الذَّليلُ الحَقيرُ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ دَليلٌ على أنَّ تقريعَ المُعَذَّبِ بما أدَّاه إلى عَذابِه جائِزٌ؛ لأنَّه زيادةٌ في غَمِّه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يتنَزَّلُ ممَّا قَبْلَه مَنزلةَ النَّتيجةِ مِن الاستِدلالِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، والمَعنَى: فيومُ الفَصلِ مِيقاتُهم، إعلامًا لهم بأنَّ يومَ القَضاءِ هو أجَلُ الجَزاءِ؛ فهَذا وعيدٌ لهم. وتأكيدُ الخَبَرِ؛ لرَدِّ إنكارِهم[٣].

- وحُذِفَ مُتَعَلَّقُ المِيقاتِ؛ لظُهورِه من المَقامِ، أي: مِيقاتُ جَزائِهم. وأُضيفَ المِيقاتُ إلى ضَميرِ المُخبَرِ عَنهُم ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾؛ لأنَّهم المَقصودُ مِن هذا الوَعيدِ، وإلَّا فإنَّ يومَ الفَصلِ مِيقاتُ جَميعِ الخَلقِ؛ مُؤمِنيهم وكُفَّارِهم[٤].

- والتَّأكيدُ بقَولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على الإحاطةِ والشُّمولِ، أي: مِيقاتٌ لجَزائِهم كُلِّهم، لا يَفلِتُ منه أحَدٌ منهم؛ تَقويةً في الوَعيدِ، وتأييسًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِثناءِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿مَوۡلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ؛ لإفادَةِ العُمومِ، أي: لا يُغْني أحدٌ مِن المَوالي كائِنًا مَن كان -مِن قَرابةٍ أو غَيرِها- عن أحَدٍ مِن مَواليه كائِنًا مَن كان[(٢)].

- وتَنكيرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ للتَّقليلِ، وهو الغالِبُ في تَنكيرِ لَفظِ شَيءٍ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ، يعني: أيَّ إغناءٍ كان في القِلَّةِ، فضْلًا عن الإغناءِ الكَثيرِ، والمَعنَى: يومَ لا تُغْني عنهُم مَوالِيهم؛ فعَدَلَ عن ذلك إلى التَّعميمِ لأنَّه أوسَعُ فائدةً؛ إذ هو بمَنزِلةِ التَّذييلِ[(٣)].

- وفي الكَلامِ تَتميمٌ[(٤)] ومُبالَغةٌ، أي: ﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى﴾ أيَّ مَولًى كان، إغناءً أيَّ إغناءٍ كان[(٥)].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ جاء جمْعًا؛ لأنَّه راجِعٌ إلى المَوالي؛ لأنَّ ﴿مَوۡلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ فيَعُمُّ؛ فعاد على المَعنَى، لا على اللَّفظِ، ولأنَّهم في المَعنَى كَثيرٌ؛ لِتَناوُلِ اللَّفظِ على الإبهامِ والشِّياعِ كلَّ مَولًى[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي =

- والنَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ وعلى الغالِبِ، وهو أشَدُّ الإغناءِ؛ فعَطَف ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ على ﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ زيادةً في نَفيِ الإغناءِ، فمُحَصَّلُ المَعنَى: أنَّه لا يُغْني مُوَالٍ عن مُواليه بشَيءٍ مِن الإغناءِ حَسَبَ مُستَطاعِه، ولا يَنصُرُهم ناصِرٌ شَديدُ الاستِطاعةِ هو أقوَى مِنهم يَدفَعُ عنهم غَلَبَ القَويِّ عليهم؛ فاللهُ هو الغالِبُ لا يَدفَعُه غالِبٌ. وبُنيَ فِعلُ ﴿يُنصَرُونَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لِيَعُمَّ نَفْيَ كُلِّ ناصِرٍ، مع إيجازِ العِبارةِ(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ مُجمَلٌ عن سُؤالِ سائِلٍ عن تَعيينِ مَن رَحِمَه اللهُ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فَريقًا مَرحُومينَ على وَجهِ الإجمالِ، قابَلَه هنا بفَريقٍ مُعَذَّبينَ، وهم المُشرِكون، ووَصَف بَعضَ أصنافِ عَذابِهم، وهو مَأكَلُهم وإهانَتُهم وتَحريقُهم؛ فكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُبتدَأَ الكَلامُ بالإخبارِ عنهم بأنَّهم يَأكلُون شَجَرةَ الزَّقُّومِ، كما قال في سُورَةِ (الواقِعَة) [٥١، ٥٢]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ...﴾ الآياتِ؛ فعُدِلَ عن ذلك إلى الإخبارِ عن شَجَرَةِ الزَّقُّوم بأنَّها ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾؛ اهتِمامًا بالإعلامِ بحالِ هذه الشَّجرةِ، وقد جُعِلَت شَجَرةُ الزَّقُّومِ شَيئًا مَعلومًا للسَّامِعينَ؛ فأُخبِرَ عنها بطَريقِ تَعريفِ الإضافةِ؛ لأنَّها سَبَق ذِكرُها في سُورةِ (الواقِعة) الَّتي نَزَلَتْ قبْلَ سُورة (الدُّخَانِ)(٣).

= حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٤).

- و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ، وهو الكَثيرُ الآثامِ، والمُرادُ به: المُشرِكُون المَذكُورون في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ فهذا مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصْدِ الإيماءِ إلى أنَّ إثمَهم بالشِّركِ هو سَبَب مُعامَلَتِهم هذه[١].

- قولُه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ المُهلُ -بضَمِّ الميمِ-: دُرْديُّ الزَّيتِ -على قولٍ-، والتَّشبيهُ به في سَوادِ لَونِه، وقِيلَ: في ذَوَبانِه. والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ الَّذي انتَهى غَلَيانُه، ووَجهُ الشَّبَهِ هو هَيئةُ غَلَيانِه[٢]؛ فالمُشبَّهُ واحِدٌ، والمُشبَّهُ به مُتَعَدِّدٌ؛ شُبِّهَت عُصارةُ الشَّجرةِ تارةً بالمُهلِ في غِلَظِها وكُدورَتِها ونَتَنِها، وأُخرى بالماءِ في انفِعالِها بالغَلَيانِ. وقيل: هذا مِن تَداخُلِ التَّشبيهَينِ، أي: كالمُهلِ المُشَبَّه غَلَيانُه بغَلْيِ الحَميمِ في البُطونِ؛ شُبِّهَ طَعامُ الشَّجرةِ بدُرْديٍّ -وهو ما يَرْكُدُ في أسفَلِ كُلِّ مائعٍ- خارِجٍ عن المُتَعارَفِ؛ في أنَّه إذا قُدِّرَ أن يُصَبَّ في البُطونِ يَغلِي -بغَيرِ نارٍ- غَلَيانَ الماءِ الحارِّ في المَراجِلِ بالنَّارِ، ولا يَبعُدُ هذا التَّأويلُ؛ فإنَّ هذه الشَّجَرةَ على خِلافِ الأشجارِ المُتَعارَفةِ؛ لأنَّها تَنبُتُ في أصلِ الجَحيمِ، طَلْعُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطِينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: يُقالُ للزَّبانِيةِ مَلائِكةِ العَذابِ: خُذُوه، والضَّميرُ المُفرَدُ عائِدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٤، ٢٢٥).

إلى الأثيمِ باعتِبارِ آحادِ جِنسِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾

- حرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ لأنَّ صَبَّ الحَميمِ على رأسِهِ أشَدُّ عليه من أَخْذِه وعَتْلِه[٢].

- وقال: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصلُ أنْ يُقالَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم الحَميمُ، ولكِنْ قيلَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم عَذابٌ هو الحَميمُ؛ للمُبالَغةِ، ثمَّ أُضِيفَ العَذابُ إلى الحَميم؛ للتَّخفيفِ، وزِيدَ ﴿مِنْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المَصبُوبَ بَعضُ هذا النَّوعِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، تَقديرُه: قُولُوا له، أو يُقالُ له[٤].

- وصِيغَةُ الأمْرِ ﴿ذُقْ﴾ مُستَعمَلةٌ في الإهانةِ[٥].

- وقولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بعَلاقةِ الضِّدِّيَّة، والمَقصودُ عَكسُ مَدلُولِه، أي: أنت الذَّليلُ المُهانُ، والتَّأكيدُ للمَعنَى التَّهكُّميِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب =

٧- قولُه: تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ بَقيَّةُ القَولِ المَحذوفِ، أي: ويُقالُ للآثِمِينَ جَميعًا: إنَّ هذا ما كُنتُم به تَمتَرونَ في الدُّنيا، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّنديمِ والتَّوبيخِ[1].



= القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

الآيات (٥١-٥٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[١].

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: غليظِ الحريرِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في هذا الاستِثناءِ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لكِنِ المَوتةُ الأولى قد ذاقوها في الدُّنيا، أو سِوى المَوتةِ الأُولى الَّتي قد ذاقوها في الدُّنيا. الثَّاني: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المتَّصِلِ، وتأوَّلوه: بأنَّ المُؤمِنَ عندَ مَوتِه في الدُّنيا بمَنزِلَتِه في الجنَّةِ؛ لِمُعايَنةِ ما يُعطاه منها، أو لِما يَتيَقَّنُه مِن نَعيمِها. وقيل غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، =

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن ذكَر تعالى الكافرينَ وسوءَ مصيرِهم، يَذكُرُ المتَّقينَ وحُسنَ عاقِبَتِهم، فيقولُ تعالى: إنَّ المتَّقينَ في مَكانٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِن كُلِّ مَكروهٍ وسُوءٍ؛ في جنَّاتٍ وعُيونِ ماءٍ، يَلبَسونَ مِن حريرٍ رَقيقٍ ناعِمٍ وآخَرَ غَليظٍ، مُتواجِهينَ في الجنَّةِ، يُقابِلُ بَعضُهم بَعضًا بالوُجوهِ، كذلك وزَوَّجْناهم بنِساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ معَ قوَّةِ سَوادِها، واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها. ويَطلُبونَ في الجنَّةِ كُلَّ الفواكِهِ آمِنينَ مِن نَفادِها، أو أن يَنالَهم مِن أكلِها أذًى.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ بقاءَهم في تلك الجنَّاتِ بقاءٌ دائمٌ، فيقولُ: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ الموتَ إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ، ووقاهم رَبُّهم عذابَ النَّارِ؛ تفَضُّلًا منه سُبحانَه وإحسانًا، وذلك هو الفَوزُ العَظيمُ!

ثمَّ يقولُ تعالى: فإنَّما يسَّرْنا هذا القُرآنَ على النَّاسِ -يا محمَّدُ- بلِسانِك العَربيِّ الَّذي هو أفصَحُ الألسِنةِ؛ لَعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه فيَتَّعِظونَ ويَعمَلونَ. ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ويَعِدُه بالنَّصرِ، ويَتوعَّدُ مَن كذَّبه، فيقولُ: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يَحُلُّ بهم مِن العذابِ؛ إنَّهم مُترَقِّبونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الوَعيدَ في الآياتِ المُتقَدِّمةِ؛ ذكَرَ الوَعدَ في هذه الآياتِ[1].

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿مُقَامٍ﴾ بضَمِّ الميمِ. قيل: بمعنى الإقامةِ، فيَكونُ المعنى أنَّ المتَّقينَ في مُقامٍ أمينٍ مِنَ الانتِقالِ والارتحالِ عنه، فهم في إقامةٍ دائمةٍ في الجنَّةِ، أو يكونُ قَولُه تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصفًا لِمُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، أي: في مَوضِعِ إقامةٍ أمينٍ. وقيل: يحتَمِلُ أن يريدَ به المكانَ مِن «أقامَ»، فيَكونَ بمعنى القراءةِ الثَّانيةِ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿مَقَامٍ﴾ بفَتحِ الميمِ، أي: في مَوضِعٍ آمِنٍ مِنَ الخُروجِ منه، ومِن الأوصابِ والعِلَلِ والأنصابِ والأحزانِ، وغيرِ ذلك مِن المَخاوِفِ والآفاتِ(٢).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهَى عنه: مُستَقَرُّهم في الجنَّةِ في مَوضِعٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِنَ الموتِ والخُروجِ، ومِن كُلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ ونَكَدٍ، ومِن سائِرِ الآفاتِ والمصائِبِ(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: مَقامُهم في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ(١).

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

أي: يَلبَسونَ فيها الحَريرَ الرَّقيقَ النَّاعِمَ، والغَليظَ اللَّامِعَ البَرَّاقَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

أي: مُتواجِهينَ يُقابِلُ بَعضُهم بعضًا بالوُجوهِ، فلا يَجلِسُ أحَدٌ منهم وظَهرُه إلى غيرِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).
قيل: يَلبَسونَ الحَريرَ النَّاعِمَ على أجسادِهم، ويَلبَسونَ الإستَبْرَقَ فوقَ اللِّباسِ الأوَّلِ، فيُفيدُ السُّندُسُ الْتِذاذَ الجِسمِ به؛ لِرِقَّتِه ونُعومتِه، ويفيدُ الإستَبرَقُ الْتِذاذَ العَينِ به؛ لبَريقِه ولَمَعانِه. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨). =

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾.

أي: كذلك[(١)]، وزَوَّجْناهم[(٢)] بِنساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ مع

= قال السعدي: (﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قلوبهم ووُجوهِهم، في كمالِ الرَّاحةِ والطُّمَأنينةِ، والمَحبَّةِ والعِشْرةِ الحَسَنةِ والآدابِ المُستحسَنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(١) قيل: المرادُ: كما فعَلْنا بهم ما ذكَرْنا -مِن إكرامِهم بالجنَّاتِ والعُيونِ واللِّباسِ- كذلك نُزَوِّجُهم بالحُورِ العِينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

وقيل: المعنى: الأمرُ كما ذكَرْنا ووَصَفْنا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٩).

قال الشوكاني: (والكافُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمَّا نعتُ مَصدرٍ محذوفٍ، أي: نَفعَلُ بالمُتَّقينَ فِعْلًا كذلك. أو: مَرفوعٌ على أنَّه خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ أي: قَرَنَّاهم بهِنَّ: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

قال الألوسي: (والمرادُ على ما قال غيرُ واحِدٍ: وقَرَنَّاهم بِحُورٍ عِينٍ، وفُسِّرَ بذلك؛ قيل: لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها تكليفٌ، فلا عَقْدَ ولا تزويجَ بالمعنى المشهورِ. وقيل: لِمَكانِ الباءِ، وزَوَّجَه المرأةَ بمعنى أنكَحَه إيَّاها: مُتعَدٍّ بنَفْسِه. وفيه بحثٌ؛ فإنَّ الأخفَشَ جَوَّزَ الباءَ فيه، فيُقالُ: زوَّجْتُه بامرأةٍ فتزَوَّجَ بها، وأزْدُ شَنُوءةَ يُعَدُّونَه بالباءِ أيضًا، وفي القاموسِ: زوَّجْتُه امرأةً وتزوَّجْتُ امرأةً وبها، أو هي قليلةٌ [أي: التَّعديةُ بالباءِ]...، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ ذلك التَّفسيرَ؛ لأنَّ الحُورَ العِينَ في الجنَّةِ مِلكُ يَمينٍ كالسَّراريِّ في الدُّنيا، فلا يَحتاجُ الأمرُ إلى العَقْدِ عَليهِنَّ، على أنَّه يُمكِنُ =

قوَّةِ سَوادِها[(١)]، ....

= أن يكونَ في الجنَّةِ عَقدٌ، وإنْ لم يكُنْ فيها تَكليفٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٣). ويُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٩٢).

وقال أبو عُبيدة: (﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: جعَلْناهم أزواجًا، كما تُزَوَّجُ النَّعْلُ بالنَّعلِ، جعَلْناهم اثنَينِ اثنَينِ جَميعًا بجَميعٍ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

قال الواحدي: (وقَولُ أبي عُبَيدةَ حَسَنٌ؛ لأنَّه جَعَل قَولَه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ مِنَ التَّزويجِ الَّذي هو بمعنى: جَعْلِ الشَّيءِ زَوجًا، لا بمعنى عَقْدِ النِّكاحِ، ومِن هذا يجوزُ أن يُقالَ: كان فَرْدًا وزَوَّجْتُه بآخَرَ، كما يُقالُ: شَفَعْتُه بآخَرَ، فإنَّما يَمتَنِعُ الباءُ عندَ مَن [يمنَعُها] إذا كان بمعنى التَّزويجِ، ونحوَ هذا قال الأخفَشُ في هذه الآيةِ: جعَلْناهم أزواجًا بالحُورِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٦).

وقال ابن عاشور: (المُرادُ أنَّهُم مَأنُوسُون بصُحبةِ حَبائِبَ مِن النِّساءِ، كما أَنِسوا بصُحبةِ الأصحابِ والأحِبَّةِ مِن الرِّجالِ؛ استِكمالًا لمُتعارَفِ الأُنسِ بيْنَ النَّاسِ، وفي كِلَا الأُنسَينِ نَعيمٌ نَفْسانيٌّ مُنجَرٌّ للنَّفْسِ مِن النَّعيمِ الجُثمانيِّ، وهذا مَعنًى سامٍ مِن مَعاني الانبِساطِ الرُّوحيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).

وقال ابنُ القَيِّم بعدَ أنْ ذَكَر قَولَ مَن قال: إنَّ المعنى: قَرَنَّاهم، قال: (وعلى هذا فزَوَّجْناهم عندَ هؤلاءِ: مِنَ الاقتِرانِ والشَّفْعِ، أي: شفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائِفةٌ -منهم مُجاهِدٌ-: زَوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إياهُنَّ. قُلتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتَعديتُه بالباءِ المُتضَمِّنةِ معنَى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

وقال أيضًا: (ولا يَمتَنِعُ أن يُرادَ الأمْرانِ معًا؛ فلَفظُ التَّزويجِ يدُلُّ على النِّكاحِ، كما قال مجاهِدٌ: أنكَحْناهم الحُورَ، ولَفظُ الباءِ تدُلُّ على الاقتِرانِ والضَّمِّ، وهذا أبلَغُ مِن حَذْفِها. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(١) الحورُ جمعُ حوراءَ. قيل: هي المرأةُ البَيضاءُ النَّقيَّةُ البَياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ. في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمْعُ حَوراءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢). =

واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها[(١)].

وقيل: الحَوراءُ: هي الشَّديدةُ سَوادِ العَينِ والشَّديدةُ بَياضِها. وممَّن اختاره: أبو عُبيدةَ، ومكِّي، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).
قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَين... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥).
وقيل: سُمِّينَ حُورًا؛ لِأنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهِنَّ؛ مِن حُسْنِهِنَّ وجَمالِهِنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).
وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).
والعِينُ: جمعُ العَيناءِ. وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها: المرأةُ الواسِعةُ العَينِ عَظيمَتُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨) و(٢١/ ٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِيْنِ: حِسانُ الأعيُنِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَعةُ العَينِ وعِظَمُها معَ حُسْنِها: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).
قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ مِن النِّساءِ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهُنَّ صِفاتِ الحُسنِ والمَلاحةِ، قال مُقاتلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ. ومِن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ، وضِيقُ العَينِ في المرأةِ مِن العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥، ٦٦) و(٢١/ ٥٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨ - ٢٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الطور: ٢٠].

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾.

أي: يَطلُبُ المتَّقونَ في الجنَّةِ كُلَّ ما يَشتَهونَه مِن أنواعِ الفَواكِه، فتَأتيهم في كُلِّ حينٍ، آمِنينَ مِن نَفادِها أو انقِطاعِها، وآمِنينَ مِن أن يَنالَهم مِن أكْلِها ضَرَرٌ، أو يَلحَقَهم أذًى[1].

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى أنواعَ ما هم فيه مِنَ الخَيراتِ والرَّاحاتِ؛ بَيَّنَ أنَّ حياتَهم دائِمةٌ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر الأمانَ، وكان أخْوَفَ ما يَخافُ أهلُ الدُّنيا الموتُ؛ قال[3]:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: لا يَذوقُ المتَّقونَ في الجنَّةِ الموتَ أبدًا إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا[4].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨، ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، =

= ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَّا﴾ هنا: (بَعْدَ). والمعنى: لا يَذوقونَ فيها الموتَ بعدَ الموتةِ الأُولى الَّتي ماتوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، وذكَرَا أنَّها قريبةُ المعنى مِن (بَعْدَ)، لكِنْ ضَعَّفَ هذا القَولَ الجُمهورُ -كما ذكَرَ السَّمينُ الحَلَبي-؛ لعدَمِ ثُبوتِ كَونِ (إلَّا) بمعنى (بَعْدَ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٧، ٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١).

وقال الشربيني: (واختاره الطَّبَريُّ: لكِنْ نُوزِعَ بأنَّ إلَّا بمعنى «بَعْدَ» لم يَثبُتْ، وقد يُجابُ بأنَّ مَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يحفَظْ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٧).

وقال أبو الحسَنِ المُجاشِعيُّ: (وإنَّما جاز أن تقعَ «إلَّا» مَوقِعَ «بَعْدَ»؛ لأنَّ «إلَّا» لإخراجِ بَعضٍ مِن كُلٍّ، و «بَعْدَ» لإخراجِ الثَّاني عن الوَقتِ الأوَّلِ). ((النكت في القرآن الكريم)) (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا مِن الاستثناءِ السَّابقِ زَمانُه زمانَ المُستثنى منه، ولَمَّا كانت المَوتةُ الأُولى من جِنسِ الموتِ المنفيِّ زَعَم بَعضُهم أنَّه مُتَّصِلٌ. وقال بَعضُهم: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «بَعْدَ»، والمعنى: لا يَذوقونَ بَعْدَ الموتةِ الأُولى مَوتًا في الجنَّةِ، وهذا معنًى حَسَنٌ جِدًّا يَفتَقِرُ إلى مُساعدةِ اللَّفظِ عليه، ويُوضِّحُه: أنَّه ليس المرادُ إخراجَ الموتةِ الأُولى مِن الموتِ المنفيِّ، ولا ثَمَّ شَيءٌ مُتوَهَّمٌ يُحتاجُ لأجْلِه إلى الاستثناءِ، وإنَّما المرادُ الإخبارُ بأنَّهم بعدَ مَوتَتِهم الأُولى الَّتي كتَبَها اللهُ عليهم لا يَذوقونَ غَيرَها، وعلى هذا فيُقالُ: لَمَّا كان ما بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾ حُكمُه مخالِفٌ لحُكمِ ما قَبْلَها، والحياةُ الدَّائمةُ في الجنَّةِ إنَّما تكونُ بعدَ المَوتةِ الأُولى؛ كانت أداةُ ﴿إِلَّا﴾ مُفهِمةً هذه البَعْديَّةَ، وقد أُمِنَ اللَّبسُ؛ لعَدَمِ دُخولِها في الموتِ المنفيِّ في الجنَّةِ، فتجَرَّدت لهذا المعنى، فهذا مِن أحسَنِ ما يُقالُ في الآيةِ؛ فتأمَّلْه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧٠).

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى «سِوى»، أي: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ مَوتًا سِوى المَوتةِ الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٨).

قال الرَّسْعَني: (وأكثَرُ المفَسِّرينَ يقولُ: سِوى الموتةِ الأُولى الَّتي ذاقوها في الدُّنيا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قدَّر قومٌ ﴿إِلَّا﴾ بـ «سِوى»، وضَعَّف =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ؛ أُتِيَ بالموتِ حتَّى يُجعَلَ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثمَّ يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا مَوتَ، فيَزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويَزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم))[١].

وعن أبي سَعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّه كَبشٌ أملَحُ[٢]، فيُوقَفُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ[٣] ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا

= ذلك الطَّبريُّ، وقَدَّرَها بـ«بَعْدَ»، وليس تضعيفُه بصَحيحٍ، بل يَصِحُّ المعنى بـ«سِوَى» ويَتَّسِقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

وقيل: هذا مِن بابِ التَّعليقِ بالمحالِ، أُريدَ أن يُقالَ: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ، فوَضَعَ قولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ الموتةَ الماضيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ، كأنَّه قيل: إنْ كانت الموتةُ الأُولى يَستقيمُ ذَوقُها في المُستَقبَلِ فإنَّهم يَذوقونَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

وقيل: الاستِثناء مُنقَطِعٌ، أي: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ؛ لأنَّهم خالِدونَ فيها، لَكِنِ الموتةُ الأُولى قد ذاقوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القول: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (هذا الاستِثناءُ هو لتَحقيقِ دَوامِ الحياةِ، وعدَمِ ذَوقِ الموتِ، وهو يجعَلُ النَّفيَ الأوَّلَ العامَّ بمَنزلةِ النَّصِّ الَّذي لا يَتطَرَّقُ إليه استِثناءٌ البتَّةَ؛ إذْ لو تطَرَّقَ إليه استِثناءُ فَردٍ مِن أفرادِه لَكان أَولى بذِكْرِه مِن العُدولِ عنه إلى الاستِثناءِ المنقَطِعِ؛ فجرى هذا الاستِثناءُ مَجرى التَّأكيدِ والتَّنصيصِ على حِفظِ العُمومِ، وهذا جارٍ في كُلِّ مُنقَطِعٍ؛ فتأمَّلْه فإنَّه مِن أسرارِ العَرَبيَّةِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣٢٦).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٤٨)، ومسلمٌ (٢٨٥٠) واللَّفظُ له.

(٢) أملَحُ: أي: في صوفِه بَياضٌ وسَوادٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٩).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

الموتُ! ويُقالُ: يا أهلَ النَّارِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا الموتُ! فيُؤمَرُ به فيُذبَحُ، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا مَوتَ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أبدًا))[٢].

﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: ونجَّى اللهُ المُتَّقينَ مِن عَذابِ النَّارِ، فصَرَفَه عنهم[٣].

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وقاهم اللهُ تعالى عذابَ الجَحيمِ تَفَضُّلًا مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عليهم، وإحسانًا منه إليهم[٤].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قارِبوا وسَدِّدوا، واعلَموا أنَّه لن يَنجوَ أحَدٌ مِنكم بعَمَلِه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ولا أنتَ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ منه وفَضلٍ!))[1].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أي: النَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ: هو الرِّبحُ والظَّفَرُ العَظيمُ الَّذي لا فَوزَ غَيرُه[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى الدَّلائِلَ، وشَرَح الوَعدَ والوَعيدَ؛ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والمعنى: أنَّه تعالى وَصَف القُرآنَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ بكَونِه كِتابًا مُبينًا، أي: كَثيرَ البَيانِ والفائِدةِ، وذَكَر في خاتمتِها ما يُؤَكِّدُ ذلك، فقال: إنَّ ذلك الكِتابَ المُبينَ الكَثيرَ الفائِدةِ: أنزَلْناه عَربيًّا بِلُغَتِك؛ لَعَلَّهم يَتذكَّرونَ[3].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾.

أي: فإنَّما سَهَّلْنا على النَّاسِ -يا محمَّدُ- هذا القُرآنَ ويَسَّرْنا لهم بيانَه بِلُغَتِك العَربيَّةِ الَّتي هي أفصَحُ اللُّغاتِ؛ لعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه، ويَتَّعِظونَ بعِظاتِه، ويَعمَلونَ به[4].

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والهلاكِ وانتَظِرْه؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ - ٣٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، تأمَّلْ كيفَ ذكَرَ سُبحانَه الأمْنَ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾؛ فجَمَع لهم بيْنَ أمْنِ المكانِ، وأمْنِ الطَّعامِ -فلا يَخافونَ انقِطاعَ الفاكِهةِ، ولا سُوءَ عاقِبَتِها ومَضَرَّتَها-، وأمْنِ الخُروجِ منها فلا يَخافونَ

= (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ذلك، وأَمْنِ الموتِ فلا يَخافونَ فيها مَوتًا[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ الأمنُ أكبَرُ شُروطِ حُسنِ المكانِ؛ لأنَّ السَّاكِنَ أوَّلُ ما يتطَلَّبُه الأمنُ، وهو السَّلامةُ مِن المَكارهِ والمَخاوِفِ، فإذا كان آمِنًا في مَنزِلِه كان مُطمَئِنَّ البالِ، شاعِرًا بالنَّعيمِ الَّذي يَنالُه[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فجَمَع لهم بيْنَ حُسنِ المَنزِلِ، وحُصولِ الأمْنِ فيه مِن كُلِّ مَكروهٍ، واشتِمالِه على الثِّمارِ والأنهارِ، وحُسنِ اللِّباسِ، وكَمالِ العِشْرةِ؛ لِمُقابَلةِ بَعضِهم بعضًا، وتمامِ اللَّذَّةِ بالحُورِ العِينِ، ودُعائِهم بجَميعِ أنواعِ الفاكِهةِ، معَ أمْنِهم مِن انقِطاعِها ومَضَرَّتِها وغائِلتِها، وفي خِتامِ ذلك أعلَمَهم بأنَّهم لا يَذوقونَ فيها هناك مَوتًا[(٣)].

٤- قَولُه تعالى عن المتَّقينَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إنْ قيلَ: أليس أهلُ النَّارِ لا يموتونَ، فلِمَ بَشَّرَ أهلَ الجنَّةِ بهذا مع مُشارَكةِ غَيرِهم في هذا المعنى؟

والجواب: أنَّ أهلَ الجنَّةِ في حياةٍ هَنيئةٍ، بِشارتُهم بالخُلودِ تَزيدُهم سُرورًا وقُرَّةَ عَينٍ، وأهلَ النَّارِ يموتونَ مَوتاتٍ كَثيرةً بما يُقاسُونَ مِن الشِّدَّةِ، وانتفاءُ الموتِ عنهم يَزيدُهم حَسرةً وشِدَّةَ وَجْدٍ[(٤)]. فالآيةُ فيها بِشارةٌ بخُلودِ النِّعمةِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦).

الموتَ يَقطَعُ ما كان في الحياةِ مِن النَّعيمِ لأصحابِ النَّعيمِ، كما كان الإعلامُ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لا يَموتون نِذارةً بدَوامِ العَذابِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾، فيه سؤالٌ: كيف وعَدَ الله تعالَى أهلَ الجَنَّةِ بلُبسِ الإستبرَقِ، وهو غَليظُ الدِّيباجِ، مع أنَّ غَليظَه عندَ السُّعداءِ مِن أهلِ الدُّنيا عَيبٌ ونَقصٌ؟

الجواب: أنَّ غَليظَ دِيباجِ الجَنَّةِ لا يُشابِهُ غَليظَ دِيباجِ الدُّنيا حتَّى يُعابَ، كما أنَّ سُندُسَ الجَنَّةِ -وهو رَقيقُ الدِّيباجِ- لا يُشابِهُ سُندُسَ الدُّنيا. وقيل: غيرُ ذلك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ جُلُوسُهم على صفةِ التَّقابُلِ، والغَرَضُ منه استِئناسُ بعضِهم ببعضٍ في المَجالِسِ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ مَعلومٌ أنَّ الجنَّةَ لا موتَ فيها -لا أُولى ولا ثانِيةَ-، لكنْ لَمَّا كان نعيمُ القَلبِ مُمتَدًّا من الدُّنيا إلى دُخولِ الجنَّةِ صار كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ كِلْتَيهما جَنَّةٌ، وليس فيها إلَّا مَوتةٌ واحِدةٌ[٤]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فيه أنَّ حُصولَ النَّعيمِ واندِفاعَ العَذابِ عنهم: مِن فَضلِ اللهِ عليهم وكَرَمِه؛ فإنَّه تعالى هو الَّذي وفَّقَهم للأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي بها نالوا خَيرَ الآخِرةِ، وأعطاهم أيضًا ما لم تَبلُغْه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١١٠، ١١١).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

أعمالُهم(١).

٩- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خَتَم السُّورةَ بالحَثِّ على اتِّباعِ القُرآنِ وإنْ لم يكُنْ مَذكورًا، كما قال في مُفتَتَحِ السُّورةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾(٢) [الدخان: ٣].

١٠- قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ يُخبِرُ أنَّ كِتابَه ورَسولَه مُذَكِّرٌ لهم بما هو مَركوزٌ في فِطَرِهم؛ مِن مَعرِفَتِه تعالى ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه، والخُضوعِ له والإخلاصِ له، ومحبَّةِ شَرعِه الَّذي هو العَدلُ المَحْضُ، وإيثارِه على ما سِواه؛ فالفِطَرُ مَركوزٌ فيها مَعرِفتُه ومَحبَّتُه، والإخلاصُ له والإقرارُ بشَرعِه، وإيثارُه على غَيرِه؛ فهي تَعرِفُ ذلك وتَشعُرُ به مُجمَلًا ومُفَصَّلًا بَعضَ التَّفصيلِ؛ فجاءت الرُّسُلُ تُذَكِّرُها بذلك، وتُنَبِّهُها عليه، وتُفَصِّلُه لها وتُبَيِّنُه، وتُعَرِّفُها الأسبابَ المُعارِضةَ لِمُوجبِ الفِطرةِ، المانِعةَ مِن اقتِفائِها أثَرَها(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتَقَل به الكَلامُ مِن وَصفِ عَذابِ الأثيمِ إلى وَصفِ نَعيمِ المُتَّقِينَ؛ لِمُناسَبةِ التَّضادِّ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ الوَعيدِ بالوَعدِ، والعَكسِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

- وقولُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾؛ جِيءَ به دَلالةً على نَزاهَتِه، واشتِمالِه على طَيِّباتِ المَآكِلِ والمَشارِبِ(١).

- وأُعِيدَ حرْفُ ﴿فِي﴾ مع البدَلِ؛ للتَّأكيدِ(٢).

- قولُه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فيه وصْفُ نَعيمِ أجسادِهم بذِكرِ لِباسِهم، وهو لِباسُ التَّرَفِ والنَّعيمِ، وفيه كِنايةٌ عن تَوَفُّرِ أسبابِ نَعيمِ الأجسادِ؛ لأنَّه لا يَلبَسُ هذا اللِّباسَ إلَّا مَنِ استَكمَلَ ما قَبْلَه مِن مُلائِماتِ الجَسَدِ باطِنِه وظاهِرِه(٣).

- قولُه: ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ حَرفُ (مِنْ) لبَيانِ الجِنسِ، والمُبيَّنُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ﴿يَلْبَسُونَ﴾، والتَّقديرُ: ثِيابًا مِن سُندُسٍ وإستَبْرَقٍ(٤).

- وقدْ وصَفَ نَعيمَ نُفوسِهم بعضِهم مع بَعضٍ في مَجالِسِهم ومُحادثاتِهم بقولِه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ لأنَّ الحَديثَ مع الأصحابِ والأحِبَّةِ نَعيمٌ للنَّفْسِ؛ فأغْنَى قَولُه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن ذِكْرِ اجتِماعِهم وتَحابِّهم وحَديثِ بَعضِهم مع بَعضٍ، وأنَّ ذلك شَأنُهم أجمَعينَ؛ بأنْ ذَكَر ما يَستَلزِمُ ذلك، وهو صِيغةُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومادَّتُه؛ على وَجهِ الإيجازِ البَديعِ(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٨).

الجُملةُ اعتِراضيَّةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه؛ جِيءَ بها للتَّقرير[١].

- قولُه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ الزَّوجُ هنا كِنايةٌ عن القَرينِ، أي: قَرَنَّا بكُلِّ واحِدٍ نِساءً حُورًا عِينًا[٢]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: همْ يَأمُرون بأنْ تُحضَرَ لهم الفاكِهةُ، أي: فيُجابُونَ؛ ففي الكلامِ حذْفٌ. والدُّعاءُ نَوعٌ مِن الأمرِ، أي: يَأذَنون بكلِّ فاكِهةٍ، أي: بإحضارِ كلِّ فاكِهةٍ، و(كل) هنا إمَّا مُستَعمَلةٌ في الكَثرةِ الشَّديدةِ لكُلِّ واحِدٍ منهم، أو تَكونُ بمَعنَى الإحاطةِ، أي: بكلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ الفاكِهةِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قال في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: إنَّهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، مع أنَّهُم لم يَذوقُوا المَوتَ فيها، وهو مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لِزيادةِ تَحقيقِ انتِفاءِ ذَوقِ المَوتِ عن أَجَلِ الجنَّةِ، كأنَّه قيل: لا يَذوقُون فيها المَوتَ الْبَتَّةَ؛ للمُبالَغةِ في تَعميمِ النَّفيِ؛ فوُضِعَ قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ المَوتةَ الماضِيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ؛ فهو مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحالِ، كأنَّه قيل: إنْ كانَت المَوتةُ الأُولَى يَستَقيمُ ذَوقُها في المُستقبَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٦، ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٩).

فإنَّهم يَذوقونَها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وضَميرُ ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ عائِدٌ إلى ضَميرِ المُتكَلِّمِ في ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ على طَريقةِ الالْتِفاتِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ. وذِكرُ الرَّبِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فَضلًا مِنه أو مِنَّا، ونُكتةُ هذا الإظهارِ: تَشريفُ مَقامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والإيماءُ إلى أنَّ ذلك إكرامٌ له؛ لإيمانِهم به[٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ. والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَعظيمِ الفَضلِ ببُعدِ المَرتَبةِ. وأُتِيَ بضَميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾؛ لِتَخصيصِ الفَوزِ بالفَضلِ المُشارِ إليه، وهو قَصرٌ لإفادةِ مَعنَى الكَمالِ؛ كأنَّه لا فَوْزَ غَيْرُه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ للتَّفريعِ؛ إشارةً إلى أنَّ ما بَعْدَها مُتفَرِّعٌ عمَّا قَبْلَها؛ حيث كان المَذكورُ بعْدَ الفاءِ فَذْلَكةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢٩-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للسُّورَةِ[١]، أي: إجمالًا لأغراضِها بعْدَ تَفصيلِها فيما مَضَى؛ إحضارًا لِتِلكَ الأغراضِ، وضَبطًا لتَرَتُّبِ عِلَّتِها، أي: إنَّما أنزَلْنا الكِتابَ المُبينَ بِلُغَتِك كَيْ يَفْهَمَه قَومُك، ويَتذَكَّروا ويَعمَلُوا بمُوجَبِه، وإذا لم يَفعلُوا ذلكَ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ ما يَحُلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ ما يَحُلُّ بكَ[٢].

- وضَميرُ ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ المَفهومِ مِن المَقامِ، والمَذكورِ في قَولِه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ...﴾ إلخ [الدخان: ٢، ٣]، والَّذي كان جُلُّ غَرَضِ السُّورَةِ في إثباتِ إنزالِه مِن اللهِ تعالى، كما أشار إليه افتِتاحُها بالحُروفِ المُقَطَّعةِ وقَولِه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ فهذا التَّفريعُ مُرتَبِطٌ بذلك الافتِتاحِ، وهو مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ فهذا

(١) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ(البَسملةِ) و(الحَوْقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصدير-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ =

التَّفريعُ تَفريعٌ لِمَعنَى الحَصرِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ لبَيانِ الحِكمةِ في إنزالِ القُرآنِ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ فيَكون تَفريعًا على ما تقدَّم في السُّورةِ، وما تَخَلَّله وتَبِعَه مِن المَواعِظِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ المُفرَّعُ قَولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقُدِّم عليه ما هو تَوطِئةٌ له؛ اهتِمامًا بالمُقَدَّمِ، وتَقديرُ النَّظمِ: فلَعَلَّهُم يتَذَكَّرون بهذا؛ لِمَا يَسَّرْناه لهم بلِسانِهم[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن (إِنَّمَا) قَصرُ قَلبٍ[٢]، وهو رَدٌّ على المُشرِكين؛ إذ قد سَهَّل لهم طَريقَ فَهمِه بفَصاحَتِه وبَلاغَتِه؛ فقَابَلوه بالشَّكِّ والهُزْءِ، كما قَصَّه اللهُ في أوَّلِ السُّورَةِ بقَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، أي: ما جَعَلْنا فَهْمَه يَسيرًا بسَبَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ الفُصحَى -وهي لُغَتُهم- إلَّا لِيَتذَكَّروا فلم يَتذكَّروا، فمَفعولُ ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ مُضافٌ مُقَدَّرٌ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فَهْمَه[٣].

- والباءُ في ﴿بِلِسَانِكَ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَبَبِ لُغَتِك، أي: العربيَّةِ، وفي إضافةِ اللِّسانِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم عِنايةٌ بجانبِه، وتَعظيمٌ له، وإلَّا

= ﴿أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص:١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

فاللِّسانُ لِسانُ العَرَبِ[١].

- و(لعَلَّ) مُستَعمَلةٌ في التَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ أن يتَذَكَّروا به[٢].

- وفي هذا الكَلامِ المُوجَزِ إخبارٌ بتَيسيرِ القُرآنِ للفَهمِ؛ لأنَّ الغَرَضَ منه التَّذَكُّرُ، وبأنَّ سَبَبَ ذلك التَّيسيرِ كَونُه بأَفصَحِ اللُّغاتِ، وكَونُه على لِسانِ أفضَلِ الرُّسُلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلذلك كان تَسَبُّبُه في حُصولِ تَذَكُّرِهم تَسَبُّبًا قَريبًا لو لم يَكُونُوا في شكٍّ يَلعبَون، وباعتبارِ هذه المَعاني المُتَوافِرةِ حَسُنَ أنْ يُفَرَّعَ على هذه الجُملةِ تَأْييدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَهديدُ مُعانِديه بقَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾، أي: فارتَقِبِ النَّصْرَ الَّذي سَأَلْتَه بأنْ تُعانَ عليهم بسِنِينَ كَسِنِي يوسفَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-؛ فإنَّهم مُرتَقِبون ذلك وأَشَدَّ منه، وهو البَطْشةُ الكُبرَى[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ فصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن محذوفٍ، أي: إنْ لم يَتَّعِظوا ولم يُؤمِنوا به فارْتقِبْ[٤].

- ومَفعولُ (ارْتَقِبْ) مَحذوفٌ، تَقديرُه: هَلاكَهم[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالانتِظارِ في قَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾، أي: ارتَقِبِ النَّصْرَ بأَنَّهُم لاقُو العذابِ بالقَحطِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-، وقد أَغنَت (إنَّ) عن التَّسَبُّبِ والتَّعليلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

- وفي هذه الخاتِمةِ ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذ كان صَدرُ السُّورةِ فيه ذِكرُ إنزالِ الكِتابِ المُبينِ، وأنَّه رَحمةٌ مِن اللهِ بواسِطةِ رِسالةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان في صَدرِها الإنذارُ بارْتِقابِ يَوم تأْتي السَّماءُ بدُخَانٍ مُبينٍ، وذِكرُ البَطْشةِ الكُبرَى؛ فكانت خاتِمةُ هذه السُّورةِ خاتِمةً عَزيزةَ المَنالِ؛ اشتَمَلت على حُسْنِ بَراعةِ المَقطَعِ، وبَديعِ الإيجازِ(١).



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الجاثيةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢).



الفهرس







الفهرس

سورةُ الزُّخرُفِ

سُورةُ الدُّخَانِ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠